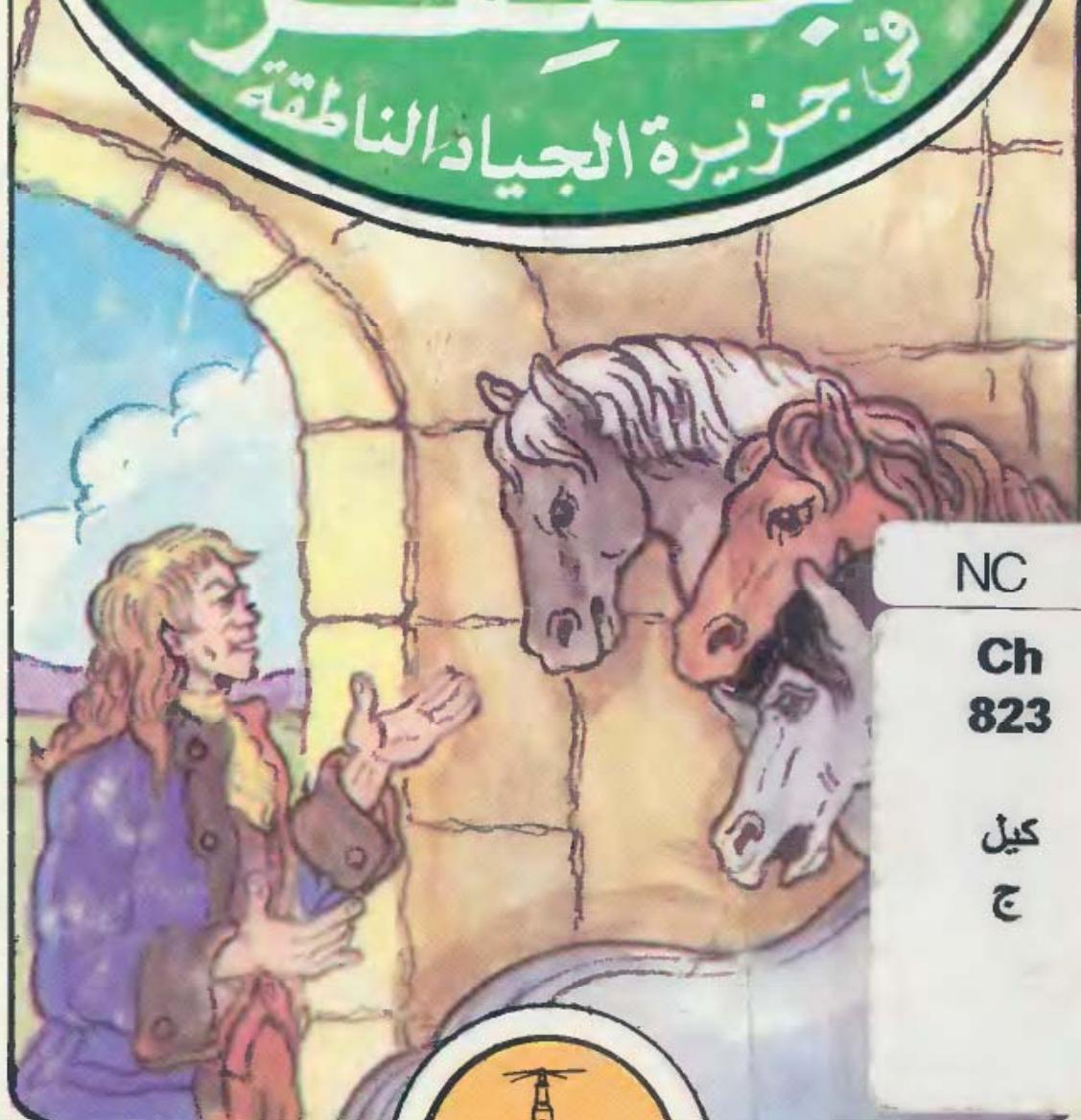


كامل كيلواني



أشهر القصص

حَلْقَر
في جزيرة الجياد الناطقة



NC

Ch
823

كيل
ج



اهداف ٢٠٠٢

/ رشاد حاصل المصيلحي

القاهرة

كامل سيلاني

أشهر القصص

جَلْقَهْرَ

الرحلة الرابعة

في جزيرة الجياد الناطقة

الطبعة الثالثة عشرة



دار المعرف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

الفصل الأول

١ - بعد خمسة أشهر

قضيتُ أشهراً خمسةَ مع زوجي ولدي . وما أحسني أخطئُ
الصوابَ إذا قررتُ أنني كنتُ خلالَ هذه المدة سعيداً . وليتني فطنتُ
إلى هذه السعادة ، وقدرتُ تلك الحياة الرغدة الودعة التي نعمتُ
بها حيناً من الدهر

ولكن الشقاء أبي على إلا أن أكفر بهذه النعمة ، وأورثَ
المغامرة في الأسفار ، وأقبل رياسة سفينة تجارية كبيرة ، اختارني
 أصحابها رباناً لها . فأعددتُ المدة للسفر ، وفرحتُ بهذا المنصبِ
الجديد الذي أراحني من أعباء مهنتي الأولى ، وهي الجراحة . فاستدعيتُ
إلى سفينتي جراحًا ماهرًا اسمه « روبرت » ، وانتوأته معاونته إذا
اضطررتني الأحوال إلى ذلك .

ثم أقلعت السفينة من ميناء « بورتسموث » في اليوم السابع من
سبتمبر عام ١٧١٠ م . ولما جاء اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ، التقينا

بالرُّبَّانِ « بِرُوك » ، وَكَانَ – حِينَئِذٍ – رُبَّانًا لِلْسَّفِينَةِ « بِرِسْتُول » ، وَقَدْ جَعَلَ قِبْلَتَهُ خَلْبَجَ « كَيْش »؛ حِيثُ يَقْطَعُ الْخُشْبَ وَيَعُودُ بِهَا إِلَى بَلَادِهِ .

وَسَارَتِ السَّفِينَاتِ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ ؛ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْيَوْمُ السَّادِسُ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ ، هَبَّتْ عَاصِفَةً شَدِيدَةً ، اَنْتَهَتْ بِالْفُرُقَةِ بَيْنِ السَّفِينَتَيْنِ ؛ فَلَمْ يُكْتَبْ لَنَا الْلِقَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَقَدْ عَلِمْتُ – بَعْدَ أَنْ عُدْتُ إِلَى بَلَدِي – أَنَّ السَّفِينَةَ « بِرِسْتُول » هَذِهِ قَدْ غَرِقَتْ ، وَغَرِقَ رُبَّانُهَا وَبَحَارُوهَا ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا بَحَارٌ صَغِيرٌ هَيَّا لِهِ الْقَدْرُ أَسْبَابُ النَّجَاهِ بِأَعْجُوبَةٍ .

وَكَانَ هَذَا الرُّبَّانُ مِثَالًا مِنْ أَمْثَالِ الظَّرْفِ وَالْبِرَاعَةِ ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ كُلُّ مِنْ عَرَفَهُ بِالْمَهَارَةِ فِي قِيَادَةِ السُّفُنِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ – عَلَى ذَلِكَ – شَدِيدَ الْعِنَادِ ، لَا يَقْبَلُ الْخُضُوعَ لِرَأْيِ خَيْرٍ ، بِالْتَّائِبَةِ بَلْقَعَ مِنَ الرَّجَاحَةِ وَالْأَصَالَةِ . وَأَغْلَبَ الظُّنُونُ أَنَّ هَذَا الْعَيْبُ هُوَ الَّذِي أَسْلَمَهُ إِلَى حَتْفِهِ ، وَكَانَ سَبَبُ هَلاِكِهِ وَهَلَاكِ رِفَاقِهِ .

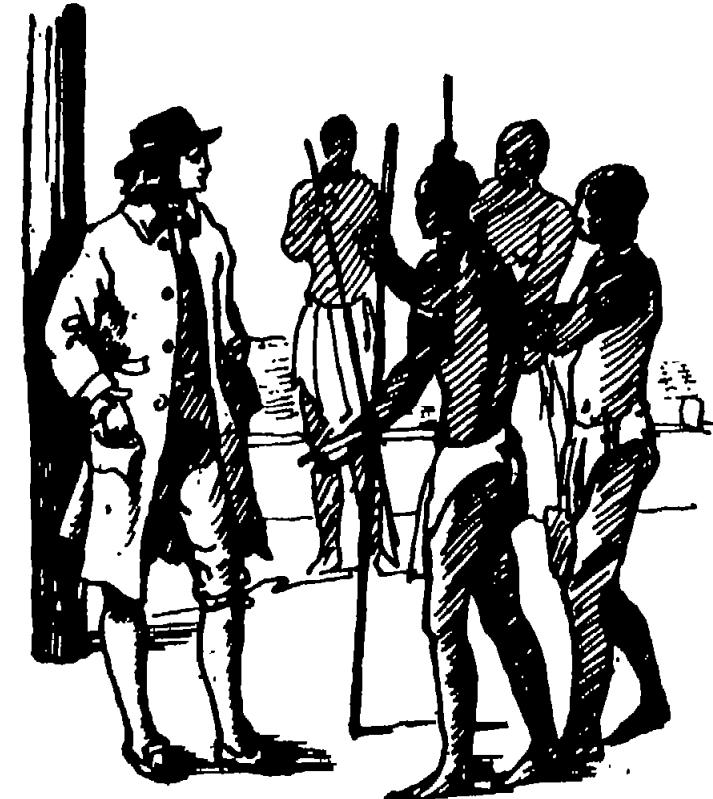
وَلَوْ أَنَّهُ أَقْلَمَ عَنِ عِنَادِهِ ، وَتَرَكَ الْإِسْتِبْدَادَ بِرَأْيِهِ ، وَأَخْذَ بِنَصِيْحَتِيِّ ،

لَكُتِبَتْ لَهُ الْمَوْدَةُ إِلَى بَلَادِهِ سَالِمًا، فَلَقِيَ أُشْرَتَهُ كَا لَقِيَّتْهَا، وَلَتَكُنْ
هُكْذَا كَانَ ا

٢ - مُؤَمَّرَةُ الْهَمَجِ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ تُصَابَ جَمِيعَهُ مِنْ رِفَاقِ الْمَرْضِ - فِي أَثَاءِ الرُّحْلَةِ -

وَأَنْ يُسْلِمُهُمُ الْمَرْضُ
إِلَى الْهَلاَكِ . فَلَمْ أَرْ
بُدًّا مِنِ الْإِسْتِعَانَةِ
بِجَمِيعَهُ مِنَ الْهَمَجِ؛
لِيَحْلُوا مَحَلُّ رِفَاقِ
فِي السَّفِينَةِ ، وَكَانَ
سَوَادُمِنْ صَيَادِي
الثِّيرَانِ الْوَحْشِيَّةِ .
وَقَدْ نَدِمْتُ أَشَدَّ



النَّدَمِ لَاخْتِيَارِ هُولَاءِ الْخَوَافِرِ؛ قَدْ تَكَشَّفَتْ لِي مَسَاوِيَهُمْ ، وَتَبَيَّنَ

لِي خُبُثٌ تُقوسْهُمْ ، وَلُؤُمٌ طَبائِعِهِمْ .
وبعدَ قليلٍ من الزَّمِنِ ، أَمْرَنِي هُولاءِ الْمَجَعُ بِالرَّسُوْفِ بِلِدِ قَرِيبٍ .
وكان معي بالسفينةِ خمسونَ رجلاً ، وَكُنْتُ مُوزَعَ الْفِكْرِ بَيْنَ ثَلَاثَةِ :
الإِتْجَارِ مَعَ أَهْلِ « إِفْرِيقِيَّةَ » ، وَكَشْفِ الأَصْقَاعِ الْمَجْهُولَةِ جُهْدَ
طَاقَتِي ، وَقِيَادَةِ هَذِهِ السَّفِينَةِ . فَانْتَهَى الْأَوْغَادُ الْفَرَصَةَ ؛ فَأَفْسَدُوا
عَلَى بَقِيَّةِ الْبَحَارِينَ ، ثُمَّ اتَّسَرُوا بِي ، وَأَبْرَمُوا خُطَطَهُمُ الْخَيْثَةَ لِلْقَبْضِ
عَلَى ، وَالْإِسْتِيلَاءَ عَلَى سَفِينَتِي .

٣ - تَنْفِيذُ الْمُؤَامَرَةِ

وَذَا صَبَاحٍ افْتَحَمُوا عُرْفِي ، وَاقْتَضَوْا عَلَيَّ ، وَشَدُّوا وَثَاقِي ، وَتَوَعَّدُونِي
بِالْهَلَاكَ ، وَأَقْسَمُوا لِيَقْذِفُنِي إِلَى الْبَحْرِ ، إِذَا هَمَتْ بِمَقَاوِمَتِهِمْ ،
أَوْ فَكَرْتُ فِي الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِي .

قُتِلْتُ لَهُمْ - وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ كُلَّ مَقاوِمَةٍ لَنْ تُشَيرَ إِلَّا شَرًا -
« لَقَدْ أَصْبَحْتُ - مِنْذُ الْيَوْمِ - سَجِينَكُمْ . وَإِنِّي أُقْسِمُ لَكُمْ عَلَى
الخَضُوعِ ، وَلَنْ أَغْصِنَ لَكُمْ أَمْرًا . »

فاطمأنوا إلَىٰ ، ووثقُوا بقَسْمِي ؛ فَحَلُّوا وثاقَ ، واكْتَفَوْا بِرِبْطِي
إِلَى عُودِ سَرِيرِي الْخَشْبِي . ووَكَلُوا أَحَدَ الْحُرَاسِ بِمُرَاقبَتِي وِحْرَاسَتِي ،
وأَمْرُوهُ بِشَجَّعِ رَأْسِي وَتَحْطِيمِهِ إِذَا حَاوَلْتُ الْفَكَاكَ مِنَ الْأَسْرِ ، وَأَوْصَوْهُ
بِتَقْدِيمِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لِي ، ثُمَّ تَوَلَّوْا قِيَادَةَ السَّفِينَةِ إِلَى حِيثُ يَشَاءُونَ .
وَكَانَ أَكْبَرَ هَمْهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ هَذِهِ السَّفِينَةِ أَدَاءً لِلصُّوْصِيَّةِ ،
وَسَلَبُ السُّفُنِ التَّجَارِيَّةِ كُلَّ مَا فِيهَا . فَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى بَيْعِ مَا فِي سَفِينَتِي
— مِنَ الْبَضَائِعِ — فِي أَقْرَبِ مَدِينَةٍ يَحْلُّونَ بِهَا ؛ فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكُ ،
ذَهَبُوا إِلَى جَزِيرَةِ « مَدَغَشَقَرَ » ؛ فَأَخْذُوا مِنْهَا جَمْرَةً مِنَ الْأَهْلِيَّنَ ،
لِيَمَاوِنُوهُمْ فِي قِيَادَةِ السَّفِينَةِ . وَكَانُوا مُضْطَرِّينَ إِلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْمَرْضَ
قَدْ أَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ الْبَحَارَةِ ، بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُمْ اعْتِقَالِي .

وَقَدْ سَارَتِ السَّفِينَةُ أَسَايِعَ عَدَةَ ، وَظَلُّوا يَتَبَعُونَ مَا لَيْسَ بِهِمْ مِنَ الْبَضَائِعِ ،
وَيَسِيرُونَ فِي مَجَاهِلِهِنَّ — مِنَ الْبَحْرِ — لَا عَهْدَ لِي بِهَا ؛ لِأَنِّي كُنْتُ
أَجَهَلُ — بَعْدَ أَنْ أَسْرُونِي — خُطْبَةَ السِّيرِ الَّتِي اخْتَارُوهَا . وَظَلَلْتُ
أَرْتَهِبُ حَيْنِي بَيْنَ لَحْظَاتِي وَآخْرِي ؛ لِأَنَّهُمْ هَدَدُونِي بِالْقَتْلِ أَكْثَرَ مِنْ
مَرْأَةَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَنْعُمُونَ مِنْ تَنْفِيذِي وَعِيدِمِ أَيِّ مَانِعٍ .

٤ - خاتمة المُوامِرَة

وفي اليوم التاسع من مايو عام ١٧١١ م دخل عُرفَى أحدُ المؤتمرين
واسمه « جاك » - وقال لي :
« لقد أَمْرَنِي رُبَّانُ السفينةِ أَنْ أَنْزِلَكَ إِلَى الشَّاطِئِ . »



فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبِبِ ؛ فَلَمْ يُحِنِّتِنِي بَشِّيٌّ . وَحاوَلْتُ عَيْنًا أَنْ أَعْطِفَهُ
عَلَىٰ ، وَظَلَلْتُ أَضْرَاعَ إِلَيْهِ مَرَّةً ، وَأَخْتَجَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ ؛ فَلَمْ تُجُدْنِي
الضَّرَاعَةُ ، وَلَمْ يَنْفُغِنِي الْإِحْتِجاجُ . فَسَأَلَهُ عَنِ اسْمِ الرُّبَّانِ الْجَدِيدِ ،
فَكَانَ جَوابَهُ الصَّمْتُ .

على أن المؤتمرين قد أذنوا لي أن أرتدي أخر ثيابي ، وأن أحمل معى كل ما أحتاج إليه من متاع .
 وتلطفوا بي ؟ فلم يفتّشوا عما في جيوبِي ، وكان بها قليل من القوِّد ، وبعض الأدوات الصغيرة الضروريَّة .
 ثم حملوني إلى زورق صغير ، وساروا به نحو ميل ، حتى وصلنا إلى الشاطئ ، فسألتهم : « أيُّ البلد هذه ؟ »
 فأقسموا أنهم يجهلونها ، ولا يعرِفون عنها أكثر ممّا أعرف ، وأخبروني أن الرِّيان قد أصدر قراره — منذ أيام — بالتخلي
 مني في أول فرصة ، بعد أن تم له بيع كل ما في السفينة من بضائع .

٥ - في أرضٍ مجهولة

ثم تركوني واقفاً على الشاطئ ، ونصحوا لي أن أُعجل بالذهاب بعيداً عنه ؛ حتى لا يُغرِّقني المد — وهو وشيك — ثم دعوني وادعوا بِزورقِهم إلى السفينة مسرعين ، يهبون البحر نهبا .

ولم أجده مناسًا في ذلك الموقف العرج من الأسراع
— كما أوصوئني — إلى تلك الأرض المجهولة التي لا أعلم عنها شيئاً.
وما زلت سائراً حتى تخطيت رمال الشاطئ كلها، وخللت بالأرض
الصلبة؛ فجلست أستريح من عناء السير، وأفڪر فيما أنا قادم عليه
من أخطار وأهوال.

وأكْسَبَتِي الرَّاحَةُ شَيْئاً مِنَ الْقُوَّةِ؛ فَتَقدَّمْتُ سَائِراً فِي تِلْكَ
الْمَجَاهِلِ، وَقَدْ تَمَلَّكَ قَسْيَ الْيَأسِ؛ فَاعْتَزَمْتُ أَنْ أَسْلِمَ قَسِيَ إِلَى
أُولَئِنَّى فِي الطَّرِيقِ، وَرَأَيْتُ أَنْ أَزْشُوَّ مِنْ يَقَابِلِي مِنَ
الْأَهْلِيَنَ بِعِصْنِ الْخَوَاتِيمِ وَالْعُرَفِ الصَّفِيرِ الَّتِي لَا يَخْلُو مِنْهَا جَيْبٌ
سَائِحٍ، وَكَانَتْ جُيُوبِي مَلَأَتْ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْهَدَىِيَا وَالشَّحَفِ.

ورأيت جمّهُرَةً من الأشجار مُبَغَّرَةً في أثناء الطريقي على غير ترتيب ، كأنما أخرجتها الطبيعة ، ولم تنظمها يد إنسان . ولم الجثَّـتها ، أستقبَلْتني مَرَاعٍ فسيحة ، وحقولٌ واسعةٌ من الشوفانِ : فمشيَّـت خـلالـها منتبـها حـذـراً خـشـيـةً أن يفـاحـشـنـ سـهـمـ من سـهامـ الأـهـلـيـنـ . فيقـضـيـ على حـيـاتـيـ .

٦ - آثار الشكأن

ورأيتُ أمامي سبيلاً مطروقةً ، فيها آثارُ أقدامِ إنسانيةٍ ، وآثارُ حوافرِ البقرِ والخيلِ . ورأيتُ دوابَ جاثماتٍ على شجرةٍ ، وبدأ لي منها وُجوهٌ غريبةٌ مشوهةٌ ؛ فدبٌ ديبٌ الخوفِ إلى قلبي ، وأسرعتُ إلى كومةٍ من العلفِ ، فاستخففتُ في أثاثِها ، وظللتُ أنعمُ النظرَ فيما أرى أمامي من تلك الوجوهِ المشوهةِ . وقد هالني بما رأيته من الشعر الطويل المتبدّل على وجوهها ورقبتها ، وأبصرتُ بعضها شعراً جمداً ، ولبعضِ الآخرِ شعراً سبطاً مرسلاً .

وزاد عجبي منها حين رأيتُ صدورها وظهورها وأرجلها مقطأةً بغيرِ كشفٍ ، وقد نبتتِ اللحى - في أذقانِها - فكانتْ في وجوهها اشبه باللحى التي تنبتُ في أذقانِ الجناءِ .

أما بقيةُ أجسادِها العاريةِ ، فليسَ فيها شعرٌ ؛ وألوانُها تميلُ إلى الشمرةِ ، وقد تدلّتْ على ظهورها خصلٌ طوليةٌ من الشعرِ ، وليس لها ذيولٌ في مُؤخراتها .

ورأيتُ هـذا الحـيوانـ يجلسـ - كـما يـجلسـ النـاسـ - وـيقـفـ عـلـى رـجـلـيـهـ كـما تـقـفـ ، وـيـتـسلـقـ الأـشـجارـ فـي سـرـعـةـ عـجـيـبـةـ ، وـيـقـفـ إـلـيـها فـي مـثـلـ خـفـةـ السـنـجـابـ ، وـلـهـ مـخـالـبـ طـوـيـلـةـ مـلـتوـيـةـ فـي أـرـجـلـهـ الـخـلـفـيـةـ وـالـأـمـامـيـةـ .

وـإـنـاثـ هـذا الحـيوانـ أـضـالـ جـسـماـ مـنـ ذـكـورـهـ ، وـلـهـ شـعـرـ طـوـيـلـ مـرـسـلـ نـاعـمـ ، وـلـيـسـ فـي وـجـوهـهـ شـعـرـ ، وـلـاـ يـنـبـتـ فـي أـجـسـادـهـ مـنـهـ إـلـاـ خـصـيلـ قـلـيلـةـ . وـأـنـدـاـوـهـا مـدـلـلـةـ بـيـنـ أـرـجـلـهـ الـأـمـامـيـةـ ، وـرـبـماـ مـسـتـ ثـدـيـهـا الـأـرـضـ ، فـي أـنـاءـ سـيرـهـ . وـرـأـيـتـ لـبعـضـهـ شـعـرـاـ أـسـمـرـ ، وـلـبـعـضـ الـأـخـرـ شـعـرـاـ أـحـمـرـ ، أـوـ أـسـوـدـ ، أـوـ أـصـفـرـ .

وـجـمـاعـ القـولـ أـنـ هـذا الحـيوانـ قدـ تمـثـلـ لـيـ فـي أـبـشـعـ صـورـةـ رـأـتـهـ عـينـايـ ، وـأـنـيـ لـمـ أـشـعـرـ - طـوـلـ حـيـاتـيـ - لـأـئـيـ جـنـسـ مـنـ أـجـنـاسـ الـحـيـوانـ ، يـمـيـثـلـ ماـشـعـرـتـ بـهـ مـنـ الـكـراـهـيـةـ وـالـمـقـتـ لـهـذـاـ الـحـيـوانـ الـمـخـفـ .

٧ - مـخـلـوقـاتـ بـشـيـعـةـ

وـرـأـيـتـنـىـ قـدـ ضـيـقـتـ ذـرـعـاـ بـهـذـاـ الـمـخـلـوقـ التـعـسـ ، فـلـمـ أـطـقـ النـظرـ إـلـيـهـ ؛

فخرجت من مخبي نافراً مُسْمِّرًا مُتَقَزِّزَ النَّفَنِ ، وابتاقتُ السيرَ
في طريق ، آملاً أن أهدي إلَى كُوخ بعض السكَانِ . ولكن لم ألبث
أنْ فوجئتُ بعده خطواتٍ يسيرةً بحَيوانٍ من ذلك الجنس البشع
الذى وصفته . فما



أبصَرَني حتى تملكته
الدَّهشةُ ، وبدأت على
أساريره أماراتُ الْوَحْشَيَّةِ ؛
فكشرَ عن آنيابه ، فكانما
لم ير طوال حياته حيواناً
في مثل صوري . فدنا

مني ، ورفع إحدى رجليه الأماميتين ، وما أدرى لذلك سبباً ؛ فلم
أستطع أن أتيقَن مقصيده من هذه الحركة : فهو التَّرْحِيبُ أم الفَدْرُ ؟
فاستلتلت سيفي ، وضربت بصفحته ذلك الحيوان ، وقد آثرت
أن أضربه بمثنى السيف - دون حده - لأنني لم أقصد إلَى قتله أو
جرحه ، حتى لا أُسيء إلى أصحاب هذا الحيوان .

ولما رأى ما فعلتُ، فرَّ هارِبًا، وانطلق يُصوَّتُ، ويُرسِلُ صرَّحاتٍ عاليَّةً مُدوِيَّةً في الفضاء. فأقبلَ — لتجدته — أربعون دابةً في مثلِ شكلِه وهيئته، واندفعتْ صَوْبِي، وهي تصبِحُ مُكثَّرَةً عن آنيابِها، مُنذِرَةً مُتَوَعِّدةَ. وعلا صَخْبَها؛ فانطلقتُ أَعْدُو حتى بلغتْ شجرةً، فاعتمدتُ على جذْعِها، ولوَجَتْ بسيقِي أمامَ هذه الجمجمة الشَّرِسَةِ؛ فقفزَ كثيرٌ منها على أغصانِ الشجرةِ، وأمنطَرَني وايلا من أقدارِه. ورأيتُ الخَطَرَ يشتَدُ؛ فتشبَّثَ بالشجرةِ — بكلِّ قوَّتي — حتى آمنَ شرَّ هذا العِيوانِ الشَّرِسِ وأتَقَ آذاهُ؛ ولكنني كِدتُ أختنقُ من رائحةِ أقدارِه الكريهةِ التي غمرَني بها.

٨ - سهيلُ الْجَوَادِينَ

وإني لأُعاني — من هذا المأزقِ العَرِجِ — ما أُعاني، إذ تَسَمَّتُ الفرجَ بعدِ الضيقِ، حين رأيتُ أُسْرَابَ هُنَّ الدَّوَابُ الكريهةِ تَقْرُ هارِبَةً، وتَعْدُو مُنْطَلِقةً في سُرْعَةِ التَّالِفِ المذعورِ. فشجعني ما رأيتُ على تَرْكِ الشجرةِ، واستأقْتُ سَيْرِي، وأنا شديدُ المَجَبِ مَا حَدَثَ، وظَلَّلتُ أَحَدُّ تَقْسِي، مدھوشاً :

« تُرى ما الذي أخاف الدواب وفزعها ، فانطلقت في عدوها ،
لا تلوي على شيء؟ »

ونظرت — يمنة ويسرة — لعلى أتعرف السبب ؛ فرأيت جواداً
مُقبلًا علىَّ ، يمشي مُتبخرًا — في وقار عجيب — وسط حقل
قريب . وكان مقدام هذا الجواد النبيل سبيباً في إقاذى من الورطة ،
وفكاكى من الحصار .

ثم دنا مني هذا الجواد ، ووقف أمامى ، ثم تراجع إلى الوراء ،
ثم أجال بصره في ، وظلّ ينعمُ النظر ، ويُحيلُ لاحظة في كل
ناحية ، ويدورُ حولي مراتٍ عدة ، وقد بدأ عليه أمارات
الدهشة والعجب !

وبدأ لي أنْ أستأنفَ السيرَ في طريق ، ولكنه اعترضنى ، ووقف
أمامى ينظرُ إلىَّ بعينٍ وادعةٍ مؤنسةٍ ، ولم يُبدِ شيئاً من الشراسةِ
والعنفِ ، وظلَّ كلاماً ينعمُ النظرَ في صاحبه وقتاً غيرَ قصير . ثم
عنَّ لي أنْ أربَّتَ رقبته متودداً ، كما يربَّتُ السادسُ الجوادَ الغريبَ
ليؤنسه ويلطفه

وَكَانَا أَغْضِبَتْهُ مِنْ هُنْدِ الْجُرْأَةِ ، وَرَأَى فِي تَحْسِنِي تَوْقِحًا عَلَيْهِ



فِيدَتْ عَلَى وَجْهِهِ دَلَائِلُ الْإِحْتِقارِ
وَالْإِزْدِرَاءِ ، وَهَزَّ رَأْسَهُ ، وَقَطَبَ
حَاجِبَيْهِ ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ ، وَرَفَعَ
إِحْدَى رِجْلَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ – فِي
عِزَّةِ وَاسْتِكْبَارٍ – مُشِيرًا إِلَى
أَنْ أَرْفَعَ يَدِيْ . ثُمَّ صَهَّلَ الْجَوَادُ
ثَلَاثَ مَرَاتٍ أَوْ أَرْبَعًا ، وَحَمْمَمَ

فَدَهِشْتُ مِنْ صَهِيلِهِ وَحَمْمَمَتِهِ ، فَقَدْ سَمِعْتُ فِي جَرْسِهِ مَا لَمْ أُسْمِعْ
مِنْ جَوَادٍ قَبْلِهِ ، وَخُلِّيَّ إِلَى أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ لِنَفْهَ بَيْنَهَا ، فَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ
اِخْتِلَافِ نَبَرَاتِ صَوْتِهِ ، وَتَنَوُّعَ لَفْظِهِ ، وَتَبَاعِينَ جَرْسِهِ ، مَا أَشْعَرْنِي
أَنَّهَا تَنْطَوِيْ عَلَى مَعَانِ شَتَّىِ .

وَلَمْ يَنْتَهِ مِنْ حَمْمَمَتِهِ وَصَهِيلِهِ ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْهِ جَوَادٌ ثَانٌ ، وَظَلَّ
يَتَهَادَى فِي مِشِيشَتِهِ ، حَتَّى دَانَاهُ ؛ فَلَمَسَ بِحَافِرِهِ الْأَمَامِيَّةِ حَافِرَ صَاحِبِهِ ،
ثُمَّ أَجَابَهُ عَنْ صَهِيلِهِ بِصَهِيلِ آخَرَ . وَظَلَّ كَلَاهُما يُحِيبُ صَاحِبَهُ مُتَفَقَّشًا

في صهيله بنبراتٍ شتّى ، ومقاطعٍ متباعدةٍ (مُختَلِفةٌ) ، تُشيرُ ساميها
أنَّها أَفْاظٌ مستقلةٌ ، تؤدي مَعانيَ بِأَعْيَانِها .

ثُمَّ سارَ الْجَوَادُانِ بِضَعَ خطُواتٍ ، وَهَا يُحْمِنُهَا وَيَصْهَلُانِ :
فَكَانُوا يَتَشَاورَانِ فِي أَمْرٍ . وَمَا زَالَا يَمْشِيَانِ — جَيْئَةً وَذَهَابًا —
فِي جَلَلٍ وَوَقَارٍ خَيْلاً إِلَى أَنْ رَجُلَيْنِ يَتَشَاورَانِ فِي بَعْضِ الشُّوُونِ
الخَطِيرَةِ . وَكَانَا لَا يَكُفَّانَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى — فِي أَنْسَاءِ حِوارِهَا —
كَانُوا خَيْشِياً أَنْ أُفْلِتَ مِنْهُما !

٩ - سادةُ الجزيرةِ

وَاشتَدَّتْ دَهْشَتِي وَعَجَبِي مَا رأَيْتُ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِذَا كَانَتْ
جِيادُ هَذَا الْبَلَدِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الرَّجَاحَةِ وَالْوَقَارِ ، فَكَيْفَ يِسَادَتِهِ مِنْ
الْأَنْاسِ ؟ لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ أَرْجُحُ النَّاسِ عَقْلًا ، وَأَوْفَرُهُمْ ذَكَاءً ، وَأَعْظَمُهُمْ
أَصَالَةَ رَأْيٍ ، وَصِدْقَ نَظَرٍ !

وَتَمْلَكَتْ نَفْسِي هَذِهِ الْقِيَدةُ ، فَاعْتَرَفْتُ التَّجْوَالَ فِي هَذِهِ الْبَلَادِ ،
لَعَلَى أَهْتَدِي إِلَى قَرِيَّةٍ أَوْ مَنْزِلٍ ، أَوْ أُوفَقُ إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ مِنَ الْأَهْلِينَ ..

وَمَا هَمَتْ بِتَرْكِ الْجَوَادِينَ حَتَّى قَطَّعَا حَدِيثَهُمَا ، وَاتَّجَهَ إِلَى أَحَدِهِمَا
— وَكَانَ أَزْرَقَ تُرْقَشَهُ قُطْنَهُ يَسْنُ — فَظَلَّ يَصْهَلُ خَلْفِي صَهْلًا
مُسْتَابِعًا ، وَاضِخَّ النَّبَرَاتِ ، بَيْنَ الْمَقَاطِعِ ، يُشْعِرُ سَامِعَهُ أَنَّ فِي طَيَّاتِهِ
مَعَانِيٌّ تَكَادُ أَفْلَاقُهَا تُقْصِحُ عَنْ مَدُولِهَا .

فَعُدْتُ إِلَيْهِ حَتَّى دَانَيْتُهُ ، وَبَذَلْتُ جَهْدِي فِي إِخْفَاءِ ارْتِبَاكِي
وَاضْطِرَابِي ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ بِي كُلَّ مَبْلَغٍ ، قَدْ كُنْتُ حَائِرًا لَا أَدْرِي
مَبْيَرًا أَمْرِي . وَفِي وُسْعِ الْقَارَىِ أَنْ يَتَصَوَّرَ حَرَجَ هَذَا الْمَرْكِزِ
الْدَّقِيقِ وَخُطُورَتَهُ .

وَتَكَسَّفَنِي هَذَانِ الْجَوَادَانِ ، وَرَاحَا يُحِيلانِ لِحَاظَهُمَا ، وَيُطِيلانِ التَّأْمِلَ
فِي وَجْهِي وَيَدِيِّ ، زَمَنًا يَسِيرًا .

ثُمَّ دَنَا مِنِّي أَحَدُ الْجَوَادِينِ — وَهُوَ الْأَزْرَقُ الْمُرْقَشُ — فَرَفَعَ رِجْلَيْهِ
الْأَمَامِيَّتَيْنِ إِلَى قُبَّعَتِي ، وَعَبَثَ بِهَا ؛ فَنَزَعْتُهَا مِنْ فَوْرِي . وَدَهَشَ الْجَوَادُ
الْآخَرُ — وَهُوَ الْجَوَادُ الْأَحْمَرُ — حِينَ أَمْسَكَ بِذَيْلِ ثُوبِي ، فَرَآهُ غَيْرَ
مُلْتَصِقٍ بِجَسَدِي ؛ فَلَيْسَ بِهِ يَنْظُرُ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ ، وَقَدْ بَدَأَتْ عَلَيْهِما
أَمْرَاتُ الْحِيَةِ وَالْمَعْجَبِ .

ثُمَّ وضع ذُلْكَ الْجَوَادُ رِجْلَهُ عَلَى يَدِيَ الْيَمَنِيِّ ، وَبَدَا عَلَى سِيمَاهُ أَنَّهُ مُعْجَبٌ بِلَطْفِهَا ، وَرَقَّةٌ مَلْسِسَهَا ، وَصَفَاهُ لَوْنِهَا . ثُمَّ ضَغَطَ عَلَيْهَا بَيْنَ سُنْبُكَيْهِ وَشِكَالِهِ : فَاشتَدَّ أَلْمُى لِذَلِكَ ، وَصَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتِي مُوَلِّوَّا . فَطَافَ عَلَى الْجَوَادَانِ ، وَرَقَّ قُلُوبَهُمَا لِي ، وَظَهَرَتْ عَلَى مَلَامِحِهِمَا دَلَائِلُ الرَّحْمَةِ لِمَا أَصَابَنِي .

ثُمَّ أَجَالَاهُمَا لِي حَاظَتِهِمَا فِي حَذَانِي وَجَوَرِبِي ، وَظَلَّاهُمَا يَلْمُسَانِي الْحَذَانَةَ مَرَّةً ، وَالْجَوَرَبَ مَرَّةً . ثُمَّ دَارَ بَيْنَهُمَا حِوارٌ طَوِيلٌ ، هُوَ أَقْرَبُ إِلَى حِوارِ فِيلَسُوفِيَّنِي يُرِيدُهُمَا أَنْ يَتَعَرَّفَا ظَاهِرَةً غَرِيبَةً ، لَا عَهْدَ لَهُمَا بِرُؤُسِهِمَا مِنْ قَبْلُ .

شَدَّ ما عَجِبْتُ مِنْ رَزَانَةِ الْجَوَادِينِ ، وَاتْزَانِ حَرَكَاتِهِمَا ، وَلَمْ أَدْرِ كِيفَ أَعَلَّ مَا بَدَأْتُ مِنْهُمَا مِنْ تَعْقُلٍ وَحِكْمَةٍ .

وَخَطَرَ بِبَالِي أَنَّهُمَا – فِيمَا أَرْجِعُهُ – سَاحِرَانِ ، وَأَنَّهُمَا قَدْ أُوتِيَا الْقُدْرَةَ عَلَى الْحَوْلَةِ (التَّحْوِلِ) – بِمَا عَرَفَاهُمْ مِنْ فُنُونِ السُّخْرِ وَآسَالِيهِ – فَاخْتَارا أَنْ يَتَحَوَّلَا إِلَى صُورَةِ الْجَوَادِ ؛ لِإِنْجَازِ خُطْلَةِ رَسَمَاهُمَا ، وَأَنْتَوْيَا مَمَّا أَنْ يُحَقِّقُهَا . أَوْ لِعِلْمِهِمَا رَأِيَانِي قَادِمًا فِي طَرِيقِهِمَا ، فَاخْتَارا أَنْ يَتَمَثَّلَا

فِي صُورَةِ جَوَادَيْنِ ، لِيَلْهُوا بِهِنَّهُ المُفَاجَأَةُ .
وَلَعَلَّهُمَا دَهْشًا لِغَرَابَةِ مَلَبِسِي ، وَالخِتَافِ سَخْنَتِي عَنْ أَبْنَاءِ
الْبَلَادِ ، فَرَاحَا يُجْيِلَانِ أَبْصَارَهُمَا فِي زَيْنِي ، لِيَتَعَرَّفَا مِنْ أَىِّ الْبَلَادِ
السَّمْكِيَّةِ أَتَيْتُ !

١٠ - لُغَةُ الْجِيَادِ النَّاطِقَةِ

وَمَا مَرَّ بِخَلْدِي هَذَا الْخَاطِرُ حَتَّى اعْتَقَدْتُهُ وَآمَنْتُ بِهِ ، فَأَنْشَأْتُ
أَقْوَلُ لَهُمَا :

« سَيِّدَيْ العَزِيزَيْنِ !

إِذَا كُنْتُمَا سَاحِرَيْنِ – وَمَا إِخَالُكُمَا إِلَّا مُكْدَنَا – فَأَنْتُمَا بِلَارِبِ
عَارِفَانِ بِجَمِيعِ لُغَاتِ الْعَالَمِ ، وَهُذَا يُتَبَعِّلُ لِلْفَرَصَةِ لِمُخَاطَبَتِكُمَا بِلُفْتَيِّي ،
وَمَا إِخَالُكُمَا تَجْهَلُنَّهَا عَلَى أَىِّ حَالٍ .

فَأَنَا سَائِحٌ مُسْكِنٌ ، رَمَتِنِي الْأَقْدَارُ – الَّتِي لَا مَرَدَّ لِأَحْكَامِهَا –
إِلَى شَاطِئِ هَذِهِ الْبَعْزِيرَةِ النَّاسِيَّةِ ، بَعْدَ أَنْ أُشْرَكْتُ عَلَى الْفَرْقِ .
وَقَدْ بَرَّحْتُ بِالْتَّعبِ ؟ إِنَّمَا أَذِنْتُمَا لِي فِي رُوكُوبِ أَحِيدَكُمَا – إِنْ صَحَّ

وَلَمَا أَتَمْتُ كَلَامِيْ ، أَخْرَجْتُ الْمُدْيَةَ وَالسُّوَارَ مِنْ جِبِيْ ، وَقَدْمَتُهَا
إِلَى الْجَوَادِيْنَ .

وكان الجنودانِ - فيما رأيتُ - يُنصلّيان إلى ما أقولُ إنصيائًا .
وما أتممتُ خطابي ، حتى استأنفنا حوارها صهيلاً ومحممةً
وظلّاً يتهدنانِ كأنهما آدميانٍ يتكلمانِ لغةً غريبةً لا أفهمُها .
وكانت نبراتُهما ومقاطعُ لهجتهما تدلُّ على الفاظِ مخبوعةٍ في
تضاعيفها ، وتُوَكِّدُ لسامعها أنها كلماتٌ لا يبعدُ أن تكونَ مرئيةً
من حروفٍ هجائيةٍ ، لعلها أيسرُ وأبسطُ من الألفاظِ والحرافِ في
اللغةِ الصينيةِ !

١١ - الْكَلِمَةُ الْأُولَى

وسمعتها يرددان - في أثناء حوارها - **كلمة «ياهو»**؛ فميّزتُ هذا اللّفظ من خلال حوارها، وارتسمتُ آخره في خلدي، دون أن أعرف له معنى. وقد أجهضتُ نفسي، وأرهفتُ أذني، متبعاً حوارها؛ لعلّي أتبين مدلول هذا اللّفظ؛ فلم أوفق إلى فهم معناه الصحيح. على أنني حاولتْ جهدي أن أنطق به، محاكيّاً نبراتِ الجوادين، ودرّبتُ نفسي على ذلك. حتى إذا انتهيتُ من حوارها، رحتُ أصيح بكل قوّتي - مردداً لفظاً : «ياهو» مرتّة بعد أخرى. وبذلتُ وسعي، حتى لفظتُ هذه الكلمة : حمّمةً وصهيلاً، كما يفعلُ الجوادان!

وقد استولتْ الدّهشةُ على الجوادين، فكررّها الجواد الأزرقُ المرقشُ مرّتين، كأنما أراد أن يُسلّمني بها، ويدربني على النطقِ بها صحيحةً؛ فلم أتردد في تلبيه رغبته، وحاولتْ إمكانى حتى نطقتها بلهجته مرضيّة قريبة من الإجاده، فيما يلوحُ لي..

١٢ - الكلمة الثانية

وأراد الجواد الأحمر أن يعلّمني كلمة أخرى ، ولكنها كانت أصعب من سابقتها ، وأشدّ تعقيداً في نطقها من الكلمة الأولى .
وسأحاول أن أقربها إلى القارئ ، وأرسم حروفها ، على قدر الإمكان ؛ فقد عجزت عن النطق بها - باديء بدءه - ولم أستطع ذلك إلا بعد مرانة طويلة . أما هذه الكلمة المسيرة النطق ، فهي « هوينهم » ।

على أنني لم أكذب أدانيهما في الطلاق بهذه الكلمة الصعبة ، حتى اشتدت دهشتها .

ثم تحدثنا : صهيلا ، وتكلما : حمامة . وما أشك في أن حوارها لم يعد الحديث عنّي . ولما انتهيا من حديثهما ، استاذن كلّ منهما صاحبه في الانصراف ؛ فجّيا كلّ منهما الآخر - في أدب ولطفي - وتلامست قدماهما ، كما تصافح يدَي الصديقين . ثم ذهب الجواد الأحمر في طريقه ، وأشار الجواد الأزرق إلى أن أسير أمامه ؛ فلم أتردد

فِي إِطَاعَةِ أَمْرِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِيْ أَنْ أَهْتَدِيَ إِلَى دَلِيلٍ خَيْرٍ مِنْهُ .
وَكُنْتُ — إِذَا تَلَكَّأْتُ فِي سِيرِي — أَسْمَعَهُ يَصْبِحُ بِي مُحَمَّحاً ،
يَسْتَحِشِنِي عَلَى الْإِسْرَاعِ فِي سِيرِي . وَقَدْ أَدْرَكْتُ غَرْضَهُ ؛ فَأَشَرَتْ إِلَيْهِ
إِشَارَاتٍ لَا فَهِيمَةَ أَنَّ السِّيرَ قَدْ جَهَدَنِي وَأَضْنَى قُوَّايَ ، وَأَنَّنِي قَدْ عَجَزْتُ
عَنْ مُوَاصِلَةِ الْمَشَى ، لِشَدَّةِ مَا اسْتَوَى عَلَىْ مِنَ التَّعْبِ وَالْأَعْيَاءِ .
وَقَدْ فِيهِمُ الْجَوَادُ إِشَارَاتٍ ، وَأَدْرَكَ مَا أَغْنَيَهُ ؛ فَوَقَفَ إِلَى جَانِبِي مُتَلَطِّفًا
كَرِيمًا ، وَأَشَارَ إِلَيَّ أَنَّ أَكُفَّ عَنِ السِّيرِ ، وَأَنَّمَّ بِنَصْلِيَّبِي مِنَ الْأَرْأَاحِلَّ

الفصل الثاني

١ - في ضيافة الجواد

وما زلنا سائرين ، حتى قطعنا أميالاً ثلاثة تقريباً ، ثم انتهينا



إلى منزلٍ كبيرٍ ، ولكنه منخفضٌ شديدُ الانخفاضِ : بعيمانهُ من الخشب ،
وسرفهُ من القشِ . وما وصلتُ إلى المنزل حتى سررتُ عنِّي ، وبذلتُ أشعرُ

بشيء كثير من الراحة، ثم اعتزمت أن أهدي إلى أهل المنزل لعباً صغيراً — مما تعود السائرون أن يقدمونها إلى الجميع من سكان البلاد — لا دخل على قوسِ أهلِ البيت شيئاً من الفرحة والابتهاج.

وقد أدخلني ذلك الجواود حجرة كبيرة، أرضتها من التراب الكثيف، وهي منسقة بأجمل تنسيق، وفي أحد أركانها معلم طويل. وكان ذلك الجواود على غاية من الأدب والإحتشام. وما أدخلني حتى رأيت فيها جياداً ثلاثة، وفرسین اثنين. ولم تكن تلك الأفاس الخمسة تأكل شيئاً — حينئذ — وكان بعضها جالساً جلسة المختبىء؛ فزاد ذلك في دهشتي، وعجبت من قدرة هذه العياد على التشبث بالرجال في كثير من حركاتها.

ثم تعاظمتني الحيرة حين رأيت العياد الخمسة ماثلة لخدمة هذا السيد الجواود الذي صحبني إلى بيته و كنت كلما آنعت النظر فيها، أيقنت أنها جياد حقاً، وليس سحرةً — كما توهمت من قبل — وتمثل لخاطري رق الشعب في هذه البلاد، وقلت لنفسي:

« إنَّ شَعْبًا يُسْتَطِيعُ أَنْ يُهَذِّبَ حِيَاةً مِثْلَ هَذَا التَّهْذِيبِ، وَيَسْمُوْ
بِخَيْلِهِ إِلَى هَذَا الْأَفْجَرِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَوْفَرَ شُعُوبَ الْعَالَمِ ذَكَاءً،
وَأَزْجَحَهُمْ عَقْلًا ! »

وَدَخَلَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ الْأَزْرَقُ الْمَرْقَشُ فِي أَثْرِي؛ حَتَّى لَا يُصِيبَنِي
مِنَ الْجِيَادِ الْأُخْرَى مَكْرُوهٌ وَلَا أَذْى، ثُمَّ تَحَدَّثَ إِلَيْهَا صَاهِلًا مُحَمِّحَمًا،
فِي لَهْجَةِ السَّيِّدِ الْأَمِيرِ الْمُطَاعِ .

فَأَجَابَتْهُ الْأَفْرَاسُ الْأُخْرَى - صَاهِلَةً مُحَمِّحَمَةً - تَرْوَدَ عَلَى خَطَايَاهِ إِلَيْهَا.

٢ - هَوَاجِسُ « جَلِفَرَ »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْجَوَادُ سَيِّدَهُ - وَأَنَا فِي أَثْرِهِ - حَتَّى اجْتَزَنَا حُجْرَتَيْنِ
أُخْرَيَيْنِ، وَأَشَارَ إِلَى هَذَا السَّيِّدِ أَنْ أَتَرِيَتَ فِي مَكَانِي حَتَّى يَوْمَ
وَتَرَكَنِي مُنْفَرِدًا، ثُمَّ دَخَلَ حُجْرَةً ثَالِثَةً .

وَأَعْدَدَتُ الْهَدَائِيَا لِأَقْدَمَهَا إِلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ وَزَوْجِهِ، وَأَخْرَجْتُ
مِنْ جُيُوبِي مُدْبِيَيْنِ، وَثَلَاثَ أَسَاوِرَ مِنَ الْلُّؤْلُؤِ الزَّائِفِ، وَمِرْآةً صَغِيرَةً،
وَقِلَادَةً مِنَ الْزَّجَاجِ .

وسمعت صوت الجواد - وهو يصهل مرتين أو ثلاثة - فارهفت
أذني : لعل أسمع جواب إنسان ، آنس بقريبه بعد وحشة ، واعتقدت
أن صاحب البيت سيحضر بعد قليل .

ولكن ما توقته لم يحدُث ؛ فقد سمعت صهيلًا ومحمة
ـ داخل البيت ـ جواباً عن صهيل السيد الجواد ومحمة ، ولم
تبَدَّلْ تلك اللغة .

على أن الصهيل - في هذه المرة - ازداداً وضوحاً ، وأصبحت
نبرات الصوت - في أذني - أكثر جلاء ، وكان جرس الصاہل
ـ حيئـ - أدق وأبين من جرس السيد الجواد الذي قدم معـ
إلى البيت .

ودار بخلدي أن صاحب البيت عظيم - بلا ريب - من عظماء
البلد ، وأن خدمـه يـحجزونـي في هذه الـجـرـة حتى اـلقـاه .
ولـكنـ حـيرـتـ كـانـتـ شـدـيدـةـ ، قـدـ كـانـ منـ المـحالـ علىـ أنـ أـفـهمـ
أنـ عـظـيمـاـ منـ النـاسـ يـخـتـارـ لـخـدـمـتـهـ جـمـهـرـةـ منـ الـجـيـادـ .
وـخـشـيـتـ أنـ تـسـلـمـنـيـ هـذـهـ الـوـساـوسـ وـالـأـوـهـامـ إـلـىـ الـبـهـرـ وـالـخـيـالـ ،

فيتم بذلك شقائي، وظللت أحيل البصر في أنحاء الحجرة التي حللت فيها، وكانت شديدة الشبه بالحجرة السابقة، وإن امتازت عنها بشيء من الأناقة.

ولم أذر : أحالم أنا أم يقطنان ؟ ففركت عيني لأنني لما يكتنعني ؛ فلم أر غير ما رأيت من قبل . ثم شدّدت ذراعي، ودلّكت جنبي ، لعلّ أصحو من هذا الحلم العجيب ؛ فلم يتبدل شيء من المناظر المُحيرة . وثمة أيقنت أنني حللت - بلا شك - بلاد السحر والغاريق .

٣ - سادة البيت

وإني لفارق في هواجسي وخواطري ، إذ عاد إلى الجواد الأزرق المُرقش ، فقطع على سلسلة هذه الأفكار ، ثم أشار إلى أن أدخل معه الحجرة الثالثة . وما دخلتها حتى رأيت فرساً أنشى جالسة على حصينه غاية في النظافة وحسن التنسيق . وكانت هذه الفرس آية من آيات الجمال والحسن ، ومعها مهر جميل ومهرة رشيقة ، وكانت

ثلاثها جالسة على سُوقها الخلْفِيَّةِ ، وقد ثنتها تحتَ أَعْجَازِهَا .
 وما دَخَلْتُ هَذِهِ الْحُجْرَةَ ، حَتَّى وَقَتَّ تِلْكَ الْفَرْسُ ، وَمَسَكَتْ
 نَحْوِي حَتَّى دَاتَنِي ، ثُمَّ أَجَالَتْ بَصَرَهَا فِيَّ ، وَأَنْعَمَتِ النَّظَرَ فِي
 وَجْهِي وَيَدَيَّ ، وَلَمْ تَنْتَهِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَظَرَتْ إِلَيَّ بِإِذْرَاكٍ وَاحْتِقَارٍ .
 وَالْفَتَتْ تِلْكَ الْفَرْسُ إِلَى الْجَوَادِ ، وَظَلَّتْ تَصْنَهُلُ — وَهِيَ مُخْنَقَةٌ
 غَضْبِيَّ — وَكَانَ زَوْجُهَا يَجِيئُهَا بِلَعْنَتِهِ ، ثُمَّ تَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَهَذَا
 دَوَالِيكَ .

وَاسْتَرْعَى سَمِعِي أَنْهَا كَانَتْ يُكْثِرَانِي مِنْ تَرْدِيدِ كَلْمَةِ « يَا هُوَ » ،
 وَكُنْتُ — إِلَى هَذِهِ اللَّا حَظَةِ — أَجْهَلُ مَعْناهَا ، وَإِنْ كَانَتْ هِيَ أُولَئِكَ
 كَلْمَاتِي دَرَبَتْ نَقْسِي عَلَى النُّطُقِ بِهَا مِنْ هَذِهِ الْلُّغَةِ الصَّاهِلَةِ .
 عَلَى أَنَّنِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلْمَةِ الْمُشْتُوْمَةِ فِيمَا بَعْدُ .
 إِنَّمَا عَرَفْتُ مَدْلُولَهَا حَتَّى تَمَكَّنَتِي الْفَمُّ ، وَاسْتَوَى عَلَىَّ الْحَزَنُ وَالْآَلَمُ .

٤ - « يَا هُوَ »

وَقَدْ أَشَارَ إِلَىَّ الْجَوَادُ بِرَأْسِهِ أَنْ أَتَبَعَهُ ؛ فَسِرْتُ فِي إِثْرِهِ حَتَّى

وصلنا إلى فناء يصلح لتربيه الدواجن من دجاج وطيور. فلما اجترناه رأيت فناء آخر على مسافة قريبة منه. فلما دخلناه، استرعى بصرى ثلاثة مخلوقات مقلوبو السخنات، مشوهو الوجوه، ذكرتني بتلك المخلوقات التاسعة التي اعترضتني عندما حللت الجزيرة.

ورأيت في أعقاقيها سلاسل وأغلالاً، وكانت حينئذ مشغولة بالتهم بعض الجزر، وتمزيق ما أمامها من اللحم. وقد علمت حينئذ أن اللحم الذي قدموه إليها هو لحم حمار، ولحم كلب، ولحم بقرة. وكان النهم ياديا على أساريرها، وهي مقبلة على تمزيقه في شرارة عجيبة.

ثم أمر السيد الججاد حصانا صغيراً أشقرَ أن يأتي بأحد هذه المخلوقات التاسعة، بعد أن يفكه من قيده. فذهب الخادم إلى أكبر حيوان منها وأحضره؛ ثم وقف السيد الججاد ومهره الخادم يتأملان في وجهينا، ويُطيلان الفحص في دقة واهتمام، ثم ردداً كلمة «ياهو» مرات عددة.

وليس في مقدوري أن أصف ما استولى على من الملمع والدهشة

والْحَيْزِرِ ، حين تبَيَّنَ لِي أَنَّ «الْيَاهُو» - فِي مَظَاهِرِهِ وَشَكْلِهِ الْخَارِجِيِّ - أَقْرَبُ الْمَخْلوقَاتِ شَبَهًا بِالْإِنْسَانِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْهُ ، عَلَى التَّحْقِيقِ .
وَمَا أَرَاهُ يَخْتَلِفُ - عَنْ بَنِي الإِنْسَانِ - إِخْتِلَافًا جَوْهَرِيًّا ، فَلَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّهُ عَرِيضُ الْوِجْهِ ، مُسْطَحُهُ ، وَأَنَّهُ أَفْطَسُ الْأَنْفِ ، غَلِيفُ الشَّفَتَيْنِ ،
وَاسِعُ الْفَمِ . وَلَكِنَّ هَذِهِ السُّمَاتِ - وَإِنْ فَرَقْتَهُ عَنَّا - لَا تَقْصُلُهُ عَنِ
الْجِنْسِ الْأَدْمِيِّ كُلِّهِ ؛ فَإِنْ أَكْثَرَ الْهَمْجِ وَسَوَادَ الْمَتْوَحِشِينَ يُشَهِّدُونَ
هَذَا الْمَخْلوقَ ، أَوْ يُدَانُونَهُ فِي الشَّبَهِ .

وَالْأَمْهَاتُ - فِي تِلْكَ الشَّعُوبِ - يُرْقَدُنَّ أَبْنَاءَهُنَّ وَوِجْهُهُمْ
إِلَى الْأَرْضِ . وَيَحْمِلُنَّهُمْ عَلَى ظُهُورِهِنَّ ؛ فَتَضَغَطُ أَكْتَافُ الْأَمْهَاتِ
عَلَى أَنُوفِ الْأَبْنَاءِ فَتَفَطَّطِحُهُمَا . وَمَتَّ كِبِيرُ أَطْفَالِهِنَّ ، أَصْبَحُوا
فُطْسَنَ الْأَنُوفِ .

وَلِهَذَا «الْيَاهُو» يَدَانِ تُشَهَّانِ . أَيْدِيَنَا ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَظَافِرُ طَوِيلَةً
جَدًّا . أَمَّا بَشَرَتُهُ فَهِيَ سِرَاةُ صُلْبَةٍ ، مُغَطَّاةٌ بِالشَّعْرِ ؛ وَسَاقَاهُ
تُشَهَّانِ سُوقَنَا ، وَأَظَافِرُ قَدَمِيهِ طَوِيلَةٌ كَأَظَافِرِ يَدَيْهِ .

مِنْهُمْ لَا يَخْتَلِفُ بِقَيْمَةٍ عَنْهُمْهُمْ عَنْ أَعْصَمِئَشِنَافِ شَنِيٍّ ، مَا سَعَلَ الْفَلَوْنَ وَالشَّعْرَ .

وَإِنَّمَا أَدْهَشَ الْجَوَادِينَ وَحَيَّرَ عَقْلَهُمَا مَا رَأَيَا مِنَ الْفَرَقِ الْعَظِيمِ بَيْنِ
وَبَيْنَ «الْيَاهُو» الْمُقْوَتِ . وَكَانَ مَصْدُرُ هَذَا الْخَلَافِ يُرْجِعُ إِلَى ثَيَابِ
الَّتِي تَسْتُرُ جَسْعِي ، وَيَخْسِبُهَا الْجَيَادُ فَارِقاً جَوْهَرِيَاً بَيْنِ وَبَيْنِ هَذَا الْحَيْوَانِ .
وَلِلْجَيَادِ الْعَذْرُ ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهَا سَابِقُ عَنْهُ يُمْثِلُ هَذِهِ الشَّيَابِ ؛ فَلَا عَجَبَ
إِذَا دَخَلَ فِي رُوعِهَا أَنَّهَا جُزُءٌ مِنْ حِسْبِي .

٥ — طَعَامُ «الْيَاهُو»

ثُمَّ قَدَمَ إِلَى ذَلِكَ الْجَوَادِ الصَّغِيرِ شَيْئاً مِنَ الْجَزَرِ ، وَكَانَ يُسِكِّنُ
بَهْ بَيْنَ حَافِرَهِ وَسُنْبُكِهِ . وَمَا تَعْرَفْتُهُ حَتَّى رَجَعْتُهُ إِلَيْهِ ، فِي أَدْبِرِ
وَاحْتِرَامِ عَظِيمَيْنِ . فَذَهَبَ إِلَى مَكَانِ «الْيَاهُو» ، وَعَادَ بِقَطْعَةِ مِنْ لَحْمِ
حَمَارٍ ، فَلَمَّا شَمَمْتُ رائِحَتَهَا تَقَزَّزْتُ ، وَاشْتَدَّ تُقُورِي وَاشْمِيَازِي مِنْهَا ؛
فَأَلْقَى بِهَا الْجَوَادُ إِلَى «الْيَاهُو» ، فَالْتَّهَمَهَا فِي شَرَرِ وَنَهَمِ .

ثُمَّ أَشَارَ الْجَوَادُ الْخَادِمُ إِلَى كُوْمَةٍ مِنَ الْلَّفَرِ ، وَكِيسٍ مَمْلُوءٍ
بِالشُّوْفَانِ ؛ فَهَزَّزْتُ رَأْسِي إِيذَا نَا بِالرُّفْضِ ؛ فَأَدْرَكَ أَنِّي لَنْ أَقْبَلَ شَيْئاً
مِنْ هَذِهِ الْأَطْعَمَةِ الْمُخْتَلِفَةِ كُلُّهَا .

واشتدَّ بِيَ الْجُوعُ ، وَخَشِيتُ أَنْ أَهْلِكَ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، بَعْدَ أَنْ عَجَزْتُ عَنِ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى طَعَامِ صَالِحٍ لِغَذَائِي ، أَوْ إِنْسَانٍ يَشْرَكُنِي فِي الْحَدِيثِ ، وَيَهْدِينِي إِلَى غِذَاءِ أَقِيمٍ بِهِ أَوْدِي .

أَمَا أُولَئِكَ «الْيَاهُو»
الْحُقَرَاءُ ، فَإِنِّي لَا أُطِيقُ
رُؤِيهِمْ . وَلَسْتُ أُنْكِرُ
أَنِّي صَاحِبُ كَثِيرًا مِنْ
أَشْبَاهِهِمْ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ
فِي بَلَادِي مِنْ قَبْلُ ؛
وَلَكِنِّي شَعَرْتُ بِنَفُورٍ



شَدِيدٍ ، وَكَرَاهِيَّةٌ نَادِرَةٌ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْبَلَادِ الْمُوحَشَةِ ، وَأَصْبَحْتُ
كُلَّمَا أَطَلْتُ التَّأْمِلَ فِيهِمْ ، اشْتَدَّ مَقْتِي لَهُمْ وَيُغْضِي إِيَّاِمَّ .
وَرَأَى السِّيدُ الْجَوَادُ فِي سِيمَائِ دَلَائِلَ الصَّبَرِ وَالْأَلَمِ ؛ فَأَمَرَ خَادِمَهُ
أَنْ يَرْجِعَ «الْيَاهُو» إِلَى مَكَانِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ إِحْدَى قَدَمِيهِ الْأَمَامَيْتَيْنِ فِي
سُهُولَةٍ عَجِيَّةٍ أَدْهَشَتَنِي ، وَأَشَارَ بِهَا إِلَى فِيهِ ، كَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَنِي عَمَّا

آكله ؛ فلم أُعِرِفْ كيف أَجِبُه ، وما أَظْنَه قادراً على تهيئة الطعام
الذى تشتهِيه نفسى إذا طلبه منه .

وَرَأَتْ - في هذه الأثناء - بقرة ، فأشرتُ إليها ياصبى . فلما
وقفوها أشرتُ إلى ضرعها ؛ فأدرك السيدُ الججادُ أنى أريدُ أن يَحْلِبُوا
لِي شيئاً من لسِنِها ؛ فأشار إلى أن أَتَّبَعَه إلى منزلِه ، ثم أمر خادمه
أن يفتح لِي حُجْرَةَ أُخْرَى ؛ فرأيتُ فيها كثيراً من الآنية
مملوقةَ لَبَنَا ، وقد صُفِّتْ بعضاً إلى بعض ، وهى غايةٌ في النظافةِ
وحسنِ التنسيقِ .

ثم أعطانيَ الخادمُ طبقاً مملوقاً بالحليب ؛ فشربتُه سائِفاً هنيئاً ،
وشعرتُ - حينئذ - بالحياةِ تدبُّ في عروقي بعد أن جهَدَني الجُوعُ .

٦ - في حُجْرَةِ المائدةِ

ولما حان وقتُ الظَّهَرِ ، رأيتُ مركبةً يجرُّها أربعةٌ من «الياهو»
إلى المنزلِ ، وقد انتلاها جَوَادٌ حسنُ المنظرِ ، يَلْوُحُ لِي أنه جليلُ
المقدارِ ، عظيمُ الخَطْرِ . ثم نزل ذلك الجَوَادُ من المركبةِ على قاتِمَيْهِ

الخليقيتين؛ لأن رجله الأمامية اليسرى كانت مجرودة، فلم يستطع السير عليها.

وكان هذا السيد الججاد قدماً إلى البيت ضيفاً كريماً على صاحبه: فلقيه ربُّ البيت في أدبٍ واحترامٍ، وجلسا يأكلان في أضخم حجرة. وكانت المائدة حافلة بالشوفان أعلىَ في اللبن، وقد شربه الججاد الهرم ساخناً، أما بقية العياد الآخرى، فقد آثرت أن تشربه بارداً.

وكانت الموائد مصنفوفة في وسطِ الحجرة على شكل دائرة، وهي مقسمة أقساماً عدّة، وجلست العياد أمامها على كومات من القش. وكان في وسطِ الحجرة معلفٌ كبيرٌ مقسمٌ أقساماً كثيرة، بحيث يأكل كل فرس منها نصيبيه من العلف والشوفان واللبن على انفرادٍ. وكانوا يأكلون ويشربون في أدبٍ واحترامٍ عجيبةٍ.

وكانت المهر الصغيرة غاية في الدمامنة، وحسن الذوق، وقد بدا إجلالها وتوقيرها لشيخ العياد وأصحابه للعيان. وكان أصحابُ البيت غاية في اللطف والسماحة مع ضيوفهم الأعزاء.

وقد استدعاني الججاد الأزرق العرقش، وأمرني بالجلوس إلى جانبه.

وسمعته يُلقي إلى جاره مُحاصرة طويلاً، أغلبُ الظنّ أنها كانت عَنْيَ فاني رأيت ذلك الجار ينظر إلى مرآة بعد أخرى، وسمعتها يردّدان كلمة «يا هو» في حوارِها الطويل.

ثمَّ عَنَّ لِي أَنَّ أَلْبَسَ قُفَازِي، ولمَّا كَدَ أَفْلَى حتَّى دَهَشَ السِّيدُ الْجَوَادُ الْأَزْرَقُ الْمَرْقَشُ، وحار فيما رأه، وعجبَ كيفَ تَغَيَّرَ شَكْلُ يَدِي، واستحالَ إِلَى مَا يَرَاه. فأشَارَ إِلَيَّ إِشَارَاتٍ تَدْلُّ عَلَى دَهْشِتِهِ وعَجَبِهِ، ولَمَّا سَيَّدَ يَدَيْهِ بِرِجْلِهِ مِرْتَينِ أوْ ثَلَاثَةَ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَيَّ أَنَّ أَعْيَدَهُمَا إِلَى شَكْلِهِمَا الْأَوَّلِ. فلمَّا أَتَرَدَّ فِي تَلِيسَةِ رَغْبَتِهِ . وَخَلَقَتُ الْقُفَازَ — مِنْ فَوْرِي — ووضعته في جيبي كَا كَانَ . فَلَمَّا رَأَوْا مَا صنعتُ تَعَاظَمَتْهُمُ الْحِيرَةُ . وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهِمُ الدَّهْشَةُ .

وقد اشتَدَّ عَجَبُ الْحَاضِرِينَ، حينَ طَلَبَ إِلَيَّ رَبُّ الْبَيْتِ أَنْ أَنْطِقَ بِالكلماتِ الصَّاهِلَةِ الَّتِي تَعْلَمْتُهَا مِنْهُ، وَكَانَ قَدْ عَلِمْتُ — فِي أَنْتَاءِ الْعَشَاءِ — أَسْمَاءَ الشُّوْفَانِ وَاللَّبِنِ وَالنَّارِ وَالْمَاءِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الضرورياتِ . وَكَانَ يَنْطِقُ الْكَلْمَةَ فَأَرَدَّهَا أَمَامَ الْحَاضِرِينَ فِي سُهُولَةِ نَادِرَةٍ . وَقَدْ أَعْانَتِي عَلَى ذَلِكَ مَا أَكْسَبَتِي مَرَاتِي عَلَى تَعْلِمِ اللِّغَاتِ

المختلفةٍ — في أثناء تجوالي وأسفاري المختلفة — فلم أجده عناء في فهم
هذه الكلماتِ وترجمتها في زمنِ وجيزٍ .

٧ — طعامُ «جلفر»

ولما انتَهَوا من طعام العشاء، انتَهَى بي ربُّ الْيَتِيرِ جانبًا، وأعرَبَ

لي عن ألمِهِ وحزنهِ
بإشاراتٍ شتَّى ، وألفاظٍ
موجزةٌ مقتضبةٌ ، وذكر
لي ما يُساورُ نفسَهُ منَ
الحزن والقلقِ علىَّ؛ لأنني
لم أشرِكْهُم في طعامِهم
ثم ردَّدتُ أمَامَهُ لفظَ
« الشوفانِ » - وكتُبَتُ
قد تعلَّمتهُ في لغتهمِ -
ونطقتهُ مرَّتين أو ثلَاثَةَ:



فأدرك أنني أُمِرُّ هذا الطعام على غيره من ألوان الأطعمة عندَهُم . وقد افستعْتُ - بعد طول التأمل والروية - أن الشوفان أقربُ الأغذية إلى - إذا مُزج باللبن - ليخفظ كياني حتى لا يتهدَّم . ولم يكن لي بدٌّ من ذلك بعدَ أن رأيتُ الأغذية كلها لا تلائِمني . وقد عوَّلتُ على أن أُعودَ تقسي هذا الطعام الكريهة ، حتى تُتاح لي فرصةً للفرارِ من هذه البلاد إلى مكان آخر فيه ما تشتهي تقسي من الطعام . فأمر السيدُ الجواودُ فرساً بيضاء - من خدمه - أن تُحضرَ لي شيئاً من الشوفان . ولم تمض لحظة قصيرة حتى عادت تحملُ صحفةً كبيرةً من الخشب ، مملوءةً بالشوفان .

فوضعتُ الشوفان في الفرن ، وصبرتُ عليه حتى انضجَّته النار . ثم فركته بيدي - بعد أن برد - حتى فَحَّسَتُ قشرَه عنه ، ثم طَحَنَتُ حبَّه بين حَجَرَين ، وصبيتُ عليه الماء ، وصنعتُ من عجينةٍ فطيرةً ، ثم خبزتها في الفرن؛ حتى إذا نضجتْ غمسَتها في اللبن ، وأكلتُ منها ما يكفي . وبذلك ذهبَ عنِّي ألمُ الجوع .

ولم أَسْتَمرِئُ هذا الطعام - أولَ أمرٍ - وإن كان كثيراً من

المتحضّرينَ يألفونه في بلادنا؛ ولكنني تعودتُ أن أستسيغه وألفه
بعد زمن قصير.

وللضرورة أحکام قاهرة لا سبيل إلى مُغالبتها، ثمّ رغم الإنسان
على أن يرى حسناً ما ليس بالحسن، ويستمرى من الطعام ما لم يكن
ليستسيغه من قبل.

ورأيت أن جو الجزيرة يلامعني أشد الملامة، وكنت - في
بعض الأحيان - أصطاد أربينا أو طائراً، بعد أن أصنع لى جبالة
(شبكة) من شعر «الياهو».

واهتدت إلى حشائش أخرى؛ فصنعت منها بعض الكواميس.
وكنت أتفدى - أحياناً - بقطعة من الزبد الذي أصنعه بنفسي،
ولم يكن يُعوزني - حينئذ - إلا الملح؛ ولكن الحاجة أرغمتني
على أن أستسيغ الطعام بدونه.

وقد استخلصت من ذلك نتيجة صحيحة، هي أن التجاءنا إلى
الملح هو نتيجة إفراطنا في الشره والتهم. وقد رأيت أن الإنسان
هو الحيوان الوحيد الذي يشذ عن بقية أجناس الحيوان، إذ يخليط

الملح بطعمه . وقد بذلت جهداً كبيراً – بعد أن تركت الجزيرة – حتى أرتفعت الرجوع إلى استعمال الملح واستساغته .

٨ – فراش « جلفر »

حسبي أن أجترئ بهذا القدر من الحديث عن غذائي : فقد طالما أخذت على غيري من السائرين عناتهم بالكلام عن ألوان الأغذية والأطعمة ، وطالما نددت بهم لأنهم يملئون كتبهم بذلك الأحاديث التافهة عن الطعام ، ويعنون بها عنایة نادرة ، ويعظمون من خطرها ما حقر ؟ ليعرف القارئ هل تمتّعوا بالطعام واستمروا به ، أم نقص حظهم منه فلم ينهضوا ؟

على أنني اضطررت في هذا المقام إلى الإضاءة بهذا التفصيل الموجز ، لأنني لم أجده بدأ من إثباته في كتابي ؛ حتى لا يتهمني أحد من القراء بالغمالة والخداع فيما أقصبه عليه من آباء الجزيرة فليس من السهل عليهم أن يتصوروا هذا النظام الغذائي الذي اتخذته في أثناء مقامي بين العياد الناطقة ثلاثة سنوات كاملة .

بقي على أن أحدث القارئ عن أسلوب نوبي في تلك البلاد، وهو حديث موجز قصير. فقد خصّني السيد العجاد بحجزة على بعد خطوات سرت من بيته، وهي منعزلة عن بيت «الياهو». وقد فرشتها بكومات عده من القش؛ لتكون لي فراشاً في أثناء اليوم.

وكنت أرتدي ثيابي في الميقطة والثوم، وأقضى الليل هادئاً مستريحاً. ولم يمض على زمن يسير، حتى انتظمت أحوالى، واستقامت أمورى في هذه الجزرقة، كما يرى القارئ في الفصول القادمة من الكتاب.

الفصل الثالث

١ درس اللغة الصاھلة

كان أكتر همّي ، وقصاري أمنتي : أن أدرس اللغة الصاھلة ، التي يعتمدون بها السيد الجواد . وكان أبناء هذا السيد وخدماته يبادرون إلى تحقيق هذه الرغبة ، وبهم من الشوق إلى تعليمي مثل ما بي من الرغبة في التعلم .

وقد رأوا في ذكائي مجزة نادرة ، وأدهشهم أن يُشرعوا على واحد من « الياهو » يستطيع أن يفهم ويفكر ؛ لأنهم لا ينظرون إلى الأناسيّ من أمثالى في بلادهم ، إلا كما تنظر نحن إلى العجاديّين أمثالهم في بلادنا !

وكانوا يعجبون أشد العجب ، إذ يرؤون دابة مثل تُعجِّب عن إشاراتهم ، وتُبادر لهم الحديث . ولم أكن أتواني في درس هذه اللغة ، ولم أضيع شيئاً من وقتى عيشاً . فظللت أشير إلى كل ما يكتنفني من الأشياء ؛ لأنّي أعرف من هؤلاء السادة أسماءها . فإذا حمّمّوا به

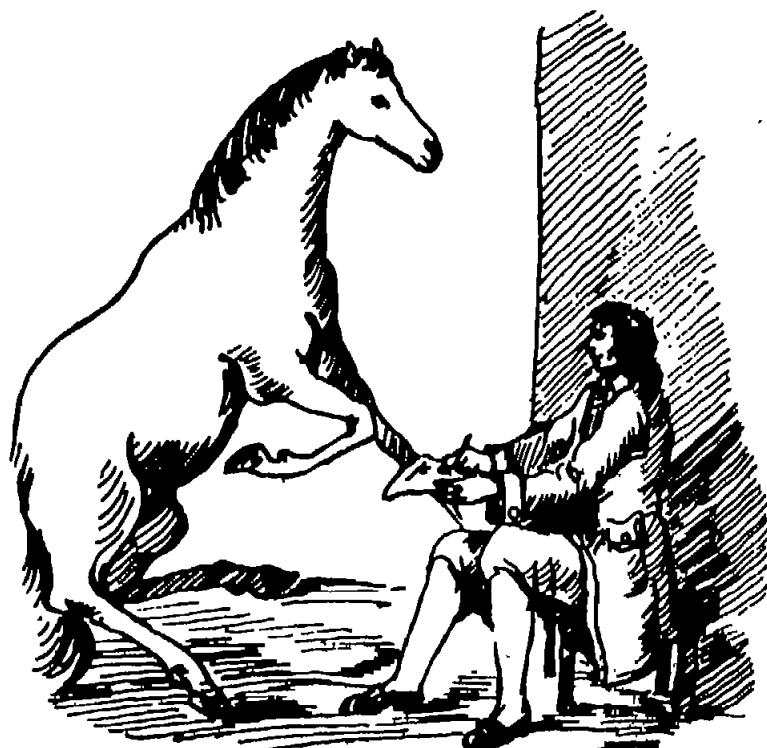
حَفِظْتُهُ — من فَوْرِي — ورَدَّتُهُ مراتٍ عَدَّةً . فَإِذَا خَلَوْتُ إِلَى
نَقْسِي ، قَيَّدْتُهُ فِي دَفْتَرِ سِيَاحَاتِي ؛ حَتَّى لَا أَنْسَاهُ .
وَكُنْتُ أَحَاوُلُ إِمْكَانِي أَنْ أُحَاكِي الْجِيَادَ فِي صُهَالِهَا وَحَمْمَاهِهَا ؛
حَتَّى يَمْرُنَ لِسَانِي عَلَى نُطْقِي مَا أَسْمَعُهُ . وَقَدْ وَكَلُوا بِي جَوَادًا أَذْهَمَ
— فِي مُقْتَبِلِ صِبَاهُ — لِيَلَازِمَنِي وَيَتَعَهَّدَنِي بِالْحَدِيثِ طَولَ الْوَقْتِ .
وَكَانَ هَذَا الْجَوَادُ خَادِمًا مِنْ عَامَّةِ خَدْمِهِمْ ، وَقَدْ بَذَلَ جَهَدَهُ فِي
تَوْدِيدِ الْكَلْمَاتِ الَّتِي طَلَبَتُ سَمَاعَهَا مِنْهُ ، وَلَمْ يُفَقَّرْ فِي تَعْلِيمِي
وَتَدْرِيبِي عَلَى الْحَمْمَاهَةِ وَالصَّهِيلِ .

وَمِنْ عَادَةِ هُؤُلَاءِ الْجِيَادِ أَنْ يُحَمِّمُوهُمْ مِنَ الْأَنْفِ وَالْحُلْقُومِ جَمِيعًا .
وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ جَرْسَ هَذِهِ الْلُّغَةِ أَدَنَى إِلَى جَرْسِ الْلُّغَتَيْنِ : الْهُولَنْدِيَّةِ
وَالْأَلمَانِيَّةِ ، مِنْهُ إِلَى آيَةِ لُغَةٍ أُخْرَى مِنْ لُغَاتِ « أُورُوبَةَ » . وَلَكِنَّ جَرْسَ
الْلُّغَةِ الصَّاهِلَةِ : أَعْذَبُ مَسْمَعًا ، وَأَبْلَغُ تَبَيِّنًا ، مِنْ هَاتَيْنِ الْلُّغَتَيْنِ .
وَقَدْ فَطَنَ الْإِمْپَراَطُورُ « شَرْلَكَانْ » إِلَى هَذِهِ الْمُلْاحَظَةِ ؛ فَأَوْدَعَهَا كَلْمَتَهُ
الْمَأْثُورَةَ :

« لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَى جَوَادٍ ، لَخَاطَبْتُهُ بِالْأَلمَانِيَّةِ ! »

٢ - في خلالِ أشهِرِ ثلاثةٍ

وكان السيدُ الجَوادُ يكادُ يلتهبُ شوقاً إلى مُحاورَتِي بلفته الصَّاھِلةَ،
ولا يألو جهداً في تذليلِ كلِّ عقبةٍ تعرضُ هُنْدَ الرغبةِ . واشتدَّ



شَفَقُهُ بتعلیمِي هُنْدَ اللغةَ ؛ فكان يلازِمُنِي - في أوقاتِ فراغِهِ كُلُّها -
ويُؤثِرُ أن يتعهدَنِي بالدرسِ على أن يُريحَ جسمَهِ من عناءِ العملِ .

وكان هذا السيد لا يُشكّ في أنّي إنسانٌ ، أى أنّي « ياهو » ، وهو أسمُ الإنسانِ في لقائهم . وهم يَعْدُونَ هذه الدابةَ الادمِيَّةَ مِثالَ الانحطاطِ والترَدُّى . ولكنَّ ما رأاه السيدُ من أدبي ، ودماثةِ خُلُقى وعِنائِي بالنظافةِ ، واستِعدادِي للتعلُّم ، وإقبالِي على الدرسِ : قد أدهشه ، وحِيرَ لُبَّه ؛ لأنَّه كان مؤمناً إيماناً وثيقاً أنَّ هذه الغِلالَ المحمودَةَ تتنافَى مع ما أَلْفُوهُ من طبيعةِ الدوابِ الإنسانيةِ التي تعيشُ في بلادِهم . وكانت ثيابِي تزييدُ في ارتباكه وحِيرتِه . ولطالما راح يُسأَلُ تفاصيلَه عن حقيقةِ هذه الثيابِ ، وهل هى جزءٌ من أجزاءِ جسми ؟ أمْ هى شىءٌ خارجيٌّ منفصلٌ عنه ؟ وكنتُ إذا أُوتيتُ إلى فِراشِي ليلاً لم أُنزعِ الثيابَ عن جسدي ، إلَّا في ساعةٍ مُتأخرةٍ من الليلِ ، بعدَ أنْ أَسْتُوْدِقَ من نَوْمٍ كُلِّيًّا في الدارِ .

وكان السيدُ شديدةً الرغبةِ في أنْ يتعرَّفَ : من أىِّ البلادِ أتيتُ ؟ وكيفَ انفردْتُ - من بينِ الناسِ جميعاً - برجاحةِ العقلِ التي تشجّلَتْ في أعمالِ كلِّها ؟

وَجْمَاعُ القولِ أنَّ السيدَ الجوادَ كانَ تَوَاقاً إلى سَمَاعِ تاريَّخِي

مُفَصِّلًا ، وَكَانَ يَنْتَظِرُ الْيَوْمَ – الَّذِي أُفْضِيَ فِيهِ بِهَذَا الْبَيَانِ – بِغَارِغَ الصَّبَرِ ، كَمَا كَانَ شَدِيدَ الْإعْجَابِ بِذَكَائِي وَتَقْدِيمِي فِي دَرْسِ اللُّغَةِ الصَّاهِلَةِ ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمِ .

وَرَأَيْتُ أَنَّ أَخْطُوَ حُطْوَةً أُخْرَى ؛ فَأَنْشَأْتُ مِنْ تَبَرَّاتِ هَذِهِ اللُّغَةِ حُرُوفًا هِجَابِيَّةً ، أَثْبَتَهَا تَحْتَ كُلُّ كَلْمَةٍ . وَكَتَبْتُهَا – ذَاتَ يَوْمٍ – أَمَامَ السِّيدِ الْجَوَادِ ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا تَحْيِيرًا فِي تَعْلِيلِهَا ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَفْسِرَ لَهُ ذَلِكَ . وَقَدْ ارْتَبَكْتُ – حِينَئِذٍ – فَلَمْ أَدْرِكِيفَ أَقْوَلُ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْيُسِيرِ عَلَيَّ أَنْ أَفْهِمَهُ شَيْئًا عَنِ الْكَتَابِيَّةِ ؛ لَأَنَّ الْجِيَادَ النَّاطِقَةَ لَا تَدْرِكُ شَيْئًا عَنِ الْكَتَابِيَّةِ وَالْهِجَاءِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ .

وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيَّ عَشَرَةُ أَسَايِعَ ، حَتَّى أَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى إِجَابَةِ السِّيدِ عَنْ أَكْثَرِ أَسْلَتِهِ . وَلَمْ يَنْقَضِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ حَتَّى مَرَّنَتُ عَلَى فَهْمِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، وَالتَّعْبِيرِ بِهَا ، وَأَدَاءَ كُلُّ مَا أَحْتَاجَ إِلَيْهِ مِنْ أَغْرَاضٍ ، حَمَّامَةً وَصَهْلَلًا

٣ – الْعِوَارُ الصَّاهِلُ

وَكَانَ أَكْبَرَ مَا يَسِينِي أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْ مَوْطَنِي – كَمَا أَسْلَفْتُ

القول - وأن يُتَعْرَفَ بِأَيِّ مُعْجِزَةٍ خارقةٍ ظَفِيرَتْ بِنَعْمَةِ الْهَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ،
مَعَ أَنِّي مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ، أَيِّ مِنْ أَبْنَاءِ «الْيَاهُو» - وَهُوَ اسْمُ
الْأَنْسَى عِنْدَهُمْ - وَهُمْ يَعْدُونَهُمْ أَحَطَّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الدَّوَابِ
الَّتِي يَعْرِفُونَهَا فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّاَئِيَّةِ؛ فَإِنَّ «الْيَاهُو» مَعْرُوفٌ فِي تِلْكَ الْبَلَادِ
بِالْغَدَرِ وَالْخَدِيَّةِ وَلُؤْمِ الطَّبِيعِ، مَشْهُورٌ بِالْتَّمَرُّدِ وَالْعَصْبَانِيَّةِ، كَلَمَا
أَنْكَنَتْهُ الْفَرَصَةُ .

وَقَدْ صَدَقَ السَّيِّدُ فِي حُكْمِهِ عَلَىَّ بِأَنِّي مِنْ جِنْسِ «الْيَاهُو»؛ إِذْ
رَأَنِي أُشَبِّهُ فِي الْوِجْهِ وَالْيَدَيْنِ، وَهُذَا هُوَ الأَجْزَاءُ الظَّاهِرَةُ مِنْ جَسْمِي.
وَقَدْ أَخْبَرَتُ السَّيِّدَ: أَنِّي قَادِمٌ مِنْ بَلَادِ نَائِيَّةِ، وَأَنِّي لَمْ أَصِلْ
إِلَى جَزِيرَتِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَكِبْتُ الْبَحَارَ، وَتَعَرَّضْتُ لِكَثِيرٍ مِنْ
الْمَخَاوِفِ وَالْأَخْطَارِ، وَكَانَ مَعِي جَمِيْرَةٌ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِي فِي سَفِينَةٍ
كَبِيرَةٍ مِنْ الْخَشْبِ، بَنَيْنَاهَا مِنْ جُذُوعِ الشَّجَرِ، لَتَمُخُّرَّ بِنَا عَبَابَ
الْبَحْرِ. ثُمَّ حَدَّثْتُهُ بِمَا فَعَلَهُ رِفَاقِي، وَكَيْفَ غَدَرُوا بِي فَقَذَفُونِي إِلَى
الشَّاطَئِ، وَأَسْلَمُونِي إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّاَئِيَّةِ وَحِيدًا .

وَقَدْ بَذَلْتُ جَهْدًا عَظِيمًا فِي إِفْهَامِهِ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانِي، تَارَةً صَهْيَلًا

وَحَمْحَمَةً ، وَتَارَةً إِشَارَاتٍ وَحَرَكَاتٍ ؛ حَتَّى أَدْرَكَ مَا أَغْنَيْهِ .
فَحَمْحَمَ السِّيدُ الْجَوَادُ صَاهِلًا :
« شَدَّ مَا خَدَعْتُكَ تَقْسُّكَ فِيمَا قَرَرْتَهُ ؛ فَلِيَسْ إِلَى فَهْمِ مَا تَقُولُ
مِنْ سَبِيلٍ ! »

وَأَحِبُّ أَنْ يَلَمَّ الْقَارِئُ أَنْ لُغَةَ الْجَيَادِ النَّاطِقَةِ لَيْسَ فِيهَا كَلْمَةٌ وَاحِدةٌ
تَدْلِيْلٌ عَلَى الْكَذِبِ أَوِ التَّزْوِيرِ . وَلِهَذَا حَسِبَنِي الْجَوَادُ مَخْدُوعًا ، وَلَمْ
يَتَهَمِنِي بِالْكَذِبِ وَالتَّلْفِيقِ ؛ لَأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُولُ بِخَاطِرِهِ ،
وَلَا تَخْوِيْهِ لُغْتُهُ !

وَقَدْ رَأَى السِّيدُ الْجَوَادُ أَنَّ مِنَ الْمُحَالِّ أَنْ تَوْجَدَ — فِيمَا وَرَاءَ
الْبَحْرِ — أَرْضٌ أُخْرَى ، وَأَنَّ الدُّنْيَا كُلُّهَا تَنْحُصُرُ فِي الْجَزِيرَةِ الَّتِي
يَعِيشُ فِيهَا مَعَ قَوْمِهِ : سَادَةً وَأَعْيَانًا ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ كَلْمَةٌ ، وَلَا يُعَصِّي
لَهُمْ أَمْرٌ .

وَلَمْ يَدْرِ بِخَلْلِهِ قَطًّا أَنْ مِنَ الْمُعْقُولِ أَنْ تَتَمَكَّنَ جَمِيعَةٌ حَقِيرَةٌ
الشَّائِرُ — مِنَ الدَّوَابِ الْإِنْسَانِيَّةِ — مِنْ بَنَاءِ سَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْخَشْبِ
يَمْخُرُونَ بِهَا عُبَابَ الْبَحْرِ ، وَفَقَ مَا يَرِيدُونَ .

ثم ختم حمّامته صاهلاً :

«إتنا عشرَ الجِيادِ قادرُونَ على مثل ذلك ، ولكنْ على شَرِيعَةِ
الله نعهدَ إلى أحدٍ منْ دَوَابِ «الياهُو» أن يُسْيِرَها . وقد كنتُ أظنُّ
أتنا وحدَنا قد استأثرَنا بهذه المزايا الطبيعية ، وأنَّ أىَّ أحدٍ منْ
الدَّوَابِ - أمثالِكم - لا يُشَرِّكُنا في شيءٍ منها . »

فَحَمَّامَتُ للسيد العجادِ صاهلاً :

«ما زِلتُ قاصِراً عنِ التعبيرِ والإِجابةِ عنْ كلِّ ما يطلُبُه
سيدي - في دقةِ وتفصيلٍ - ولكنني آملُ أنْ أصلَ إلى تحقيقِ
هذه النَّايةِ في مَدَى تصريحِي . »

٤ - بعدْ أَشْهِرٍ خَمْسَةَ

وقد ألهبتُ السيدَ العجادَ شوقاً إلى سماعِ قصتي مفصّلةً وافيةً ،
في وقتٍ قريبٍ . فأمرَ زوجتهُ الفرسَ ، وابنتهُ المهرَ ، وابنتهُ المهرةَ ،
وخدمَه تجبيعاً ، ألا يترُكوا فرصةً تمرُّ منْ غيرِ أنْ ينهزُوها لتعليمِي
هذه اللُّغَةَ . وكان لا يكتفى بذلك ؛ فخضّنِي بساعتينِ أو ثلاثِ

— في كل يوم — ليتعهدني هو تقسيه بالتعليم .
 وكان يحضر إلى المنزل ، في أغلب الأحيان ، بعض الأفراس الكريمة ،
 من ذكور وإناث ؛ يَخْفِرُم الشوق إلى رؤية « ياهو » العجيب ، الذي
 سمعوا من أخباره ما أدهشهم ، وحير أباهم ، ومم لا يكادون يصدقون
 ما سمعوه ، ولا يتتصورون أن دابة إنسانية مثل لها — من مخايل
 العقل ودلائل المعرفة — مثل ما لهم !

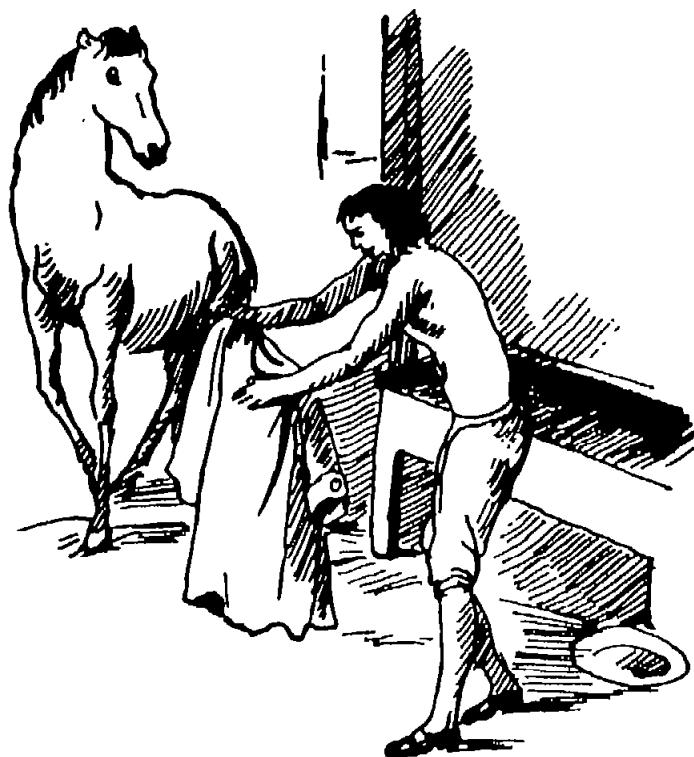
وكانت وجوههم تطلق بشرًا وابتهاجا ، كلما أجبتهم عن سؤال
 يوجهونه إلى ، جهداً ما أستطيع . وقد أكسبتني هذه المناقشات قوة ،
 في اللغة ، ومرانة عليها ؛ فلم تمضي خمسة أشهر حتى أصبحت قادراً
 على فهم كل ما يتفوهون به ، وكنت موفقاً في الإجابة عن أكثر
 أسئلتهم . فتهافت على دار السيد كثير من أصحابه الحياد الراغبين
 في مجادلتي وحواري . وقد ساورهم الشك في أمري ، فلم يصدقو
 أنني « ياهو » حقاً ؛ لأن بشرتني تختلف الاختلاف كله عن جلود
 تلك الدواب ، ولأنني لا أتشبهها فيما عدا الوجه واليدين .

٥ - افتضاح السر

وَظَلَّ السَّادَةُ الْجِيَادُ حَارِينَ فِي أَمْرِي، وَمَمْ يَحْسَبُونَ أَنْ ثَيَابِي لَيْسَتْ إِلَّا جَزْءًا طَبِيعِيًّا مِنْ جَسْمي . ثُمَّ افْتَضَحَ السَّرُّ بَعْدَ أَنْ وَقَعَ لِي حَادِثٌ – لَمْ يَكُنْ فِي مُحْسَبِي – أَرْغَمَنِي عَلَى الْإِفْضَاءِ بِحَقْيقَةِ أَمْرِي إِلَى السَّيِّدِ الْجَوَادِ . وَإِنِّي مُوْجِزُهُ لِلقارِئِ فِيمَا يَلِي :

لَقَدْ أَسْلَفْتُ الْقَوْلَ : إِنِّي كُنْتُ لَا أُنْزِعُ ثَيَابِي عَنْ جَسَدِي – كُلُّ لِيلَةٍ – إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَسْتَوْقِنَّ مِنْ نَوْمٍ كُلُّ مِنْ فِي الدَّارِ ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ عَطَيْتُ جَسَدِي بِتِلَاقِ الثِّيَابِ . وَظَلَّتُ عَلَى ذَلِكَ شَهْرَانِ عِدَّةً ، ثُمَّ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ . قَدْ بَعْثَتَ السَّيِّدَ إِلَيَّ – فِي ذَاتِ صِبَاحٍ بَاكِرٍ – بِخَادِمِهِ الْجَوَادِ الْأَشْقَرِ الصَّفِيرِ . وَلَمَا وَصَلَّ الْخَادِمُ إِلَى حُجْرَتِي ، دَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ أَفْطُنَ إِلَى حُضُورِهِ؛ فَقَدْ كُنْتُ مُسْتَقْرِقًا فِي النَّوْمِ ، وَكَانَتِ الثِّيَابُ قَدْ سَقَطَتْ عَنْ جَسَدِي – فِي أَنْتَهِ النَّوْمِ – وَكَانَ قَمِيصِي مَرْفُوعًا . فَلَمَّا اسْتَيْقَظَتُ عَلَى أَثْرِ الضَّبْجَةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا الْجَوَادُ ، بَدَا الْإِرْتَالُ وَالْقُلُقُ عَلَى سِيمَاهُ . ثُمَّ عَادَ إِلَى سَيِّدِهِ ،

فَقَصَّ عَلَيْهِ مَا رَأَاهُ ، وَهُوَ لَا يَكُادُ يُبَيِّنُ لِإِخْتِلاطِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ .
وَقَدْ رَأَيْتُ أُمْرَ الْحَادِثِ فِي قَسْ السِّيدِ ، حِينَ ذَهَبَ إِلَيْهِ لِأَحْيِيهِ
وَأَتَلَقَّ أَوْامِرَهُ . فَبَدَأَنِي بِالْسُّؤَالِ عَمَّا سَمِعَهُ مِنْ خَادِمِهِ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ الْخَادِمَ



قَدْ أَدْهَشَهُ أَنْ يَرَانِي فِي صُورَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ أَشَدَّ الْإِخْلَافِ ، فِي
يَقْنَاطِي وَمَنَامِي ؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَجْزَاءَ بِيضاً مِنْ جَسْمِي ، وَرَأَى أَجْزَاءَ أُخْرَى
سُمْرًا وَقَاتِمَةً .

وكنتُ - إلى هذه اللحظة - أخفِي سرّي عن السيد وغيره من العياد؛ حتى لا أسلكَ في زمرة الأناسي الْجُبَنَاء الممقوتين. ولكنني اضطُررتُ إلى الإفشاء بحقيقة أمرى - على الرغم مني - بعد أن افْتَضَحَ السرُّ.

وكان من الطبيعي المحتوم أن تظهرَ الحقيقةُ التي حاولتُ إخفاءها جهدي؛ فقد بدأ البلي يدبرُ إلى حذائي وثيابي - من طول الاستعمالِ - ولم يكن لي بدّ من الاستعاضة عنها بأخرى من جلد «الياهو»، أو غيره من الدوابِ. وكان ذلك كله مُؤذناً بافتضاحِ السرِّ بعد زمنٍ قليلٍ.

وقد اضطُررتُ - حينئذٍ - أن أخبرَ السيدَ أن من عادى ، وعادِه أبناء جنسى - من الأدميينَ - أن يُغطّوا أجسادَم بثيابٍ يصنعنها من صوفِ بعضِ الدوابِ ، بأسلوبٍ فنيٍّ خاصٍ يحدِّقُ النَّسَاجَ عندَنا؛ ليسُروا بها أجسادَم عنِ الأنظارِ ، ويَتَّقدُوا وَطَأَةَ الحرُّ والبرِّ. فتعاظمتَه الدهشةُ ، واستوَلتْ عليه الحيرةُ مما سمع؛ لأنَّه لم يكن يظنُّ أن أحدًا من المخلوقاتِ في حاجةٍ إلى ارتداء إاهابٍ صناعيٍّ

غير إهابه (حبله) الطبيعي الذي وبه الله إياته .
 وأردتُ أن أقينه بصحة ما أقول : فرفعت شيئاً من ثيابي ، وخلعت
 حذائي وجوبي ؟ فدهش حين رأى بياض صدرِي وقدري ، وأمسك
 ثيابي بسببِكه ، وظل ينعمُ النظرَ ويُمْنَعُ الفكرَ فيما يراه ، ثم
 يلمسُ جسدي ، ويدورُ حولي — حيناً فجيناً — وهو لا يكاد يصدقُ
 بصرَه فيما يخبرُه به : وبعد افتخار طويل ، التفت إلى السيد ، وحمل
 صاحلاً في احترامِ وأدبِ وإعجابِ :

« لستُ أشكُّ في أنك « يا هو » ؛ لأنني لا أرى فرقاً جوهريّاً
 بينك وبينه ؛ فالجسمان متماثلان ، والوجهُ والقدمان لا تختلفُ عنه
 إلا اختلافاً سيراً ، فإنَّ الشعرَ كثيفٌ مُرسَلٌ على جسدِ « اليهو » ،
 ولا كذلك جسده ، لأنَّ أغله لا يُفطِّيه الشعرُ . وأسنانك قصيرةٌ
 جداً ، على العكسِ من آنثى « اليهو » الطوليةِ . وأنت تمسي
 على قدمينِ اثنتينِ ، على حين يمشي « اليهو » على أربعٍ . »
 ورآنَ السيدُ — حينئذٍ — أرتَجفَ من البردِ ؛ فركَّي لعالي ،
 وأمرني أن أرتدي ثيابي ، حتى لا يُصِيبَني سُوءٌ .

فشكّرتُ له عطفه علىَّ ، وبره بى ، ثم ضرّغتُ إليه متوكلاً أنْ يُغَيِّبَنِي من إطلاقِ اسمِ « الياهو » علىَّ ، وأظهرتُ له تقرّزِي وارتياحي وسخطِي علىَّ هذه الدوابُ الخبيثة ، التي تجلّى فيها الفظاظةُ والفلذةُ واللؤمُ ، وأقسمتُ عليه أنْ يكُفَّ عن هذه التسمية المُفزعَةِ ، وأنَّ يأمرَ أُسرته وخدمه وأصدقائه أنْ يُغفُونِي من سماعِ هذا الاسمِ البغيضِ الممقوتِ . ثم ختمتُ رجائي برجاء آخرَ ، هو أنْ يحتفظَ بِسِرِّي هذا ، فلا يُفْضِي إلى أحدٍ من السادةِ لجيادِ وخدَّمِهم بما عَرَفَه عن ثيابي وحقيقةِ أمرِي ، في ذلك اليوم . واستخلفته أنَّ يأمرَ خادمه الصغيرَ بِكتمانِ السرِّ عن أيِّ كائنٍ كانِ .

فتفضل السيدُ الججادُ بقبولِ هذا الرِّجاءِ كُلِّهِ . وتلطفُ معي : فوَعدْتُني — في وداعِي وأدبِي — أنْ يظلَّ سِرِّي مَكْتُوماً كما طلبتُ . وما زال سِرِّي مَحْجوبًا حتى خلقتُ ثيابي ، وأصبحتُ أَسْمَالاً باليةَ ؛ فاستبدَلتُ بها ثياباً أخرى . سأحدّثُ القارئَ عنها فيما بعدُ .

٦ - سَفِينَةُ « جلفر »

وقد شاقَ السيدَ الجوادَ منيْ هذَا الْحَدِيثُ الْطَّرِيفُ؛ فَصَحَ لِي
بِالْمُتَابَرَةِ وَالْجِدُّ فِي دَرْسِ لِنْقِتَهِ الصَّاهِلَةِ . وَأَنْسَاهُ مَا رَأَاهُ مِنْ أَحْسَالِهِ
رَأْيِيْ ، وَرَجَاحَةِ فِكْرِيْ : اشْمَتْزَارُهُ مِنْ بِيَاضِ بَشَرَتِيْ ، وَعَرَبَيْهَا مِنْ
الشِّعْرِ الَّذِي يُجَلِّلُ أَجْسَامَ الْجِيَادِ . وَقَدْ اشْتَدَتْ رَغْبَتُهُ فِي أَنْ أُجِيبَ
عَنْ أَسْئِلَتِهِ الْأُخْرَى ، الَّتِي يَعْنِيهَا أَنْ يَقِفَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِيهَا ؛ فَوَعْدَتُهُ
بِالتَّبَسُّطِ مَعَهُ فِي الْحَدِيثِ وَالشَّرْحِ فِيمَا بَعْدُ .

وَظَلَّلْتُ أَضَاعِفُ الجُهْدَ فِي مُواصِلَةِ الْحِفْظِ وَالدَّرْسِ ، وَحَسَارَ
يَصْبَحُونِي مَعَهُ فِي عَدُوِّهِ وَرَوَاجِهِ ، وَيُعْرِفُونِي بِاصْحَابِهِ وَرِفَاقِهِ ، وَيَعْامِلُنِي
مُعَامَلَةَ الصَّدِيقِ ، وَيَحْتَرُمُنِي ، وَلَا يَأْلُو جَهْدًا فِي رِعَايَتِي وَإِكْرَامِي .
وِفَادَتِي ، حَتَّى يُسَرِّيَ عَنِي ، وَيُؤْنِسَنِي مِنْ وَحْشَتِي ، وَيُزِيلَ هَمِّي .
وَكَانَ يُكَثِّرُ مِنْ سُؤَالِي عَمَّا يَعْنِي لَهُ مِنْ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَشَفَّلُ بِالْهَـ،
وَأَنَا أُجِيبُهُ ، عَلَى قَدْرِ مَا أُسْتَطِعُ . وَكَانَ يَفْهَمُ أَكْثَرَ حَدِيثِي
فَهُمَا نَاقِصَا ، وَأَنَا أَعِدُّهُ بِمُواصِلَةِ الشَّرْحِ فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ ؛ حَتَّى

أُسْفَقْتِيَ اللَّهُ، وَأَمْكَنْتِي الدَّرْسُ مِنَ الْأَفْضَاهِ إِلَيْهِ بِالْحَقَائِقِ التَّالِيَةِ :
 « جَثَتُ مِنْ بَلَادٍ بَعِيدَةٍ جَدًّا ، وَكَانَ مَعِي فِي رِحْلَتِي خَمْسُونَ رَجُلًا - مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِي - فِي سَفِينَةٍ بَنَيْنَاهَا مِنَ الْخَشْبِ ، وَاجْتَزَّنَا بِهَا ذَلِكَ الْبَحْرَ الْوَاسِعَ الْعَظِيمَ . »

ثُمَّ صَوَرْتُ لَهُ السَّفِينَةَ - جُهْدَ طَاقَتِي - وَنَشَرْتُ أَمَامَهُ مِنْدِيلِي ؛ لِأُمَثِّلَ لَهُ صُورَةَ الشَّرَاعِ ، وَأَصْوَرَ لَهُ كَيْفَ تَدْفَعُهُ الرِّيحُ ، فَيُزْجِي السَّفِينَةَ .

ثُمَّ شَرَحْتُ لَهُ كَيْفَ اُتَمَرَ أَصْنَاعَابِي - فِي السَّفِينَةِ - بِي ، وَكَيْفَ اِنْتَهَتْ مُؤَمَرَتُهُمْ بِإِلْقَائِي إِلَى شَاطِئِ هُذَا الْبَلَادِ ، حَتَّى لَقِيَتِي شِرْذِمَةٌ شَرِيرَةٌ مِنْ « الْيَاهُو » ، وَكَيْفَ هَمُوا أَنْ يَبْطُشُوا بِي ، لَوْلَا مَقْدَمُ السِّيدِ النَّبِيلِ .

فَسَأَلَتِي مُتَعْجِبًا :

« وَمَنِ الَّذِي بَنَى السَّفِينَةَ ؟ وَكَيْفَ سَمَعَ السَّادَةُ الْعِيَادُ - فِي بَلَادِكُمْ - أَنْ يُسْلِمُوا قِيادَتَهَا إِلَى تَلْكَ الدَّوَابَّ الْإِنْسَانِيَّةِ الشَّرِيرَةِ ؟ » فَحَمَّخَمَتُ صَاهِلًا :

« ليس في قدرتي أن أكاشِفَكَ بالحقيقة ، إلا إذا أقْسَمْتَ لِي بِشَرْفِكَ أَلَا تَأْلَمَ لِمَا أُخْبِرُكَ بِهِ . فإني أَخْشَى أَنْ يَتَمَلَّكَ قَسَّاكَ الْفَضْبُ ، إِذَا أَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِالصَّحِيحِ .
إِذَا عَاهَدْتَنِي عَلَى ذَلِكَ ، لَمْ أُرْدِدْ فِي إِخْبَارِكَ بِكُلِّ مَا وَعَدْتُكَ بِهِ
مِنَ الْحَقَّاقَ . »

فَحَمَّمَ السِّيدُ الْجَوَادُ صَاهِلًا :

« كُنْ عَلَى ثَقَةٍ أَنِّي لَنْ أَغْضَبَ مِنْ شَيْءٍ . وَلَا يُخَامِرُكَ فِي عَهْدِي
أَئِ شَكٌ ؛ فَإِنِّي لَا أَتَوْنَى غَيْرَ الْمَعْرِفَةِ . فَحَدَّثْنِي بِكُلِّ مَا تَلَمَّ .
فَقَلَّتْ لَهُ :

« الآن اطْمَأَنْتُ إِلَى وَعْدِكَ الْكَرِيمِ . فَاعْلَمْ — يَا سِيدِي — أَنَّ الَّذِينَ
بَنَوْا تَلْكَ السَّفِينَةَ إِنَّمَا هُمْ أَنَاسِيُّ مِثْلِي ، وَأَنْ هُؤُلَاءِ الْأَنَاسِيُّ — فِي
بَلَادِ الْعَالَمِ قَاطِبَةٌ — هُمُ السَّادُونُ الْمُقْلَّةُ الَّذِينَ يُهَمِّسُونَ عَلَى جَمِيعِ
الْمَخْلُوقَاتِ ، وَيُسْخَرُونَ الدَّوَابَ كُلُّهَا لِيَخْدِمُوهُمْ ؛ وَأَنَّ الْعِيرَةَ قَدْ
اسْتَوْلَتْ عَلَى حِينَ رَأَيْتُ — أَوْلَ مَرَّةٍ فِي حِيَاتِي — جِيَادًا عَاقِلَةً
مُتَكَلِّمَةً . وَلَمْ تَكُنْ دَهْشَتِي مِنْ ذَلِكَ بِأَقْلَى مِنْ دَهْشَتِكَ وَدَهْشَتِي

أصحابك من رؤية دابةٍ مثلٍ من دوابٌ « الياهو » - في بلادكم -
تنطقُ وتبينُ عن أغراضها .

واعلم - يا سيدى - أن الناسَ في بلادى لن يصدقوا
ما أقصهُ عليهم من أنبائكم؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يتصوروا أن جياداً
تعقلُ وتكلمُ . وسيتمون الناسُ بأنى أزوى لهم قصةً خاليةً
لا أصلَ لها ، ولن يصدق أحدٌ منهمْ أنَّ منَ الجيادِ ما يعقلُ
ويفكرُ ويتكلمُ ، ويتوجُّ سيداً على بلدِه ، ويهيمنُ على غيره من
الدوابٌ ؛ لأنهم لا يتصورون الجنودَ إلا دابةً من الدوابِ التي
لا تعقلُ ولا تنطقُ . »

الفصل الرابع

١ - الصحيحُ والكذبُ

كان السيدُ يُنضيَّ إلى حديثِه وهو حائزٌ مُرتبٌ أشدَّ العِزَّةِ والإرتباكِ. ولمْ يكنَ من عادِتِه الشكُّ فيما يسمعُه؛ لأنَّ الجيادَ لا يُخْبِرونَ بغيرِ الصحيحِ، ولا تدورُ بأخلاقِهم تلكُ الْأَكاذِيبُ التي أَفْنَاهَا، مُفْسِرَ النَّاسِ. ولُكْنه لمْ يكنْ يدرِي كيفَ يصدقُ ما يسمعُه، وهو غريبٌ لا سبيلَ إلَى تصوُّرهِ وفهمِه. ولمْ تالَّقِ الجيادُ هذه المِيزَّةُ القليلَةُ التي تُمْكِنُنا مِنَ الإرتياطِ والشكِّ فيما نسمعُ؛ لأنَّ هذه المِيزَّةُ وَقَفَتْ على النوعِ الإنسانيِّ وحدهُ، وليسَ يُشَرِّكُهُ في هذه المِيزَّةِ أحدٌ من أجْنَاسِ الحيوانِ الأخرىِ. ولقد لَقِيتُ من ألوانِ المَعَانِي والجهدِ شيئاً كثِيرًا، حينَ كُنْتُ أحْدَثُه عن صِفاتِ النوعِ الإنسانيِّ، الذي يعيشُ فيما وراءِ جزيرَتهِ النَّاشرَةِ. وكان السيدُ الجوادُ يمتازُ بذكاءٍ نادرٍ، وفِطْنَةٍ عجيبةٍ، في فهمِ ما أحْدَثَه

بـه ؛ ولـكنـه - عـلـى ذـكـائـه وـفـطـنـتـه - لـم يـسـتـطـعـ أـن يـفـهمـ مـا أـعـنـيـهـ
بـكـلـمـتـيـ : كـذـبـ وـغـشـ ، إـلـأ بـعـد حـوارـ طـوـيلـ ، وـأـمـثـلـةـ كـثـيرـةـ !
وـكـانـ يـحـمـمـ صـاهـلـاـ :

« لـقـد خـصـصـنـا بـمـوـهـبـةـ الـكـلـامـ ؛ لـيـمـتـازـ الـواـحـدـ مـنـا عـلـىـ الـآـخـرـ ،
بـفـضـلـ مـا يـبـذـيـهـ مـنـ الـحـكـمـةـ وـأـصـالـقـ الرـأـيـ ، وـالـإـبـانـةـ عـمـا يـفـكـرـ فـيـهـ ،
وـالـإـفـادـةـ مـا يـسـمـعـهـ ، فـيـضـيـفـ إـلـىـ مـا يـعـلـمـهـ مـعـارـفـ أـخـرـيـ .
فـإـذـا تـحـدـثـ إـنـسـانـ فـيـ غـيـرـ هـذـاـ الـبـابـ ، وـقـرـرـ شـيـئـاـ لـمـ يـحـدـثـ ،
خـالـفـ الـفـطـرـةـ ، وـتـكـبـ الـجـادـةـ ، وـأـثـرـ الـطـرـيقـ الـمـلـتـوـيـ . الـأـعـوـجـ عـلـىـ
الـطـرـيقـ السـوـيـ الـمـسـتـقـيمـ ؛ لـأـنـهـ يـكـسـ الـآـيـةـ ، فـيـضـلـ سـامـعـهـ بـدـلـاـ مـنـ
أـنـ يـهـدـيـهـ ، وـيـمـوـهـ عـلـيـهـ بـدـلـاـ مـنـ أـنـ يـرـشـدـهـ »

وـلـا يـكـتـفـ بـأـنـ يـحـرـمـهـ الـمـعـرـفـةـ وـيـرـكـهـ فـيـ جـهـالـتـهـ ؛ بـلـ هـوـ
يـمـعـنـ فـيـ الـإـسـاقـةـ فـيـنـقـلـهـ إـلـىـ حـالـ شـرـ مـنـ الـجـهـلـ ؛ لـأـنـهـ يـزـجـيـ إـلـيـهـ
مـعـارـفـ مـزـوـرـةـ وـحـقـائـقـ مـقـلـوـبـةـ ، إـذـ يـدـخـلـ فـيـ رـوـعـهـ أـنـ الـأـيـضـ
أـسـوـدـ ، وـأـنـ الـقـصـيرـ طـوـيلـ ! »

وـعـنـدـيـ أـنـ رـأـيـ الـجـيـادـ - فـيـ الصـحـيـحـ وـالـكـذـبـ - رـأـيـ

واضحٌ ، لا يُنْتَرِي فِي أَصَالَتِهِ أَحَدٌ مِّنَ النَّاسِ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ
وَلَا تَعْلِيقٍ .

٢ - حديثٌ عن العِيَادِ

ثُمَّ ساقَنَا الْجِوَارُ إِلَى مَا بَدَأْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ الْجِيَادِ وَالنَّاسِ . وَقَدْ
أَكَدَتُ لِلْسَّيِّدِ الْجِوَادِ أَنَّ « الْيَاهُو » فِي بَلَادِنَا هُوَ أَشْرَفُ الدَّوَابِ
وَوَلِيُّ أَمْرِهَا ، وَهُوَ الْحَامِكُ الْمُطْلَقُ ، وَالْسَّيِّدُ الْآمِرُ الْمُطَاعُ ، الَّذِي
لَا يُرَدُّ لَهُ أَمْرٌ .

وَقَدْ اعْرَفْتُ لِي - حِينَ سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ - أَنَّ إِذْ رَأَكَهُ لَا يُسْتَطِيعُ
أَنْ يَصِلَّ إِلَى فَهْمِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي أَحَدَثَهُ بِهَا .

ثُمَّ صَهَّلَ يَسَانُّنِي مُتَعْجِبًا :

« أَلَيْسَ فِي بَلَادِكُمْ جِيَادٌ مِّثْلُنَا يَحْكُمُونَكُمْ؟ وَمَاذَا تَعْمَلُ الْجِيَادُ
عِنْدَكُمْ؟ أَتَتَرْكُ لَكُمُ الْجِبَلَ عَلَى الْفَارِبِ ، وَلَا تُعْنِي بِأَمْوَالِكُمْ ،
وَلَا تُرْشِدُكُمْ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ؟» فَحَمَّمَتُ صَاهِلًا :

« إِنْ فِي بَلَادِنَا جَمِيرَةً كَبِيرَةً مِّنَ الْجِيَادِ . وَهِيَ تَقْضِي فَصْلَ

الصيفِ في المَارِبِ والحقولِ والمُرْوِجِ ، وتقضى فصلَ الشتاءِ
في دُورِنَا ومتارِلنا . وقد وقفتَ على خِدمَتِها والثانيةِ بأمرِها جماعةً
منَ « اليَاهُو » : يتعهّدونَها بالنظافةِ ، ويقدّمونَ لها حاجتها منَ
الطعامِ ، ويُرْجِلُونَ شَعَرَها ، ويَدْلُكُونَ جَلدَها ، وينسِلُونَ أَقْدَامَها ،
ويُعِدُّونَ لها فُرُشَها ، ويُعْنِونَ بأمرِها النَّيَّةَ كُلَّها . » فحمدَمُ السيدُ
الجوادُ صَاهِلاً :

« إِنِّي أَفْهَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَقَدْ فَهِمْتُ مِنْ حَدِيثِكُمْ - مُعْشَرَ
« اليَاهُو » - فِي بَلَادِكُمْ عَلَى شَيْءٍ مِّنَ الْإِدْرَاثِ وَالْمَعْقُلِ ، يُبَيِّحُ لَكُمْ أَنْ
تَتَصَبِّلُوا بِالْجِيَادِ ، وَتَقُومُوا بِمَا يَطْلُبُونَهُ مِنْكُمْ مِّنْ خَدْمَةٍ .

وَقَدْ أَدْرَكْتُ الآنَ أَنِّي لَمْ أُخْطِيِ الرَّأْيَ فِيمَا ذَهَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ
الْجِيَادَ سَادُوكُمْ ، وَأَوْلُو الْأُمْرِ فِيكُمْ . وَلَيْسَ لِي مِنْ رِجَاهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
خُبُرُوكُمْ لَهُمْ فِي بَلَادِكُمْ مُثِلَّ خَضْوعِ « اليَاهُو » لَنَا فِي بَلَادِنَا !
فَلَمْ أَذْرِ : كَيْفَ أَقُولُ ؟ وَبِمَاذَا أُجِيبُهُ ؟ وَآثَرْتُ الصِّيَّمَةَ ؛ حَتَّى
لَا أُغْضِبَهُ إِذَا وَقَتَهُ عَلَى الصَّحِيحِ . وَسَأَلْتُهُ أَنْ يُعْفِيَنِي مِنَ الْإِجَابَةِ ؛
لَأَنَّ الْحَقِيقَةَ لَا بَدَّ أَنْ تَوْلِمَهُ وَتُرْعِجَهُ . فَحمدَمُ الجوادُ صَاهِلاً :



« قُلِ الْحَقُّ ، وَلَا تَخْشَ شَيْئاً :
فَلَيْسَ بِعَنِينِي إِلَّا أَنْ أَعْرَفَ الصَّحِيحَ ،
وَلَنْ يُضَبِّنَنِي شَيْئاً مَا تَقُولُ . »
فَأَجَبَتْهُ صَاهِلًا :

« مَا دُمْتَ تُلْحِنُ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ .
وَتَأْبِي إِلَّا أَنْ أَفْضِيَ إِلَيْكَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَغْصِيَ
لَكَ أَمْرًا :

إِنَّ الْجِيَادَ الْأَصْبَلَةَ فِي بَلَادِنَا - يَا سَيِّدِي - تُعَدُّ مِنْ أَجْمَلِ الدَّوَابِ
وَأَنْبِلَهَا ، وَهِيَ مُشْهُورَةٌ بِقُوَّةِ الْجَسْمِ وَسُرْعَةِ الْعَدُوِّ . وَالْمُظَمَّاهُ عِنْدَنَا
يَتَسَابَقُونَ إِلَى اقْتِنَائِهَا ، وَيُعْنَوْنَ بِأَمْرِهَا ، وَلَا يُرْهِقُونَهَا . فَهِيَ تَقْضِي
أَيَّامَهَا فِي السِّيَاحَةِ ، أَوِ السُّبَاقِ ، أَوْ جَرِيِّ الْمَرَكَبَاتِ .

وَلَا تَزَالُ الْجِيَادُ النَّبِيلَةُ تَلْقَى الْكَثِيرَ مِنْ عَذَابِ الْكُبَرَاءِ وَالْأَعْيَانِ
وَرِعَايَتِهِمْ ، مَا دَامَتْ فَتِيَّةٌ قَوِيَّةٌ مَوْفُورَةُ الصُّصَدَةِ . حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهَا
الْوَهَنُ ، أَوْ أَعْجَزَهَا الشَّيْخُوخَةُ ، بَادَرُوا إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهَا ، وَقَرَرُوا
أَنْ يَلِيقُوهَا - فِي السُّوقِ - إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ « الْيَاهُو » : لِيَسْتَخْدِمُوهَا

فِي أَعْمَالِهِمُ الشَّافِةُ الْمُضَنِّيَّةُ، حَتَّى يُدْرِكَهَا الْمَوْتُ؛ فَيَسْلُخُوا جَلَدَهَا لِيُبَيِّنُوهُ،
وَيَتَرُكُوا جُثَثَهَا طَعَامًا لِلْكَلَابِ وَالطَّيْورِ الْجَارِحةِ.

هَذَا مَا تَلَقَاهُ الْجِيَادُ النَّبِيلَةُ الْكَرِيمَةُ الْأَعْرَاقِ فِي بَلَادِنَا. أَمَا الْجِيَادُ
الْمَهِينَةُ الْمُنْحَطَّةُ، فَلَيْسَ لَهَا حُظٌّ مِنَ الرَّعَايَةِ وَالعِنَاءِ؛ فَإِنَّ سَادَتَهَا
— مِنَ السَّاعِينَ وَالزَّارِعِينَ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَخْلَاطِ الشَّعْبِ وَجَمِيرَةِ
الْأَوْشَابِ — يُحَمِّلُونَهَا مَا لَا تُطِيقُ مِنْ أَحْمَالٍ، وَيُكْلِفُونَهَا قَلَّ مَا تَنْوِي
بَهُ مِنْ أَنْقَالٍ، وَيَهْدُمُونَ لَهَا طَعَامًا تَافِهًا حَقِيرًا، لَا يُقْيِيمُ أَوْدَهَا،
وَلَا يَسْاعِدُهَا عَلَى الاضْطِلَالِ بِالْأَعْبَاءِ الْمُرْهَقَةِ الَّتِي يُرْغِمُونَهَا عَلَى أَدَائِهَا.»

ثُمَّ شَرَحْتُ لَهُ مَا أَعْلَمُهُ مِنْ طَرَائِقِنَا وَآسَالِيَّبِنَا فِي رُكُوبِ الْخَيْلِ،
وَكِيفَ أَعْدَدْنَا السَّرِيجَ وَاللَّاجَامَ لِرُكُوبِهَا، وَأَوْضَحْتُ لَهُ كِيفَ نُسْرِجُهَا
وَنُلْجِمُهَا. وَوَصَّفْتُ لَهُ الْمِهْمازَ وَالسُّوْطَ. وَكِيفَ نَهِيَّزُهَا وَنَأْمِيَّهَا ضَرِبًا
بِالسُّيَاطِ، إِذَا وَنَتْ فِي عَذْوَهَا أَوْ تَرَأَخَتْ، وَكِيفَ صَنَعْنَا لِحَوَافِرِهَا نِعَالًا
غَايَةً فِي الصَّلَابَةِ، مِنْ مَادَّةٍ تُسَمِّيُ الْحَدِيدَ؛ لِتَحْفَظَ سَنَابِكَهَا مِنَ التَّنَافِ،
وَتَقِيهَا الْأَخْطَارَ وَالْكَسْرَ فِي الْطَّرِقِ الصَّخْرِيَّةِ الصَّلَبَيَّةِ الَّتِي عَبَدَنَاها
لِتُسْهِلَ لَنَا أَسْبَابَ التَّجَوَّلِ وَالسَّفَرِ.»

٣ - سُخطُ الجوادِ الناطق

وكان السيدُ الجوادُ يُنصلِّي إلى حدثى متألماً جاتقاً . وقد حاولَ أنْ يُخفِّيَ حُزْنَه وكمَدَه عنِي : فلم يَسْتَطِعْ إلى ذلك سيللاً ، ولم يتمالكْ أنْ كاشفَنِي باشِمْتَازِه واحتِقارِه ، ثم حَمْتَمَ مدهوشًا متعجبًا : « كَيْفَ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تُذَلُّوا تَلْكَ الْجِيَادَ ، وَتَعْتَلُوا مُتُونَهَا ، وَلَسْتُ أَرْتَابُ أَنْ أَضْعَفَ جَوَادِي مِنْ جِيادِنَا أَقْوَى مِنْ أَوْفَرِكُمْ شَجَاعَةً وَأَشَدِكُمْ بَأْسًا ، وَلَنْ يُعْجِزَ الْجَوَادَ – إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْحَقَكُمْ بِأَقْدَامِه – أَنْ يَتَدَحَّرَ بِرَأْكِيهِ عَلَى الْأَرْضِ ؟ فَيَسْحَقَهُ سَحْقًا ، وَيَهْرِسَهُ هَرْسًا ؟ »

فَحَمَّمَتْ صَاهِلًا :

« إِنَّ الْجِيَادَ – فِي بَلَادِنَا – مُذَلَّةٌ لَنَا مُرَوْنَةٌ . وَنَحْنُ نُعَوِّدُهَا – مَتَى بَلَغَتِ التَّالِيَةَ أَوِ الرَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِهَا – الْخَضْرَوْعَ وَالطَّاعَةَ ، وَنُدْرِبُهَا عَلَى أَدَاءِ الْأَعْمَالِ الَّتِي نَخْتَارُهَا لَهَا ، وَنَفْرِضُهَا عَلَيْهَا . فَإِذَا أَظْهَرَ بَعْضُهَا تَبَلُّدًا أَوْ عِجْزًا ، اسْتَخْدِمْنَاهُ فِي جَرَّ الْمَرْكَبَاتِ ،

وَأَهْبَنَا جِسْمَه بالسُّيَاطِ - مِنْذُ حَدَائِتِه - حَتَّى تَرُوضَه ، وَنُصلِحَ عَيْبَه ، وَتَقُومَ زَيْفَه .

وَاعْلَمْ - يَا سَيِّدِي - أَنَّ الْجِيَادَ الَّتِي نَخْتَارُهَا لِرُكُوبِنَا وَجَرَّ مَرْكَبَاتِنَا ، تَفْصِيلُهَا - فِي عَامِهَا الثَّانِي - عَنْ أُمَّاتِهَا ؛ أَيْسَهُلَ عَلَيْنَا تَذْلِيلُهَا وَرِياضَتِهَا . وَهِيَ تَلْقَى نَصِيبَهَا مِنْ حُسْنِ الْمَكَافَةِ ، أَوْ سُوءِ الْجَزَاءِ ، فِي حَالِ الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ .

وَأَحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ سَيِّدِي الْجَوَادُ : أَنَّ الْجِيَادَ فِي بَلَادِنَا غَيْرُ الْجِيَادِ فِي بَلَادِهِ ؛ لِأَنَّ جِيَادَنَا لَيْسَ فِي رُؤُوسِهَا ذَرَّةٌ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْأَقْتَلِ ، وَهِيَ - فِي عَيَّابَاتِهَا وَبَهِيمَيَّتِهَا - أَشْبَهُ حِيَانَرِ « الْيَاهُو » فِي بَلَادِهِ !

وَقَدْ كَلَّفَنِي الْإِعْرَابُ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ - لِلسَّيِّدِ الْجَوَادِ - كَثِيرًا مِنَ الْلَّبَاقَةِ وَالْجَهَدِ ؛ فَإِنَّ تَلْكَ الْمَلَغَةَ الصَّاہِلَةَ لَيْسَتْ - مِثْلَ لُفَاتِنَا - غَيْرَةً بِالْأَلْفَاظِ ؛ لِأَنَّ حَاجَاتِ أَصْحَابِهَا وَمُحَاوَرَاتِهِمْ قَلِيلَةٌ مَمْحُودَةٌ ، وَأَغْرِاصَهُمْ سَهْلَةٌ مَيْسُورَةٌ ، لَا تُلْجِئُهُمْ إِلَى افْتِنَانٍ فِي الْأَدَاءِ ، وَبِلَاغَةٍ فِي الْبَيَانِ .

ولا أكتمُ أنني عاجزٌ العجزَ كلهُ عن وصفِ أماراتِ الفضبِ
النبيلِ ، التي ارتسمتَ على أسريرِ السيدِ الجوادِ ، حين أفضيتُ إليهِ
بتلك المعاملةِ القاسيةِ الوحشيةِ التي يلقاها العيادُ في بلادِنا .
ومن المُحالِ علىَّ أن أصوّرَ للقارئِ سخطَ السيدِ الجوادِ وحنقَهُ
 علينا - مفترِّ الأنسيِّ - حين سمعَ مني أنا تفصِّلُ أحداثَ
العيادِ عن أماتهَا ، ونخرِّمُها عطفَها عليها . وأنسَمَا بها ، لِنسخَّرَها
في أداءِ أعمالنا .

٤ - فضلُ العقلِ

ولم يُمارِنِي السيدُ الجوادُ في فضلِ العقلِ . وقد أقرَّنى علىَّ أنَّ
له المكانَ الأولَ ، وأنَّ الكائنَ العاقلَ الرشيدَ يُصبحُ - حيَّشما
حلَّ - سيدَ الدوابِ الأخرى التي خُرِمتْ نفمةَ العقلِ ، وهو لا بدُّ
مُتغلَّبٌ عليها - طاحلاً أو آحلاً - بذكائهِ ، وحُسْنِ حيلتهِ ،
وسدادِ رأيهِ .

ولكنه رأى - إلى ذلك - أن جسمِي مهزولٌ ، ضعيفُ البنيةِ ،

ولم يكن يدور في خلده قطُّ أنَّ مخلوقاً - في مثل هذا العجم الصغير - يمكن أن تُوجَدَ في رأسه مُسْكَةٌ منَ العقلِ ، تَهْنِيهُ إلى فَهْمِ أَبْسَطِ بَسَاطِ الْحَيَاةِ .

٥ - مُلاحظاتُ الجَوَادِ

ثُمَّ سَأَلَنِي صَاهِلًا :

« أَلَا تَرَى أَنَّ « الْيَاهُو » - فِي بَلَادِنَا - يَمِاثِلُكُ ، أَوْ يَمِاثِلُ « الْيَاهُو » فِي بَلَدِكَ الَّذِي حَدَّثْتَنِي عَنْهُ؟ »

فَأَجْبَتُهُ مُحَمَّدًا :

« إِنَّ تَكْوِينَ جَسْمِي وَبِنِيَّتِهِ ،
خَيْرٌ مِّنْ كَثِيرٍ مِّنْ أَقْرَانِي مِنَ « الْيَاهُو »
فِي بَلَادِنَا ، مَمْنُونٌ هُوَ فِي مُثْلِ سِنِّي .
وَلَكِنَّ « الْيَاهُو » الَّذِينَ هُمْ أَقْلَلُ مِنِّي سِنًا
- سَوَاءً أَكَانُوا ذُكُورًا أَمْ إِنَاثًا - لَهُمْ بَشَرَةٌ أَرْقَى مِنِّي ، وَأَكْثَرُ
نُعُومَةً ، لَا سِيمَ النُّسَاقِ . »



قالَ لِي صاحِلًا :

« لا أُنكِرُ عَلَيْكَ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ دَوَابَ « الْيَاهُ » - الَّتِي فِي
خَطَايَا الرَّدَاجَاجِ عِنْدَنَا - شَيْئًا مِنَ التَّخَالُفِ . فَأَنْتَ أَنْظَفُ مِنْهَا ،
وَأَقْلُّ بِشَاةَ وَدَمَامَةً ؛ وَلَكُنْهَا - عَلَى ذَلِكَ - أَقْوَى مِنْكَ ، فِيمَا
أَظْنَنُ ، وَأَشَدُّ بَأْسًا .

أَمَا أَظَافِرُكَ ، فَلَسْتُ أَرَاهَا تَصْلُحُ لِعَمَلٍ مَا . وَأَمَا قَائِمَتَكَ الْأَمَامِيَّاتِانِ
فَمَا أَرَاهُمَا جَدِيرَتَيْنِ بِهِذِهِ التَّسْمِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَا تُعْنِيَانِ عَلَى التَّعْنِيَّةِ .
وَمَا رَأَيْتُكَ - مُنْذُ حَلَّتَ عِنْدَنَا - تَمْشِي عَلَيْهِمَا . وَهُمَا مِنَ الْفَعْلِ
وَالرِّيقَةِ بِحِيثُ لَا تَقْوِيَانِ عَلَى مَسْ كُلِّ الْأَرْضِ ، بَلْهُ الْاِخْتِكَاكُ بِهَا .
وَقَدْ رَأَيْتُكَ تَتَرَكُهُمَا عَارِيَتَيْنِ فِي أَكْثَرِ الْأَحَادِينِ ، وَتَنْفِيَهُمَا
أَحِيَا نَأْيَقْطَعَةَ مِنَ الشَّيْبِ تَغَابِرُ لَوْنَ جِسْمِكَ
أَمَا قَائِمَتَكَ الْخَلْفِيَّاتِ الْأَلْتَانِ تَمْشِي عَلَيْهِمَا ، فَهُمَا - كَذَلِكَ -
لَيْسُوكُمَا مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّلَاحِيَّةِ ، بِحِيثُ تُؤْمِنُنَا صَاحِبَيْهِمَا الْعِثَارُ وَالزَّلَّ،
وَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَنْزَلَقَا ، فَهُوَا بِكَ إِلَى الْأَرْضِ . »

وأشترسلَ السيدُ في ملاحظاته على سائرِ أجزاءِ جسْمِي؛ فلم يتركْ شيئاً إلَّا انتقدَه وهجَّنه: لم يُعجبه وجهي ورأى أنه مُتبَسطٌ، كما رأى النُّتوءَ باديَا في أثني، فانتقدَه. وأخذ على اقترابِ إحدى عيني من الأخرى، وقال لي:

«إنهمَا — لقُرْبِهِما — تَكادان تلتَصِقانِ؛ فلا تُيسِّرانِ لكَ أَنْ تنظرَ — يَمْنَةً وَيَسْرَةً — إلَّا إذا أَدَرْتَ رأسَكَ كَلَّهُ.

وليسَ في قُدرِتِكَ أَنْ تَأْكُلَ طعامَكَ، ما لم تَسْتَعِنْ بِرِجْلَيْكَ الْأَمَامِيَّتَيْنِ، لترفعَ الغذاءَ بهما إلَى فِيكَ. ولمَلْ هُنَّا هُوَ السُّرُّ في هذه المفاصلِ الكثيرةِ التي أَرَاهَا في أطرافِ جسْمِكَ.

ولستُ أَدْرِي ما تَقْعُدُ هُنَّةُ الأَعْضَاءِ الصَّفِيرَةِ الْمُنْفَصِلَةِ، التي أَرَاهَا في طَرَفِ رِجْلَيْكَ الْخَلْفِيَّتَيْنِ، وهِيَ — فيما يَبْدُو لِي — غَايَةُ الضعفِ واللُّيُونَةِ. وليسَ لها قوَّةٌ على السِّيرِ فوقَ الصُّخُورِ والأشواكِ — إذا كانتُ عارِيَّةً — فَهِيَ فِي حاجَةٍ دائِمَةٍ إلَى غِطاءٍ تَصْنَعُونَهُ من جِلدِ الدَّوابِ الْأُخْرَى، لِيَقْسِمَهَا تلكُ الأَخْطَارُ!

أما جِسْمُكَ فهو ضعيفٌ، لا يُطيقُ الْحَرَّ والْبَرْدَ، إذا تَعرَّى

مِمَّا عَلِيهِ مِنَ الثِّيَابِ وَقَدْ رَأَيْتُكَ تَرْتَجِفُ مِنَ الْبَرْدِ ، حِينَ
خَلَعْتَ بَعْضَ ثِيَابِكَ أَمَامِي . فَأَنْتَ لَا تَسْتَغْفِي عَنِ ارْتِدَاءِ هَذِهِ الثِّيَابِ ،
فِي جِمِيعِ الْأَيَّامِ .

وَمِنَ الْجِيَّبِ الْمُدْهِشِ أَنَّ الدَّوَابَّ فِي بَلَادِي – عَلَى اخْتِلَافِ
أَجْنَاسِهَا – تَرْهَبُ « الْيَاهُو » بِطَبِيعَتِهَا ، وَتَخْشَاهُ ، وَتَلُوذُ بِالْفِرَارِ
حَيْثُمَا تَرَاهُ . وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَقْوَى حَيَوانِ فِي بَلَادِنَا يَتَحَامِي
« الْيَاهُو » جَهَدَهُ .

وَمَا أَدْرِي كَيْفَ تَعِيشُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَادِعِينَ سَالِمِينَ ، وَلَيْسَ
فِيهَا دَابَّةٌ وَاحِدَةٌ تَعْطِفُ عَلَيْكُمْ ، وَلَا تَنْفِرُ مِنْ لِقَائِكُمْ ؟
وَمَاذَا يُجْدِيُكُمُ الْعُقْلُ – إِذَا سَلَّمْنَا أَنْكُمْ قَدْ ظَفَرْتُمْ بِهِ خَنَّاً –
مَا دَامَتِ دَوَابُّ الْأَرْضِ كُلُّهَا تَمْقُتُكُمْ ، وَلَا تُطِيقُ رُؤْيَاكُمْ ؟ فَكَيْفَ
تَتَخَذِّذُونَ مِنْهَا خَدْمًا ، وَهِيَ تُضْمِرُ لَكُمْ مِثْلَ هَذَا الْعِقْدِ وَالْكَرَاهِيَّةِ ؟
ثُمَّ اسْتَأْنَفَ مِنْهَا لَهَا :

« حَسْبِيْ ما أَبْدَيْتُهُ لَكَ مِنَ الْمُلَاحَظَاتِ ، وَلَنْدَعْ الْحَدِيثَ الْأَكْنَى فِي
هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَنْزِحْنَاهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ ؛ فَإِنَّ بِي لَثْوَقَةً شَدِيدًا إِلَى

دَرْسٌ أَخْوَالِكَ أَنْتُ ، وَإِلَى تَعْرِفُ مَسْقَطَ رَأْسِكَ ، وَتَوْزِيعُ مِهْنَاتِكَ ،
وَمُخْتَلِفِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي حَلَّتْ بِكَ ، قَبْلَ أَنْ تَصِلَّ إِلَى بَلَادِنَا . »

٦ - قِصَّةُ « جَلْفَرْ »

فَاجْبَتُهُ مُحَمَّدًا :

« إِنَّ بِي مِنَ الرُّغْبَةِ إِلَى إِخْبَارِكَ بِأَنَّابِي مِثْلَ مَا بِكَ - يَا سَيِّدِي -
مِنَ الرُّغْبَةِ فِي سَمَاعِهَا وَهِيَ - بِلَا شَكٍّ - سَدْهُشِكَ إِذَا
اسْتَطَعْتُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ عَنْهَا . وَمَا أَنَا بِقَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ فِي وُضُوعٍ وَجَلَاءٍ ؛
لَانَّ أَكْثَرَ مَا أَقْصَهُ عَلَيْكَ غَرِيبٌ غَيْرُ مَأْلُوفٍ ، وَلَيْسَ لِمَا أَخْبُرُكَ
بِهِ مِثْلٌ فِي بَلَادِكَ ، فِيمَا أَرَى . وَلَيْسَ مِنَ الْيِسِيرِ عَلَىٰ أَنْ
أَحْدِثَكَ بِأَمْرِ لَمْ تَعْرِفْ بِكَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ ، وَلَمْ تَخْطُرْ لَكَ - نَرَةً -
عَلَىٰ بَالٍ . »

وَمَهْمَا يَكْنُ مِنْ أَمْرٍ ، فَإِنِّي بِاذْلِلْ جُهْدِي كُلُّهُ . وَلَنْ أَتْرَكَ وَسِيلَةً
مِنْ وَسَائِلِ التَّشْبِيهِ وَالْإِسْتِعَارَةِ إِلَّا سَلَكْتُهَا ، لِتَوْضِيعِ مَا أُرِيدُ .
وَلَكِنِّي أَتَسْمُ مِنْ سَيِّدِي أَنْ يَسْاعِدَنِي عَلَى أَدَاءِ غَرَضِي ، كُلُّمَا

أعوزني الأداة ، وخدّلني التعبير . «
 فأجابني مُتلهّفاً صاحلاً : « لك ما تريده ، أيها الصاحب العزيز ! »
 فأوجزتُ قصتي فيما يلي :
 « لقد ولدتُ - يا سيدى - من أبوين شرقيين ، في جزيرة
 اسمها « إنجلترا ». وهى بعيدة عن بلادك بعضاً شديداً ، ولن



يصل إليها أقوى خدميك قبل عام كاملٍ . وقد تعلمتُ - أولَ
 أمرى - مهنة الجراحة ، أي فنّ مُداواة الجروح ومعالجتها . وكانت
 تحكم بلادى امرأة من بناتِ جنسنا ، نطلق عليها لقبَ : « المِلكة » .

أما سبب مُقادِرِي تلك البلاد، فهو يرجع إلى رغبتي في التماس الثروة، لا أعلَّ بها نفسى وأُسرى. وقد كنتُ - في رحلتِي الأخيرة - رُبَّانَ سفينةٍ كبيرةٍ، وكان تحتِ إمْرِي خَمْسُونَ من « اليامو ». وقد ماتَ أكثُرُهُم - في أثناء الطريق - لِسُوءِ الحظِ؛ فاضطُرْتُ إلى أنْ أُسْتَعِضَ عنهم بِجَمَاعَةٍ أُخْرَى عَيْرِهِمْ، وقد أَخْضَرْتُهُمْ مِنْ بَلَادِ الأَجْنَاسِ مُخْتَلِفةٍ. وقد تَرَضَتْ سفينتِي - خِلالَ هَذِهِ الرُّحْلَةِ - للفرقَ مَرَّتينِ؛ فقد كاد يُودِي بها - في المرة الأولى - بِإعصارٍ شديدٍ، وكادتْ - في المرة الثانية - تحطَّمُ على صَخْرَةٍ اعْتَدَدْتُ لها، وهي تَمْرُّ عَبَابَ الْبَحْرِ. »

وَهُنَا قَاطَعِي السَّيِّدُ، وَسَأَلَنِي مُحَمَّداً :
 « كَيْفَ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَجْلِبَ - فِي سَفِينَتِكَ - أَفْرَاداً مُخْتَلِفِي
 الأَجْنَاسِ ؟ وَلِمَاذَا ارْتَضَيْتَ تَرْكَ بِلَادِمْ، وَالْمُجَازَفَةَ مَعَكَ فِي اقْتِعَامِ
 الْأَخْطَارِ الَّتِي تَرَضَتَ لَهَا، وَالْمُشَارِكَةَ فِي الْخَسَائِرِ الَّتِي تَكْبِدُهَا ؟ »
 فَأَجْبَتُهُ صَاهِلاً :

« لقد كان أولئك الرفاق يُعانون من الفاقة والقرى ، ما يهضطُّ لهم إلى النزوح عن أوطانهم . فقد كانوا لا يجدون في بلادِم قوتا ولا مأوى ، وكان بعضُهم فاراً من العدالة حتى لا يتعرض للاحصاص . وكان آخرون منهم قد خسروا كلَّ ما يملكون ، من جراء مجازاتِهم وطولِ احتكاكِهم إلى القضاء ، أو من جراء المقامرة والسير في طرق خطيرة موعِّدة . وكان بعضُهم من القتلة ، واللصوص ، والهاربين من الجيش ، والمُتواطئين مع العدو ، والفارين من السجن .

ولم يكن في وسع أحدٍ من هؤلاء أن يعود إلى وطنه؛ حتى لا يعرض نفسه للقتل ، أو الصليب ، أو السجن . وثمة اضطروا إلى الهجرة إلى بلادٍ أخرى ، التماساً للرزق ، وانجاعاً للكسب . »

وكان السيدُ الجوادُ يُقاطعُ كلامي مراتٍ ؛ ليُستقرئني عما لم يفهمه من حديثي وأغراضي . ولم يكن يدركُ معنى تلكَ الجرائم التي ذكرتها له ، ولم يتصوّز كيف اضطررتْ جمهرةُ الملائكةِ الذين صاحبوني في رحلتي إلى النزوح عن بلادِم ، وكيف اقترفَ أولئك

المُجْرِمُونَ تلَكَ الْجَرَائِمُ الشَّنِيعَةُ ، وَأَئِ حَافِزٌ دَفَعَهُمْ إِلَى الْإِقْدَامِ
عَلَيْهَا ؟ وَمَاذَا أَفَادُوا مِنْهَا ؟

وَقَدْ كَبَدَتْ جُهْدِي فِي تَبْجِيلِيَّةِ مَا غَمَضَ عَلَيْهِ ، وَشَرَحَ الْبَوَاعِثُ
الَّتِي تَحْفِزُهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لَهُ ، فِيمَا قُلْتُ :

« إِنَّ الشَّرَّةَ ، وَالجَحْشَعَ ، وَالآنَانِيَّةَ ، وَالرَّغْبَةَ فِي الْحُصُولِ عَلَى
الْجَاهِ وَالثَّرَوَةِ وَالسُّلْطَانِ ، وَمَا يَجْرِيُهُ ذَلِكَ مِنَ الْحِمَاقةِ وَالْحَسَدِ ؛ هِيَ :
جُمَاعُ الرَّذَائِلِ عِنْدَنَا ، وَمَصْدُرُ الْجَرَائِمِ وَالشَّرِّ الَّتِي تَسُوقُ النَّاسَ
إِلَى هُوَّةِ الْخَرَابِ ، وَتَدْفَعُهُمْ إِلَى اقْتِرَافِ الشُّرُورِ وَالْأَثَامِ . »

وَلَمْ يَكُنْ السَّيِّدُ الْجَوَادُ لِيَتَصَوَّرَ أَنَّ لَهُذِهِ الرَّذَائِلِ الْمُمْقُوتَةِ وُجُودًا .
فَلَمَا سَمِعَ مَا حَدَّثَهُ بِهِ ، تَعَاظَمَتْهُ الدَّهْشَةُ ، وَاسْتَوَاتْتُ عَلَى قَسِيهِ
الْحِينَةُ ؛ فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ مُسْتَنْكِفًا ، وَبَدَا عَلَى سِيمَاهُ الْإِزْدِرَاءِ
وَالْإِنْتِقَارِ ، بَعْدَ أَنْ تَكْسِفَ لَهُ مِنْ مَخَازِنِنَا مَا لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ بِهِ طُولَ
حَيَاتِهِ ، أَوْ يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالِّي وَصَرَخَ صَاهِلًا :

« تَبَّا لَكُمْ — يَا مَعْشَرَ « إِيَاهُو » — فَهَدِ جَاؤُتُمْ فِي الإِسَاعَةِ
وَالرِّجْسِ كُلِّ حُسْبَانٍ ! »

ولم يكن من يسير على أن أفهم السيد الجواد كل هذه الأغراض، على وجه الدقة، وأجلو له ما أغنى به حين ذكر أمامه الفاظ التفود والسلطان والحكومة والعرب والقانون والقصاص، وما إلى ذلك من الكلمات التي لا عهد له بسماعها. ولم يكن في اللغة الصالحة ما أستعين به على توضيح مثل هذه الأغراض، والتبشير عنها. وتمة كانت محاورتي مخففة، لا سيل إلى نجاحها، لولا ما رأيته في السيد الجواد من رجاحة العقل، وبعد النظر.

وقد استطاع بعد محاورات طويلة أن يتعرف - في وضوئه وجلاء - كل ما حدثه به عن خصائص النوع الإنساني في بلادنا.

ولما انتهينا من هذه الأحاديث، طلب إلى أن أحدهما عن «أوربة»، وأن أتبسط في الكلام عن وطني خاصة؛ فوعده بتحقيق أمنيته في محادثات أخرى.

الفصل الخامس

١ - مُحاوراتٌ صَاهِلَةٌ

أَحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ الْقَارِئُ أَنَّ مَا أَقْصَهُ عَلَيْهِ فِي هَذَا النَّصْلِ - مِنْ أَنْبَاءِ وَأَحَادِيثَ - إِنَّمَا هُوَ خُلاَصَةُ مُحَاورَاتٍ صَاهِلَةٍ عِدَّةٍ ، بَيْنَ وَبَيْنَ السَّيِّدِ الْجَوَادِ ، فِي خَلَالِ عَامَيْنِ . قَدْ كَانَ يَسْأَلُنِي ، فَأُجِيبُ - جُهْدِي طَاقَتِي - ثُمَّ يَتَفَرَّغُ لِلْحَدِيثِ ، وَيَتَشَعَّبُ الْكَلَامُ ، فَلَفْضَلُّ لَهُ مَا أَجْمَعْتُ .

وَكُنْتُ كُلَّمَا ازْدَدْتُ تَقْنِيَّةً فِي تَلَاقِ الْأَلْفَةِ ، ازْدَادَ سَاحِبِي شَفَقًا بِالثَّبْطِ مَعِي فِي الْحَدِيثِ ، حَتَّى أَوْجَزْتُ لَهُ كُلَّ مَا أُسْتَطِعُ أَنْ أُدْلِيَّ بِهِ عَنْ «أَوْرُبَةَ» وَأَحْوَالِهَا . وَفُنُونِهَا . وَسَنَاعَاتِهَا ، وَتَجَارَاتِهَا وَعَلَوِيهَا : وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنِ الشَّوْنِ الْخَطِيرَةِ .

وَإِنِّي مُجْتَزِيٌّ مِنْ تَلِكَ الْمُحَاورَاتِ بِمَا دَارَ بَيْنَنَا عَنْ وَطْنِي ؛ حَتَّى لَا أُضْجِرَ الْقَارِئَ بِتَفْصِيلٍ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ . وَقَدْ كُنْتُ أَخْذَتُ نَفْسِي بِأَنْ أَحَدَثَ السَّيِّدَ الْجَوَادَ عَنْ حَوَائِجِ الْحَوَادِثِ وَبَسَاطِهَا ، أَكْثَرَ مِمَّا

أخذتْ نصي باتّساعِ في صَمِيمِها . ولَنْ أَنْسَى ما كَابَدَتُهُ من عناء وَجهدٍ
كُلُّما توَخَّيتُ الْإِيَّاهَةَ — للسيد الجوادِ — عن آرائي وأغراضي :
كُنْتُ أُعَايِنُ فِي الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ — من الْأَوَانِ التَّعَبِ — مَا لَا سِيلَ
إِلَى وَصْفِهِ ؛ لِضَعْفِي وَحَدَائِقِ عَهْدِي فِي التَّرْجِمَةِ إِلَى تلكِ اللُّغَةِ
الْمَعْدَّةِ الصَّاهِلَةِ !

٢ - دَوَاعِي الْعَروَبِ

وكان من أهم الأحاديث التي دارت بيننا : حديث الثورة الأخيرة ،
التي نشَّبتَ في «إنجلترا» ، من جراء الفارة التي شنَّها الأمير «أورنبع» :
فكانت سبباً في إيقاد نارِ العَربِ بين الدُّولِ المَسيحيَّةِ كُلُّها .

وسألني السيدُ أنْ أُخْصِيَّ مَنْ . هَلَّكوا في تلكِ الْحَرَبِ الطَّاحِنَةِ
المُشْتُوَمِيَّةِ ؟ فأخبرتهُ أنَّ عَدَّهُمْ لا يَقْلُّ عَنْ مِلْيُونٍ مِّنَ «اليهُو» ،
وَأَخْصَيَّتُ لَهُ الْمَدَنَ الَّتِي حُوْصِرَتْ ، وَالَّتِي تَعَرَّضَتْ لِفَارَاتِ الْأَعْدَاءِ ،
وَهِيَ لَا تَقِلُّ عَنْ مِائَةِ مَدِينَةٍ .

وذكرتُ لَهُ أَنَّ عَدَّ السُّفُنِ الَّتِي أُخْرِقَتْ أَوْ أُغْرِقَتْ يَزِيدُ

على خَسِيمَاتِ سفينةٍ . وقد حلَّتْ هُنَّهُ الأحداثُ والخطوبُ كُلُّها في
عهْدِ الْأَمِيرِ « أورنج » والملکة « حَنَّةً » .
فَسَأَلَنِي السَّيِّدُ مَدْهُوشًا :

« وَمَا الدَّوَاعِي الْقَاهِرَةُ الَّتِي تَحْفِزُ « الْيَاهُو » إِلَى اشْتِبَاكٍ فِي مُثْلِ
هَذِهِ الْعَرَبِ الطَّاجِنَةِ؟ »
فَحَمَّمَتْ صَاهِلًا :

« إِنْ لَهُذِهِ الْحَرَبِ أَسْبَابًا لَا تُحْصَى . وَإِنِّي مُجتَزَّ بِذِكْرِ أُمِّ
الْحَوَافِرِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى اقْتِحَامِ هَذِهِ الْأَخْطَارِ . »

فَأَرْزَقَنِي السَّيِّدُ أُذْنَيْهُ ، وَأَصَانَنِي إِلَى بَسْمِيْهِ . فَاسْتَأْتَقْتُ صَاهِلًا :
« إِنْ أَكْثَرَ هَذِهِ الْحَرَوْبِ يُرْجِعُ إِلَى أَطْمَاعِ الْأَمْرَاءِ وَالْوُلَاةِ
وَالْحُكَّامِ ، الَّذِينَ لَا يَقْنَعُونَ بِمَا يَحْكُمُونَ مِنْ بَلَادٍ وَشُعُوبٍ ؛ فَتَطْمَحُ
تَقْوِيْهِمْ إِلَى التَّوْسُعِ فِي الْفَتْحِ ؛ حَتَّى تَتَسَعَ رِقَاعُ الْمَمَالِكِ الَّتِي
يَحْكُمُونَهَا ، وَيَكْثُرَ عَدُّ الشُّعُوبِ الَّتِي تَدِينُ لَهُمْ بِالْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ .
وَرِبِّما نَشَبَّتِ الْحَرَوْبُ الطَّاجِنَةُ مِنْ جَرَاءِ السَّاسَةِ الَّذِينَ أَعْمَلُوهُمْ
الْأَنَانِيَّةَ وَالشَّهْوَةَ ، وَأَفْسَدَ قُلُوبَهُمُ الْطَّمَعَ وَالْهَوَى . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا

الوزراء يَسْتَرُون بالعَرْبِ خَطَاهُمْ فِي الْحُكْمِ، وفَسَادَ آرَائِهِمْ فِي سِيَاسَةِ بِلَادِهِمْ. فَإِذَا رَأَوْا النَّتِيْجَةَ وَشِيكَةَ الظُّهُورِ، شَغَلُوا بِلَادَهُمْ بِحَرْبِهِ يَخْلُقُونَ أَسْبَابَهَا وَدَوَاعِيهَا خَلْقًا، لِيَرْجُوا بِأَوْطَانِهِمْ فِيهَا زَجَّا؛ فَتُنْسِيهَا وَيَنْلَاتُ الْحَرْبِ وَأَخْدَانُهَا حَمَاقَةً أُولُئِكَ الْوَزَرَاءُ، وَتَشَفَّلَ الشَّعْبُ عَنْ مُحَاسِبَتِهِمْ عَلَى سُوءِ إِدَارَتِهِمْ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهِمْ.

وَرُبَّمَا نَجَمَ مِنْ اخْتِلَافِ الرَّأْيِ، وَتَبَيَّنَ وِجْهَاتُ النَّظَرِ، شَرُورُ وَآثَامُ، تُطْبِعُ بِالْمُلَاهِينِ الْوَادِعَةِ الْآمِنَةِ مِنَ الْأَفْرَادِ.

وَالْتَّخَالُفُ هُوَ مَصْدُرُ الْمُصَابِ، وَمَنْبَعُ الْخُطُوبِ، وَرَأْسُ الأَحْدَاثِ :

« لَوْلَا التَّخَالُفُ، لَمْ تَرَكُضْنَ - لَعَيْتُهَا -

خَيْلُكُمْ، وَلَمْ تُقْنَ أَرْمَاحُ وَأَسْيَافُ. »

وَلِهُذَا التَّخَالُفِ أَسْبَابٌ غَايَةٌ فِي التَّفَاهَةِ، وَإِنْ كَانَتْ تَائِجُهَا غَايَةٌ فِي الْخُطُورَةِ. فَقَدْ يَحْدُثُ أَنَّهُ يَبْيَنَا يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّ الصَّفِيرَ عَادَةً مُسْتَقْبَحَةً، وَرَذِيلَةً يَحْبُّ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا، يَرَى الْآخَرُ أَنَّ الصَّفِيرَ فَضِيلَةً يَحْبُّ احْتِرَامَهَا، وَتَشْجِيعَ النَّاسِ عَلَيْها !

وبيننا ثالثٌ يرى قطعةً من الخشب فيهم بحثاً هاماً ، يرى
 رابعٌ أن تلك الظرفة جديرةٌ أن تقدم طعمةً للنارِ !
 ويُفضلُ أحدُ الناسِ أن يرتدي الثوبَ الأبيضَ ، على حينِ يُفضلُ
 الآخرُ الثوبَ الأسودَ ، أو الأحمرَ ، أو الرماديَّ ، مثلاً !
 ويُؤثرُ أحدهُمُ الثيابَ التصيرَة أو الضيقةَ ؛ فينبئُ له من يُسْفِهُ
 رأيه ويُمتدحُ الثيابَ الضافيةَ أو الفضفاضةَ !
 ويرى بعضُهم أن الصناعةَ بالأزياءِ واجبةٌ ، فيناقضُه الثاني مُدَللاً على
 أنها خبيثةُ الشأنِ ، قليلةُ الخطيرِ !
 وأعلمُ — يا سيدى — أن حروبنا لا يعظمُ أمرُها ، ويشتددُ خطرُها ،
 فتأتى على الأخضرِ واليابسِ ، وتهلك الحرماتَ والتسلَ ، إلَّا إذا كانت
 ناشئةً من اختلافِ الآراءِ ، وتبادرُ وجهاتِ النظرِ .
 وكلما كان مصدرُ الخلافِ تافهاً حثيراً ؛ عظمَتِ العربُ ،
 واشتدَّ أوارُها ، وذَكَتْ نارُها ! »

٣ - بَنْيُ الْأَقْوِيَاءِ

ثُمَّ اسْتَأْفَتُ صَاهِلًا :

« وَرَبِّا اشْتَبَكَ مَلِكَانِ - فِي حَرَبٍ طَاحِنَةٍ - لَأَنْ كُلُّهُمَا يَرِيدُ أَنْ يَتَدَدَّى عَلَى مَلِكٍ ثَالِثٍ ، لِيَقْصِبَ بِلَادَهُ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ ، وَيَخْشَى كُلُّهُمَا أَنْ يَظْفَرَ صَاحِبُهُ بِهَذِهِ الْقُنْيَمَةِ ، فَيَقُولُ لَهُ بِالْعِرْضَادِ ، وَيَنْتَحِلُّ لَهُ مِنْ أَفَانِينِ التَّجَنِّبِ مَا يَدْفَعُهُ إِلَى مُحَارَبَتِهِ .

وَرَبِّا تَوَجَّسَ بَعْضُ الْمُلُوكِ شَرًّا مِنْ جَارِهِ ، وَتَوَهَّمَ أَنَّ الْجَارَ سَيَبْدُو هُوَ بِالْعُدُوِّانِ ؛ فَمَا إِنْ يَقِرُّ فِي نَفْسِهِ هَذَا الْوَهْمُ ، حَتَّى يَدْأُبَ بِالْحَرَبِ ؛ لِيَتَفَدَّى بِجَارِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ عَثَاءَ لَهُ !

وَقَدْ يَخْتَرِبُ الْمَلِكَانِ لِأَسْبَابٍ غَايَةٍ فِي الْفَرَاغَةِ ؛ فَيَعْتَدِي أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخِرِ ، حِينَ يَرَاهُ قَوِيًّا مُّسْتَكْمِلَ الْمُدْدَةِ ؛ فَيُنْفَسُ عَلَيْهِ قُوَّتُهُ ، وَيَسْعَى إِلَى تَقْلِيمِ أَظَافِرِهِ . وَرَبِّا اعْتَدَى عَلَيْهِ لَأَنَّهُ يَرَاهُ ضَعِيفًا ، لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْحَرَبِ ، وَلَا طَاقَةَ لَهُ بِمَغَارِبِهَا وَأَهْوَالِهَا . وَقَدْ يَخْتَرِبُانِ : لَأَنَّ أَحَدَهُمَا يَطْمَئِنُ فِي الْحَصُولِ عَلَى قَائِسٍ وَطُرْفِ ،

يجدُها عند مُنافِسِهِ ، ولا يجدُها في بلاده .
وَجْمَاعٌ القولِ أنَّ الْحَرَبَ قد تَنَشَّبَ بَيْنَ أَمْتَينَ : للحصولِ على شَيْءٍ ،
أو للحصولِ على مَا لَيْسَ بِشَيْءٍ !

وَرَبِّما ظَهَرَ الْوَبَأُ وَالْمُجَاجَةُ فِي أَحَدِ الْبَلَادِ . فَلَا يَكُادُ بَعْضُ الْجِرَانِ
يَرَاهُمَا قَدْ حَلَّا بِذَلِكَ الْبَلَدِ الْآمِنِ الْمُطْمَئِنِ فَأَزْهَقَاهُ ، وَيَرَى الْأَحزَابَ
بَيْنَ سُكَّانِهِ تَتَعَدَّدُ فَتَمْرُّقُهُ شَرٌّ مُمْرَّقٌ : حَتَّى يَجِدَ فِي ذَلِكَ مُسْوَغًا
لِلْبَغْيِ وَالْعُدُوانِ عَلَيْهِ ، وَحَافِزًا لِاغْتِصَابِهِ ، وَشَنَّ الْفَارَةَ عَلَى أَهْلِهِ .
وَرَبِّما بدأَ أَحَدُ الْمَلِكَيْنِ حَلِيمَهُ بِالْعُدُوانِ ، لِأَنَّهُ يَرِي أَنَّ يَضُمُّ
بعضَ مُدُنِهِ إِلَى مَمْلَكتِهِ ؛ لِيُوَسِّعَ مِنْ رُقْعَتِهِ ، وَيُزِيدَ فِي غِنَاهَا وَثَرَوَتِهَا .
وَإِذَا احْتَلَّ أَحَدُ الْمُلُوكِ بَلَدًا مِنَ الْبُلْدَانِ الْفَعِيلَةِ ، وَرَأَى أَهْلَهُ
رَازِحِينَ تَحْتَ أَعْبَاءِ الْفَقْرِ وَالْجَهَالَةِ : أَحَازَتْ لَهُ شَرَائِعُ الْحَضَارَةِ
وَالْإِنْصَافِ أَنْ يَقْتُلَ نَصْفَ الشَّعْبِ ، وَيَسْتَعْدِدَ النَّصْفَ الْآخَرَ :
لِيُحَضِّرَهُ وَيُخْرِجَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْهَمْجِيَّةِ ، إِلَى نُورِ
الْعِلْمِ وَالْمَدْنِيَّةِ ١

وَثَمَّةَ أَسْلُوبٌ طَرِيفٌ ، لَا يُلَامُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ ، وَسُنَّةٌ بَدِيعَةٌ

لا يرونها مُنايَةً للمرُوءةِ والشرفِ؛ وهي أن يستتجدَ أحدُ الملوكِ
بصاحبِه - إذا ضاقَ ذرعاً بعدوه - فيحالفه ذلكَ الملكُ على عدوه؛
حتى إذا تمَّ لهما الظفرُ، وطرأَ المدُّ منَ البلادِ، طمعَ النصيرُ في
حليفِه، واستولَى على بلادِه، وطردهُ بعدَ أن نصرَهُ، وربما قتلهُ
شَرَّ قتلةً، وحلَّ مكانَه في البلادِ، ولم يَرَ في ذلكَ إثماً ولا عاراً
وربما كانتْ وسائلُ التربُّي بين حليفَيْنِ : من أسبابِ الطمعِ،
وخلقِ الحروبِ الطاحنةِ . ومن العجيبِ أنَّ أواصرَ القرُبَى، كُلُّ ما
أحْكِمَتْ، أصْبَحَتْ مِنْ مُغرياتِ الحروبِ، وباعِشاتِ الشُّرورِ،
وجالباتِ البُغضَاءِ !»

٤ - الجنودُ المرْتَزَقةُ

وبعد أن سكتَ بُرْهَةً، استأْنَفَتْ صاهلاً :

«وما دامَ في الدُّنيا ضعيفٌ وقوىٌ، فلن تضعَ الحروبُ أوزارَها:
لأنَّ الشعوبَ الضعيفةَ - التي ضربَتْ عليها الذلةُ والمسكنةُ ، ومزقتْها
المجاعةُ، وطحَنَها الوَبَأُ - تُغْرِي بضعفِها الأممَ القويةَ، التي ترى فيها

لُقْمَةَ سائِفَةً ، يَسْهُلُ ازْدِرَادُهَا . وَمَا زَالَ الْفَقْرُ وَالْطَّعْمُ يُعِيرانِ الْحَرُوبَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ !

وَمَا دَامَتِ الشُّعُوبُ لَا تَسْتَغْنِي عَنِ الْعَرَبِ ، فَهِيَ - كَذَلِكَ - لَا تَسْتَغْنِي عَنِ أَدَوَاتِهَا . وَالْجَنْدِيُّ هُوَ قَوْمُهَا وَأَكْبَرُ عَنَادِهَا : فَلَا غَرَوْ إِذَا أَصْبَحَتْ مِهْنَةُ الْجَنْدِيِّ مِنْ أَشْرَفِ الْمِهَنِ وَأَكْرَمِهَا .

فَإِذَا أَرْدَتَ أَنْ تَعْرِفَ : مَنِ الْجَنْدِيُّ عِنْدَنَا ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ « يَاهُو » مَأْجُورٌ مَرْتَزِقٌ ، قَدْ وَقَفَ حَيَاتَهْ وَجَهَدَهْ وَقُوَّتَهْ عَلَى قَتْلِ إِخْوَانِهِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، مِنْ لَمْ يَتَهَدُوا عَلَيْهِ . وَلَمْ يَمْسِوهُ بُسُودُهْ . وَهُوَ لَا يَتَوَرَّعُ عَنْ قَتْلِهِمْ وَنَفْسُهُ رَافِيَّةٌ مُطْمَئِنَّةٌ !

وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا الْأَمْمَ تُؤَجِّرُ جُنُودَهَا لِلْأَمْمِ الْقَوْيَّةِ الْأُخْرَى :

لِتَسْاعِدَهَا فِي حَرُوبِهَا ، وَلِيُزِيدَ أَجْرُ الْجُنُودِ فِي خِزَانَةِ الدُّولَةِ **الْمُؤْجَرَةِ** .

٥ - مَآخِذُ السِّيدِ الْجَوَادِ

فَحَمَّلَمْ السِّيدُ الْجَوَادُ صَاهِلًا ، وَقَدْ اشْتَدَّ نُورُهُ مَا سَمِعَ :

«إن الأسباب التي تُسْعِنَ بها عُدُواً نَّكَمْ ، وبَغْيَ بَعْضِكُمْ عَلَى
بعض : قد شَكَّكْتُنِي فِي سَلَامَةِ عُقُولِكُمْ ، وَأَفْنَيْتُنِي بِخَطْلِ آرَائِكُمْ ،
وَفَسَادِ أَحْكَامِكُمْ . فَلَيْسَ مِنَ الْمُعْقُولِ أَنْ تَصْدُرَ أَمْثَالُ هَذِهِ الْحِمَاكَاتِ مِنْ
عُقُلَاءِ رَاشِدِينَ . وَأَخْلِقْ بِكُمْ أَنْ تَبْغُوا عَوَاقِبَ حَمَاقَتِكُمْ ، وَأَنْ تَحْصُدُوا
الْوَيْلَ ، بَعْدَ أَنْ يَذَرُوكُمْ بِدُورِ الْأَذَى وَالشَّقَاقِ !

وَهُمَا يَكُنُّ مِنْ أَمْرِكُمْ ، فَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ لَكُمْ أَنْكُمْ ضِيَافُ
الْبَنْيَةِ ، وَفِي هَذَا الْضَعْفِ مَا يَخْضِدُ مِنْ شَوْكَتِكُمْ ، وَيُقْلِلُ مِنْ
أَذْيَاتِكُمْ . وَمَا دُمْتُمْ قَدْ وَصَلْتُمْ فِي الْحِمَاكَةِ إِلَى هَذَا الْحَدَّ ، وَبِلِقَتُمْ
مِنَ الْبَغْيِ هَذَا الْمَدَى ، فَإِنَّ مِنَ الْبَرِّ بِكُمْ أَنْ تَخْلُقُوا – هَكُذا –
ضِيَافًا عَجَزَةً !

على أَنِّي آخَذُ عَلَيْكَ أَنْكَ تَقْصُّ عَلَى مَا لَا سَبِيلَ إِلَى فَهِيهِ .
وَأَرَاكَ قَدْ أَسْرَفْتَ وَغَلَوْتَ – فِي تَصْوِيرِ التَّابِعِ الْمُفَرْعَةِ الَّتِي نَجَمَتْ
عَنْ حُرُوبِكُمُ الْقَاسِيَةِ الشَّعْوَاءِ – وَجَاؤْتَ الْفَصَدَّ حِنْ ذَكْرَتَ لِي عَدَدَ
الْفَسَاحِلَا الَّذِينَ هَلَكُوا فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ .

وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُسْرِفًا فِي الْمُبَالَغَةِ ، إِنْ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ تُخْبِرُنِي
بِمَا لَا أَفْهُمُهُ .

إِنَّ فَالَّهَ مُسْطَحٌ ، وَوَجْهُكَ مُسْتَوٍ ، فَكِيفَ يَعْتَرِبُ مِثْلُكَ ؟
وَبِأَى وَسِيلَةٍ يَعْضُ بِعَصْكُمْ بِعْضًا ، وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْيَابٌ حَادَّةٌ ؟
أَمَّا الْمَخَالِبُ — الْخَلْفِيَّةُ وَالْأَمَامِيَّةُ — الَّتِي فِي أَرْجُلِكُمْ ، فَهُنَّ
تَصْبِيرَةٌ ضَعِيفَةٌ ، لَا تَقْوَى عَلَى إِعْلَاقِ الْأَذْيَى بِكَائِنٍ كَانَ . وَفِي قَدْرَةِ
وَاحِدٍ فَرَدٍ مِنْ « الْيَاهُو » عِنْدَنَا ، أَنْ يُمْزِقَ بِأَنْيَابِهِ وَمَخَالِبِهِ عَشْرَةَ
مِنْ أَمْثَالِكَ !

٦ - أَسَالِيبُ الْحَرْبِ

فَأَدْرَكْتُ أَنَّ السِّيدَ لَمْ يَفْهَمْ حَقِيقَةَ مَا أَعْنِيهِ ، وَلَمْ أَتَمَالِكْ أَنْ أَهْرُزَ
رَأْسِي مُبْتَسِمًا لِهُنْدَا الْخَلْطِ الَّذِي بَدَا مِنْهُ .

وَكُنْتُ أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ فُنُونِ الْحَرْبِ ؛ فَانْطَلَقْتُ أَصِيفُ
مَا عَلِمْتُهُ مِنْ أَسَالِيبِهَا ، وَأَنْصَلُ مَا أَجْمَلْتُهُ عَنْهَا . وَعَدَّدْتُ
أَدْوَاتِ الْهَلَاثِ وَوَسَائِلَ التَّخْرِيبِ فِي بَلَادِنَا ؛ فَوَصَّفْتُ الْمَدَافِعَ

الخفيفة الصغيرة ، والكبيرة الضخمة التي تدك الحصون المنيعة دكا ، كما وصفت له البنادق المختلفة الأنواع والأحجام ، والعدارات والبارود ، والسيوف ، والحراب ، والقناابل : وما إلى ذلك من أدوات التدمير والتخرير .



ثم ذكرت كيف نحاصر المدن والبلدان : وكيف تتحمّل الخنادق اقتحاما : وكيف تهزم في الهجوم والدفاع ، وإنما طرق العدو ، ورفع الألغام التي يضعها العدو في طريقنا ؛ وكيف نفرق

الشُّفَنَ ، وَالْبَوَارِجَ الْحَرِيَّةَ الْهَائِلَةَ – الَّتِي تَسْعُ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا أَلْفَ رَجُلٍ –
بَكْلٌ مِنْ فِيهَا مِنْ جَنْدِي وَمُلَاحِينَ !

وَأَبَدَتْ لَهُ كَيْفَ تُمْطِرُهَا مَدَافِعُنَا الضَّخْمَةُ وَابْلًا مِنَ الْقَذَافِ
النَّارِيَّةِ ؛ فَتُلْهِبُهَا وَتُغَرِّقُهَا فِي مِيَاهِ الْبَحْرِ . وَكَيْفَ خَسِرَنَا فِي إِحْدَى
حَرَوِينَا عِشْرِينَ أَلْفَ جَنْدِيَّ ، وَقُتِلَ مِنْ أَعْدَائِنَا مُثُلُّ هَذَا الْقَدْرِ .
وَوَصَفَتْ لَهُ هَوْلَ الْمَعَارِكِ الْعَرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُثَارُ غُبَارُهَا ، وَيَعْلُو
دُخَانُهَا ، وَتَنَدَّلُعُ أَلْسِنَةُ النَّارِ فِيهَا ، وَتَبْرُقُ بُرُوقُهَا ، وَتَقْصِفُ مَدَافِعُهَا ؛
فَتَغْطِي جَلْجَلَهَا وَدَوِيهَا عَلَى أَئِينِ الْجَرَحَى وَصَيْحَاتِ الْمُتَقَاتِلِينَ ،
وَتَحْجُبُ السُّحُبَ الْمُتَكَاثِفَةَ الصَّفِيقَةَ – مِنَ الْغُبَارِ وَالْدُّخَانِ – أَشْلَاءَ
الْقَتْلَى الْمُتَنَاثِرَةَ فِي الْهَوَاءِ ، وَدَمَاءُهُمُ الْمُهْرَاقَةَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَجَهَنَّمُ الَّتِي
وَطَعَّنَهَا الْأَقْدَامُ . فَإِذَا انْتَهَتِ الْمَعرَكَةُ ، تَرَكَنَا أَشْلَاءَ الْقَتْلَى عَنِيمَةً
سَهْلَةً لِلْذَّئَابِ ، وَطَعَاماً سَائِفَا لِسِبَاعِ الطَّيْرِ ، وَشَفَلَنَا عَنْهُمُ السَّلْبُ وَالنَّهْبُ
وَالتَّنَكِيلُ بِالْأَحْيَاءِ مِنَ الْأَعْدَاءِ .

وَامْتَلَأَتْ قَسْى فَخْرًا وَحَمَاسَةً بِمَا أَحْرَزَتْهُ بِلَادِي مِنْ ظَفَرٍ عَلَى

أعدائهم في أمثال هذه الغروب : فذكرتُ للسيد الجواد - مدللاً تباعاً -
أنني رأيتُ جنودَ بلادي - ذاتَ مرّة - يتسقون مائةً من أعدائهم
في الهواء ، فتطايرُ أشلاؤهم في الجوّ ، ثم تَحَدَّرُ هاوِيَةً على الأرضِ
- كَمَا تَهُويِّ كِسْفٌ مِنَ السُّحبِ - أمامَ النَّظَارِ !

٧ - جَزْعُ الْجَوَادِ

وَهَمَّتُ بِمُتَابَعَةِ الْحَدِيثِ . وَلَكِنَّ السَّيِّدَ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَسْمَعَ مِنِي
أَكْثَرَ مَا سَمِعَ : فَأَمْرَنِي أَنْ أَكُفَّ عَنِ الْكَلَامِ ، وَأَلُوذَ بِالصَّمْتِ .
وَحَمَّمَ صَاهِلاً :

« مَهِ إِمَهِ ! فَقَدْ سَكَنْتَ سَمِعِي بِهَذَا الْهَذَرِ الْمُقْوَتِ ! وَكَشَفْتَ
لِي مِنْ لُؤُمِ طِبَاعِكُمْ مَا لَمْ يَكُنْ لِي خَطَرَ لِي عَلَى بَالِّ . وَإِنِّي لِأَغْبَبُ
مِنْ قُدْرَتِكُمْ عَلَى اقْتِرَافِ الْآثَامِ وَالشُّرُورِ ، مَعَ ضُعْفِكُمْ وَعَجْزِكُمْ .
وَلَقَدْ كُنْتُ أَمْقُتُ « الْيَاهُو » - لخِيَّثِهِ وَلَوْمِهِ - وَلَمْ أَكُنْ أَحْسَبْهُ
يَصِيلُ إِلَى هَذَا الدَّرْكِ مِنَ الْإِسْفَافِ وَالدَّنَاءَةِ . »

وَالْحَقُّ أَنَّ أَهَادِيَ قد أَزَعَجَتِ السَّيِّدَ الْجَوَادَ ، وَبَلَّبَتْ حَاطِرَهُ ،

وزادته حنقاً وسخطاً على «الياهو» في جميع أنحاء الأرض . وظهرت الحيرة والارتباك على سيماء ، وأصبح في حال لا توصف من السخط والآلم . وكان يخشى أن تألف أذناه أمثال هذه الأحاديث ، فتمرن عليها ، ولا تثبت — بطول الألفة — أن تستسيغها ، وتهون من شأنها ، وتقلل من خطرها .

وكان — على بغضيه دواب «الياهو» في بلاده — لا يؤاخذها بما تقرفه من آثام؛ لأنها قد حرمته العقل . ولم يكن يقسُ عليها في معاملتها . أما وقد رأى دابة — مثلـي — من دواب «الياهو» تخر بالعقل والحكمة والسداد ، ثم تزهد بأمثال هذه النعائص والمخزيات ، فإن سخطه وغيظه قد بلغا أشدّها؛ لأنه يرى أن العقل الفاسد شرّ وبيـل ، وأن من يوجـه مواجهـه وتقـيـره إلى اقـراف مثلـ هذه الدنـايا والأـثـام ، هو شرّ مـن حـرم نـعـمة العـقل ، من الـوحـوش الضـارـية ، والـدواـب السـائـمة .

ويبدو لي أنه قد أدرك أن عقلـنا — إذا صـحـ عندـه أنـ لنا عـقـلاً — قد تـماـزـختـه غـرـائـبـ ، وقوـى قـسـيـةـ خـيـثـةـ؛ فـقـلـبتـ آهـواـهـا عـلـيـهـ ،

وَصَرَفْتَهُ إِلَى الشَّرِّ وَالْإِثْمِ؛ فَأَصْبَحَ كَالْمَاءُ الْمَائِجُ الْمُضطَرِبُ: يُكَشِّفُ
عَنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ مُشَوَّهًا؛ فَلَا يُعْطِيكَ فَكْرَةً صَحِيحَةً عَنْهَا، بَلْ
يُعْطِيكَ صُورَةً خَاطِئَةً تُضِلُّكَ! ا
وَعِنْدَهُ أَنَّ الْجَهْلَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الْمَعَارِفِ الْمُضطَرِبَةِ الْزَّانِيَةِ.

٨ - ضَحَّاكُوا الْقَانُونِ

وَاسْتَأْنَفَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ صَاهِلًا:
«لَقَدْ حَدَّثْنِي - عِمَّا تُسْمُونَهُ الْحَرَبَ - أَحَادِيثَ شَتَّى مُسْتَفِيَضَةً.
وَلَكِنَّكَ لَمْ تَحْدَثْنِي عِمَّا عَنِّيَّتَهُ بِقَوْلِكَ - فِي إِحْدَى مُحَادَثَاتِكَ -
إِنَّ بَعْضَ «الْيَاهُو» الَّذِينَ صَحِبُوكَ فِي سَفِينَتِكَ، كَانُوا هَارِبِينَ مِنَ
الْقَضَاءِ، وَإِنَّ الْقَانُونَ قَدْ أَوْقَعَهُمْ فِي تِلْكَ الْمَاوِيَةِ.

وَلَسْتُ أَدْرِي مَاذَا تَعْنِيهِ بِهَذَا الْكَلَامِ؟ فَإِنَّكَ قَدْ حَدَّثْنِي أَنَّ
الْقَانُونَ قَدْ وَضَعْتُمُوهُ لِلدِّفاعِ عَنْكُمْ جَمِيعًا. فَكَيْفَ جَنَّ هَذَا النَّظَامُ
الصَّالِحُ عَلَيْكُمْ، وَشَتَّكُمْ فِي أَقْاصِي الْأَرْضِ؟
وَمَا حَاجَةُ الْعَلَاءِ الرَّاشِدِينَ إِلَى قَانُونٍ، بَعْدَ أَنْ عَرَفُوكُمُ الْعُقْلُ

طريق السداد ، وطريق الغي ؛ وأنار لهم سبيل المداية ، وسبيل
الضلال ، وبصرهم بما يجدر بهم أن يتبعوه ، أو يتحاموا ؟ » .
فأجبته صاحلا :

« إنني لم أتفقه في التشريع ، ولم آخذ من القانون بحظٍ كبيرٍ
من الفهم والدرس ؛ وإن كانت صلتي بعض المحامين — مِنْ
تصدُّوا للدفاع عنِي في بعض القضايا لرفع ما لحقني من جُور وحيف —
قد هيأت لي فرصة لإذراك طرفِي من المعرف الأوالية التي تُلَبِّي
بعض رغباتِك في هذا الباب .

إنَّ في بلادِنا جمهرةً من الرجال ، يتعلّمون — منذ حدايَتهم — فنونَ
الجَدَلِ وضرُوب المناقشة والهجاج : يُدرِّبون على إقامة البرهانِ
— في عبارات واضحة خلابة — على أن الأبيضَ أسودُ ، والأسودَ أبيضُ .

وهم يُدَلِّلون على ذلك لقاء ما يُعْطُونَه من أجر ! »
ثم ضربتُ للسيدِ الجواب — على ذلك — مثلاً يفسّرُ له ما أريدُ ، وهو :
« إذا طَمِعَ جارِي في بَقَرَتِي ، وأراد أن يستحوذَ عليها ، فهو على
يقينٍ من أنه لن يَعْدَمْ حيلةً يتحولُها لِتَنْيَلِ وَطَرِه ، وقَهَاءِ مَارِيه .

وهو لا بدّ واجد من رجال القانون من يقِيم له الدليل على أنَّ
من حقه أن يستلْبَنِي هذه البقرة. وثمة يزوج بي إلى القضاء، ويضطرُّني
إلى توكيلِ محامٍ عنِّي؛ ليدافعَ عنَّي حقاً دفاعاً قانونياً ترضى به المحكمةُ،
ويُكبدُّني منَ المالِ ما لا طاقةَ لي به . »



ثمَّ حمَّمتُ للسيدِ
الجوادِ صاهلاً :
« أمَّا المحكمةُ، فهى
— في حقيقتها — جمَّهُرَةُ
منَ القضاةِ، أَكْسَبَهُمُ
القانونُ حقَّ الفصلِ في
جميعِ المنازَعاتِ التي
تتشَبَّهُ بينَ سَوَادِ النَّاسِ
— خاصَّةً وعامَّةً — ولهمُ
أنْ يَحْكُمُوا في القضايا

المَدِينيَّةِ والجِنائِيَّةِ على السَّواءِ. ومَصْفَوَةٌ مُختارةٌ منْ أَنْبِيلِ المُشَرِّعَينَ،

وأقوَّمُهُمْ سُلُوكًا ، وأوفِرُهُمْ نِزاهَةً ، وأزجِحُهُمْ عَقْلًا . وَأَكْثُرُهُمْ مِنْ أَنْضَجَتْهُمُ الشِّيخُوخَةُ ، وَجَهَدَتْهُمْ تجَارِبُ الْمِهْنَةِ وَشُوُنُهَا . وَهُمْ مُضطَرُّونَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا يَسْمَعُونَهُ ، وَلَيْسَ فِي وُسْعِهِمْ أَنْ يُغَيِّرُوا فِي الْوَقَائِعِ الَّتِي تُعْرَضُ أَمَانَهُمْ ، مِمَّا كَانَ ظَالِمَةً مُلْفَقةً .

وَهُمْ مِنْ أَعْلَى أَمْثَالِ الزَّاهِةِ : لَا يَنْحِرِفُونَ عَنِ الشَّرَفِ ، وَلَا يَحِيدُونَ عَنِ الْوَاجِبِ . وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ يَمْيِنُهُمْ رَأْسَى يَرْفُضُونَ هَدَايَا وَتَقَائِيسَ نَادِرَةً مِنَ الْخُصُومِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى حَقٍّ فِي مُسَازَاعَتِهِمْ ، حَتَّى لَا يَمْسُوا شَرَفَ الْقَضَاءِ .

وَمِنَ الْمُبَادِئِ الْمُقَرَّرَةِ الَّتِي يَنْتَهِيُّهَا الْقُضَاءُ ، أَنْ يَعْتَرِفُوا بِنُصُوصِ الْأَحْكَامِ السَّابِقَةِ – أَيَّا كَانَتْ قِيمَتُهَا – وَيَعْدُونَهَا مِنَ النُّصُوصِ الْمُقدَّسَةِ ، وَالْأَسَانِيدِ الْوَثِيقَةِ ، الَّتِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ .

٩ - أَسْلُوبُ الدِّفاع

ثُمَّ سَكَتَ بُرْزَهَةً ، وَاسْتَأْنَقَتْ صَاهِلًا :

« وَلِلدِّفاعِ أَسْلُوبٌ عَجِيبٌ فِي إِطَالَةِ الْحِوارِ ، وَقُلْ الْمُحَااجَةُ مِنْ

وِجْهَةٌ إِلَى أُخْرَى ، وَالتَّعْرُضُ لِلْفُرُوعِ وَالْحَاشِيَّ ، وَحُبُّ الْإِنْسِتَرَادِ
إِلَى حَدٍ يُضْجِرُ السَّامِعَ وَيُسْتِمِعُ .
وَلَا وُضُّحَّ لَكَ مَا أَعْنِيهِ ، مُتَخَذِّداً مِنْ مِثَالِ الْبَقَرَةِ - الَّذِي ذَكَرْتُهُ
لَكَ - مِصْدَاقَ ذَلِكَ :

يَتَحَاشَى الدِّفَاعُ - جَهَدَهُ - أَنْ يَدْخُلَ فِي صَمِيمِ الْمَوْضِيْعِ ، كَمَا أَخْبَرْتُكُ
آقِفَا . وَهُوَ لَا يُعْنِي بِسَمَاعِ الْحُجَّاجِ الَّتِي يُذْلِلُ بِهَا مُحَايِّيَ الْتَّدْلِيلِ
عَلَى حَقِّ فِي امْتِلَاكِ الْبَقَرَةِ ، بَلْ يَتَسَلَّلُ إِلَى الْهَوَامِشِ وَالْحَاشِيَّ .
يَتَسَاءَلُ لِيَتَعَرَّفَ لَوْنَ الْبَقَرَةِ : أَهِي سُودَاءُ أَمْ حَمَراءُ ؟ وَقَرَّنَاهَا
كِيفَ هُمَا : قَصِيرَانِ أَمْ طَوِيلَانِ ؟ وَالْحَقْلُ الَّذِي تَرَعَاهُ : مَا خَطْبُهُ ؟
أَهُو مُسْتَدِيرٌ أَمْ مُرْبَعٌ ؟ وَالْبَقَرَةُ أَينَ تُحَلَّبُ : فِي الْمَنْزِلِ أَمْ فِي
خَارِجِهِ ؟ وَكِيَانُهَا : قَوِيَّةٌ أَمْ ضَعِيفَةٌ ؟ وَصِحَّتُهَا : عُرْضَةٌ لِلْمَرْضِ أَمْ سَلِيمَةٌ
لَا تُؤْثِرُ فِيهَا الْجَرَاثِيمُ ؟

وَهَكُذا إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْأَسْلَةِ الَّتِي يَطْلُولُ عَدُّهَا !

فَإِذَا انْتَهَى مُحَايِّي الدِّفَاعِ مِنْ حِجَاجِهِ وَأَدِلَّتِهِ ، أَجْلَتِ الْقَضِيَّةُ إِلَى
أَمْدِي بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ . ثُمَّ لَا تَرَالُ ثُوَّجَلُ مِنْ زَمِنٍ إِلَى زَمِنٍ ، حَتَّى

ينفذ صبر المتقاضين . وربما تأخر الحكم فيها إلى عشر سنين ، أو عشرین ، أو ثلثين في بعض الأحيان !

وللقضاء قانون لا يحيدون عنه قيداً أنملاً . وقد كتب هذا القانون بأسلوب يعيشه ، لا يفهمه غيرهم . ولا يزال المشرعون يضيفون نصوصاً جديدة إلى نصوصه القديمة ؛ فيزيدون في تعقيد المسائل ، رغبة في توخي العدالة وتحري الدقة .

وقد يطول أمد البحث إلى ثلثين عاماً كاملة ، ليحكم - لي أو على - بإن الأرض التي تركها لي أحداً من ذي ستة أجيال متعاقبة ملك لي ، أو ملك لرجل أجنبي ولد على بعد مائة من الأميال من الأرض التي ورثتها من أسلاف !

أما الجرائم التي يقترفها بعض الجناة ضد الدولة ، فإن القضاء يحصل في أمرها سريعاً . وهي تنتهي بقتل العاجي ، أو تبرئته ، حسب نصوص القوانين .

فقطاعنى السيد الججاد صاهلا:

«إِنَّ مِنَ الْحَيْثِ وَالْعَنْ أَنْ يَفْلُّ الْمُشْرِّعُونَ – وَهُمْ عَلَىٰ مَا وَصَّفَتْ
 مِنْ رَجَاحَةٍ وَحَزْمٍ – عَنْ تَوْجِيهِ الْجُنَاحِ إِلَى طُرُقِ الْخَيْرِ، بِالْتَّصْبِيحَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ. وَمَا كَانَ أَجْدَرَهُمْ أَنْ يَوْجِهُوا عَبْرِيَّتَهُمْ إِلَى تَهْذِيبِ
 أُولَئِكَ الْجُنَاحَاتِ، وَأَنْ يُسْلِطُوا قُوَّاهُمُ النُّفُسِيَّةَ عَلَيْهِمْ، وَيُلْقَنُوهُمْ – مِنْ
 دُرُوسِ الْحِكْمَةِ وَالْفَضْلَةِ – مَا يُرِيدُهُمْ وَيَهْدِي قُلُوبَهُمْ إِلَى مُطْمَئِنَّ
 الْبَرِّ، وَمَجَّدَةِ الصَّوَابِ . »

الفصل السادس

١ - خَطْرُ الْمَالِ

ولم يستطع السيد الجواد أن يدرك الأسباب التي تُنسى أولئك العشرين تلك القاية التالية التي تعود على العالم بالغير العيّم . ولم يفهم - كذلك - ما أغنيته بكلمة الآخر الذي يدفعه المتقاضي لمحامي . فاضطررت إلى تفصيل ما أجملت ، وشرحته له معنى النقد ، وكيف يُصنع ؛ وكيف تتفاوت قيم المعادن التي نسّكتها ؛ وكيف نسمّيها - بعد ذلك - مالا ؛ وكيف نشتري بها ما نحتاج إليه من فاخر الثياب ، والرياش ، والقصور ، والدساير ، والأطعمة الشهية ، والأشربة اللذيدة ؛ وكيف يُوفّر لنا المال أسباب السرور والمتع وجاليات البهجة والأنس . فلا غرّ إذا تكلّبنا - عشر « اليهو » - على أدخاره ، وجمعه بكل وسيلة ، لنسفّق منه على مباهجنا ، ونُيسّر به أسباب رفاهيتنا .

وحدثه — فيما حدثه — عما يتمتع به الفن من ثمار القراءة، ونتائج جهودهم، وكيف يكدر الفقير في عمل مرهق؛ ليتمتع الفن ويرفه عنه، ثم لا يلقى على جهوده المضنية إلا أجرًا تافهاً حقيراً.

واشتربت — للسيد الجود — في الشرح والتفصيل؛ ولكنه لم يستطع أن يفهم حقيقة ما أعنيه، فقاطعني صاهلاً: «أليست الأرض كلها ملئها شائعاً بين الدواب والحيوان جميعاً؟ أليس لهم الحق في كل ما تخرجه من غلة وثمار؟ ألا يأكلون منها ما يشاءون؟ فإذا لم يكن ذلك كذلك، أليس من الحق أن يكون أكثركم تعباً، هو أوفركم من خيراتها حظاً؟» ثم استأنفت كلامه صاهلاً:

«ولكن خبرني: ماذا تعنى بالأطعمة والأشربة الفاخرة؟ وما هي ألوانها المختلفة التي أصبحت ضرورية لكم؟» فذكرت له من لذائذ الأطعمة المُرتقيات — على اختلاف ألوانها — ما أدهشه وحير عقله.

٢ - مَسَاوِيُّ الْحَضَارَةِ

وَذَكَرْتُ لَهُ كَيْفَ يَقْتَنُ طُهَاتُنَا فِي تَنْسِيقِ الْأَوَانِ الطَّعَامِ ، وَابْتِكَارِ كُلِّ عَجَبٍ مِنْهَا ؛ وَكَيْفَ يُعَالِجُونَ اللَّحْمَ بِالتَّوَابِلِ ، لِتَزِيدَ فِي شَهِيَّةِ آكِلِهِ ؛ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ الْأَشْرَبَةَ الْفَاخِرَةَ ، وَيَجْلِبُونَ مِنْهَا مَا لَا يَجِدُونَهُ فِي بِلَادِهِ ، وَلَوْ كَانَتْ فِي أَقْاصِي الْأَرْضِ .

وَحَدَّثْتُهُ عَنِ السُّفُنِ الَّتِي تَمْخُرُ فِي الْبَحَارِ ، وَتَبْحَرُ إِلَى الْبُلْدَانِ النَّافِيَّةِ ، ثُمَّ تَرُوْدُ إِلَيْنَا مُمَقَّلَةً بِالْأَشْرَبَةِ الْفَاخِرَةِ .

فَدَهِشَ السَّيِّدُ مَا سَمِعَ ، وَحَمْجَمَ صَاهِلًا :

« إِنِّي بِلَادِكُمْ غَايَةٌ فِي التَّسَاسَةِ ؛ لَأَنَّ مَحْصُولَ أَرْضِهَا لَا يَكْفِي أَهْلِيهَا . وَإِنِّي لَأَعْجَبُ : كَيْفَ تُضْطَرُونَ إِلَى اقْتِحَامِ الْبَحَارِ الشَّاسِعَةِ ، لِتَحْصُلُوا عَلَى شَرَابِكُمْ ؟ أَلِيسُ فِي بِلَادِكُمْ مِنِ الْمَاءِ مَا يَكْفِيكُمْ ؟ »

فَأُجْبِيَتُهُ صَاهِلًا :

« إِنِّي مَحْصُولَ بِلَادِي — مِنَ الْفِدَاءِ — يَكْفِي ثَلَاثَةَ أُمَّالٍ قَاطِنِيهَا ، أَمَا الْمَاءَ ، فَهُوَ عِنْدَنَا كَثِيرٌ مُوفُورٌ ؛ وَلَكِنَّ حَاجَةَ أَكْثَرِ الْأَهْلِينَ

شَدِيدَةً إِلَى الْأَشْرِبَةِ الْمُرْتَقِيَّةِ الْفَاخِرَةِ ، الَّتِي يَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ عَصِيرِ
الْفَاكِهَةِ وَبَعْضِ الْحُبُوبِ ؛ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي أَعْنِيَهَا . وَقَدْ أَصْبَحَتْ
لِسَوَادِنَا مِنَ الْفَسْرُورِيَّاتِ . وَنَحْنُ نُزِيلُ أَكْبَرَ قَسْمٍ مِنْ مَحْصُولِ
بَلَادِنَا إِلَى الْبُلْدَانِ الْأُخْرَى ، وَنَسْتَرِي بِهِ مِنْهَا تَلْكَ الْأَشْرِبَةَ الْمُخْتَلِفَةَ
وَمَا إِلَيْهَا مِنْ أَدْوَاءِ الْحِضَارَةِ الَّتِي تَقْسِدُ صِحَّتَنَا ، وَتُعَرِّضُنَا لِكَثِيرٍ مِنَ
الْأَمْرَاضِ الْفَتَّاكَةِ . »

ثُمَّ اسْتَأْنَقْتُ صَاهِلًا :

« وَلَعَلَّكَ – يَا سِيدِي – تُدْرِكُ الْآنَ الْمُرّ فِي فَسَادِ جَمِيعِهِ
كَبِيرٌ مِنَ الْأَهْلِينَ الَّذِينَ أَفْوَا الْبَطَالَةَ وَالصَّغْلَكَةَ ، فَانْتَشَرُوا
يَعِيشُونَ فِي الْبَلَادِ فَسَادًا ، وَامْتَلَأَتِ السُّجُونُ بِالْمُصْوَصِ وَالْفَاشِينَ ،
وَالْخَوَافِهِ وَالْمُدَاهِنِينَ ، وَشُهُودِ الزُّورِ وَالْمُلْفَقِينَ ، وَالْكَذَابِينَ وَالْهَارِجِينَ
وَالْمُبْطِلِينَ . وَمِنْ هُؤُلَاءِ نَشَأَتِ الْأَفْكَارُ الزَّانِفَةُ ، وَالْمَذَاهِبُ الشَّاذَةُ
الَّتِي يُشْتَبِهُ أَرْذَالُ الْمُؤْلِفِينَ وَأَوْشَابِهِمْ – فِي أَسْفَارِهِمْ – لِيَنْصُرُوا بِاطِّلاً ،
أَوْ يُزْهِقُوا حَقًا . »

٣ - جُنُونُ التَّرَفِ

وَلْيُمَثِّلِ الْقَارِئُ لِنَفْسِهِ مَقْدَارَ مَا عَانَيْتُ - مِنَ الْجَهَدِ - فِي التَّعْبِيرِ
عَنْ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ ، الَّتِي لَا عَهْدَ لِلْسَّيِّدِ الْجَوَادِ يَسْمَاعُ شَيْءًا مِنْهَا .



وَقَدْ حَدَّثَنَا أَنْ فِي بَلَادِنَا - مِنْ لَذَائِذِ الْأَشْرَبَةِ الصَّالِحَةِ - مَا يُفَضِّلُنَا
عَنِ الْأَشْرَبَةِ الضَّارَّةِ ، الَّتِي تَجْلِبُهَا مِنْ أَقْصَى الْبَلَادِ . وَلَكِنَّ تَرَفَّ
الْحُضْرَةِ طَالَّمَا جَرَّ الْأَهْلِينَ إِلَى التَّهَافُّ عَلَى هَذِهِ الْمُهْلِكَاتِ الْقَاتِلَةِ ،

التي تذهب بقولهم، وتُضفي من حواسهم، وتملاً أخلاقهم بالخيالات والأوهام الجنونية، ثم تسلّمهم - آخر الأمر - إلى نوم عميق.

ثم استيقظت صاحلًا :

« ومن المحقق الذي لا يمتري في صحته كائناً كان، أن شارب هذه المهلكات يستيقظ من سباته (نومه) العميق مخذولًا كاسفًا بالبال، مشردًا فاينكراً، حائرًا للب، مجدهودًا للأعصاب . ويُصبح بعد زمن قصير - نهزة الأمراض ، ونهبة الآلام والعلل ، ويعاني - من متاعب الحياة وأسقامها - ما يُحِبُ إليه الموت في كل ساعة . »

ثم دعاني الحديث إلى الاستطراد؛ فذَكرت له ما ينتفع به الأغنياء من ترَف ، وما يُعانيه سواد الشعب من مشقة وجهد . ومثلت له بنفسى ؟ قلت له :

« إنني أحذنني - إذا جلست في بيتي - قد جهدت جميرة كبيرة من الصناع والعمال ، حتى ظفرت بما أتعم به من لباس وأثاث .

فَيَانَ ثِيابِيَّ الَّتِي أَرْتَدَهَا ، لَمْ تَصِلْ إِلَى إِلَّا بَعْدَ أَنْ اشْتَرَكَ فِي
إِعْدَادِهَا نَحْوُ مائَةٍ مِنَ الصُّنْاعَ ، وَالدارَ الَّتِي أَسْكَنَهَا قَدْ اشْتَرَكَتْ
فِي بِنَائِهَا وَتَأْثِيرِهَا أَلْفُ يَدٍ . أَمَّا ثِيابُ زَوْجَتِي ، فَقَدْ تَعاَوَنَ عَلَى صُنْعِهَا
خَمْسَةُ أَمْتَالٍ هَذَا الْعَدْدُ ، أَوْ سِتَّةُ أَمْتَالٍ ! »

٤ - عَوَاقِبُ الشَّرِّ

وَأَبَى عَلَى السَّيِّدِ الْجَوَادِ أَنْ أَسْتَرِيلَ فِي حَدِيثِي ، حِينَ رَأَى أَهْمُمُ
بِوْصِفِ الْأَطْبَاءِ وَالْمُمْرَضِينَ الَّذِينَ وَقَوْا جُهُودَهُمْ عَلَى الْعِنَاءِ بِالْمَرْضِ ،
وَكَنْتُ قَدْ حَدَّثْتُهُ – مِنْ قَبْلٍ – أَنْ جَمِيعَهُمْ مِنَ الْمَلَاحِينَ الَّذِينَ
صَحَّبُونِي فِي رِحْلَتِي قَدْ أَهْلَكَتْهُمُ الْأَمْرَاضُ الْفَتَاكَةُ .
وَقَدْ حَارَ السَّيِّدُ فِي فَهْمِ مَا أَغْنَيَهُ بِكَامِةِ الْمَرْضِ . وَقَدْ شَرَحْتُ
لَهُ مَدْلُولَ هَذِهِ الْكَلْمَةِ ، فَلَمْ يَفْهَمْهَا إِلَّا بَعْدَ عَنَاءَ طَوِيلٍ .
فَحَمَّلَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ صَاهِلاً :

«إِنَّا نُدْرِكُ أَنَّ الْجِيَادَ الَّتِي تَدْنُو مِنَ الْأَجَلِ ، تَشْعُرُ – قَبْلَ
اِنْتِهَاءِ حَيَاتِهَا بِأَيَّامٍ – بِشَيْءٍ مِنَ الْفُسْفُرِ وَالشَّاقُلِ ، ثُمَّ تَمُوتُ . وَرُبَّمَا

جُرِحَ أَحَدُ الْجِيادِ مَرَّةً ، فَشَعَرَ بِالآلامِ الْجُرْحِ . أَمَا فِيمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَسْنَا نَعْرِفُ شَيْئاً مِنَ الْأَسْقَامِ وَالْعِلَلِ الَّتِي تَصِفُهَا لِي .
 لَقَدْ خَلَقْنَا أَصْحَاهَ ، مَوْفُورِيَ الْقُوَّةِ ، وَلَسْنَا نَسْمَحُ لِأَنْقِسِنَا أَنْ تُعَرِّضَ أَجْسَامَنَا لِمَثَلِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ عِلَلٍ .
 وَلَسْتُ أَذْرِي : لِمَ تَسْمَحُونَ لِأَنْقِسِكُمْ أَنْ تَتَعَذَّرُوا بِهَذِهِ الْأَمْرَاضِ ،
 وَتُسْلِمُوا أَجْوَافَكُمْ إِلَيْهَا رَاضِينَ مُخْتَارِينَ ! هُنْدَا عَبْثٌ ، فَكِيفَ
 ارْتَضَيْتُمُوهُ ؟

فَأَجْبَتْهُ صَاهِلًا :

« إِنَّ الشَّرَّهَ دَائِمًا هُوَ مَصْدُرُ النَّكَباتِ ، وَبَاعِثُ الشَّرُودِ ، وَأَسْبُ
 الْأَمْرَاضِ ; فَإِنَّا نَخْلِطُ فِي مَا كُلِّنَا وَمُشَرِّبِنَا ، وَنُدْخِلُ فِي مَعِدَّتِنَا
 مَا يُؤَذِّيَهَا مِنَ الْأَطْبَعَةِ الْمُخْتَلِفةِ الْأَلْوَانِ الَّتِي لَا يُوَلِّفُ بَيْنَهَا نِظَامٌ ;
 فَتُفْسِدُ الْأَخْلَاطُ الْمُتَبَايِنَةُ نِظَامَ الْهَضْمِ . وَمَا أَكْثَرُهَا نَطَعْمُ
 قَبْلَ أَنْ نَجُوعَ ، وَمَا أَكْثَرُ مَا نَشْرُبُ عَلَى غَيْرِ ظَلَمٍ ؛ فَنَحْنُ نُدْخِلُ
 الطَّعَامَ عَلَى الْطَّعَامِ ، وَنُتَبَعِّضُ الشَّرَابَ الشَّرَابَ . وَرُبَّمَا قَطَّنَا اللَّيلَ
 أَحِيَا نَا وَنَحْنُ نَجْرَعُ تِلْكَ الْأَشْرِبَةَ الضَّارَّةَ الْمُحْرِقةَ — وَبُطُونُنَا

خاويَةٌ — فتَلْهِبُ أَخْشاؤُنَا، وَتَقْسِدُ مِعَدُنَا، وَيَتَمَطَّلُ نَظَامُ الْمُضَرِّ؛ فَتُمَرِّقُ الْأَسْقَامُ أَجْسَادَنَا، وَتَنْتَقِلُ جَرَائِيمُهَا مَعَ دِمَائِنَا إِلَى الْمُرُوقِ وَالشَّرَائِينِ، وَنُعَانِي مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَى حَضْرِهِ.

وَلَقَدْ عَدَدَ الْأَطْبَاءِ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّمِائَةٍ نَوْعٌ مِنَ الْأَسْقَامِ وَالْعِلَلِ: يَتَعَرَّضُ لَهَا كُلُّ عَضُوٍّ مِنْ أَعْصَابِنَا. وَهُمْ يَسْلُكُونَ — فِي عَلاجِهَا — سُبُّلًا شَتَّى، يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَشْفِي مِنْ تِلْكَ الْأَدْوَاءِ الْوَيِّلَةَ .

وَكَانَ مِنْ حَظِّي أَنِّي طَيِّبٌ أَعْرِفُ مِنْ دَقَائِقِ الطِّبِّ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيْرِي مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ. فَكَشَفْتُ لِلسَّيِّدِ الْجَوَادِ مَا أَعْلَمُهُ مِنْ أُسْرَارِ الدَّاءِ وَطَرَائِقِ الشُّفَاءِ، كَمَا ذَكَرْتُ لَهُ عَوَاقِبَ الشَّرَّةِ، وَمَا يَجْرُؤُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنِ الْكَبَاتِ .

٥ — أَدْوَاءُ الْمَرْضِ

ثُمَّ وَصَفْتُ لِلسَّيِّدِ الْجَوَادِ خَصَائِصَ النَّبَاتِ، وَالْمَعَادِنِ، وَالصُّنْغِ، وَالزَّيْتِ، وَالْقِشْرِ، وَالْمَحَارِ، وَالْأَمْلَاحِ، وَالنَّبَاتَاتِ الْمَائِيَّةِ، وَالثَّعَابِينِ، وَالضَّفَادِعِ السَّامَّةِ وَغَيْرِ السَّامَّةِ، وَالْعَنَاكِبِ، وَالْأَسْمَاكِ،

والمعظام ، ولَعْنِ الموتى ، والطُّيورِ ؛ وكيف تَنَالَ الأدواء عندَنا من أشتاتِ هذهِ الأَخْلَاطِ ، ويرَكِبُ منها دَوَاءٌ كَرِيهٌ الطَّعْمُ ، خَيْثُ الرائحةِ ، لا يَكادُ يَسْتَقِرُ فِي الْمَعِدَةِ حَتَّى تَمُرُّهُ ، فِي كَرَاهِيَّةِ واشْمَرْازٍ . وذَكَرْتُ لَهُ أَنَا نُسِّيُّ هَذَا الدَّوَاءَ : مُفَسِّيًّا ، وَأَنَا نَلْجَأُ إِلَيْهِ فِي عِلاجِ الْمَرْضِ الَّذِينَ أَصَابَتْهُمُ التُّخَمَّةُ ، وَأَضَرَّهُمُ الْإِمْتِلَاءُ ؛ لِيُفَرِّغُوا مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ مُهْلِكَاتٍ .

ووصفتُ لَهُ كَيْفَ نَحْقُنُ الْمَرْضَى ، لِتَشْفِيهِمْ مِنْ آلامِهِمْ وَأَوْجَاعِهِمْ . وَلَمْ أَنْسَ أَنْ أَخْدُثَهُ عَنِ الْأَمْرَاضِ الْوَهْمِيَّةِ الَّتِي يَتَخَيلُهَا بَعْضُ الْمَرْضَى ؛ فَيَخْتَرِعُ لَهَا الْأَطْبَاءُ مَا يُنَاسِبُهَا مِنْ عِلاجٍ وَهُمْ . وذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يُصَابُ بِهَذِهِ الْأَدْوَاءِ هُمُ النِّسَاءُ .

وَحَدَثْتُهُ — فِيمَا حَدَثْتُهُ — كَيْفَ يُجْمِعُ الْأَطْبَاءُ غَالِبًا عَلَى رَأْيِ واحدٍ فِي تَعْلِيلِ الْمَرْضِ ، وَتَشْخِيصِ الدَّاءِ ، وَأَنَّهُمْ قَلَّمَا يُخْطِئُونَ فِي ذَلِكَ ؛ وَكَيْفَ يُنَبِّئُونَ — فِي أَكْثَرِ الْأَحَيَّيْنِ — بِنُخْطُورَةِ الدَّاءِ وَاسْتِفَاحَةِ ، وَدُنُوٌّ أَجْلِ الْمَرْيَضِ ، وَالْيَأسِ مِنْ شِفَائِهِ ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَقْعُونَ

أَمَامَ الدَّاءِ عَاجِزِينَ، مَكْتُوفِ الْأَيْدِيِّ، وَيُسْلِمُونَ الْمُرِيضَ إِلَى الْمَوْتِ
يَائِسِينَ، لَا يُسْتَطِعُونَ أَنْ يَنْتَشِلُوهُ مِنْ بَرَاثِنِ الدَّاءِ.
فَإِذَا طَرَأَتْ أَحَوَالٌ مُّفَاجِيَّةٌ عَلَى الْمُحْتَضَرِ الَّذِي يَئُسُوا مِنْ حَيَاتِهِ،



عَاوَدَهُمُ الْأَمْلُ فِي شِفَائِهِ؛ فَرَاحُوا يَسْقُونَهُ مِنَ الدَّوَاءِ، ثُمَّ يُبَاهُونَ بِأَنَّ
فَضْلَ شِفَائِهِ عَادَ إِلَى الدَّوَاءِ الَّذِي جَرَّعُوهُ إِلَيْهِ؛ حَتَّى لَا يَتَّهِمُهُمُ النَّاسُ
بِالْعَجْزِ، وَلَا يَرْتَابُوا فِي تَكْهِنَتِهِمُ الزَّانِفِ بَعْدَ ذَلِكَ.

وحدثتْهُ أَنْ هُولاءِ الأَطْباءِ لَا يَسْتَغْفِي أَحَدٌ عَنْهُمْ، لَا سِيمًا الْوَزَراءُ
وَالْحُكَّامُ، وَالسَّادُونَ وَالْأَغْنِيَاءُ.

٦ - أَخْلَاقُ السَّاسَةِ

وكان السيد قد سألني - في مناسباتٍ شتى - عن معنى الحكومة
والدستور ، وما إلى ذلك من النظم التي تزدان بها حضارتنا بين
أمم العالم أجمع .

فلا سمع مني كلمة : الوزراء ، سألني عما أعني به هذه الكلمة ،
وقال لي : « ما شأن » « الياهو » الذي أطلق عليه هذا الاسم ؟
فقلت له : « إنَّ الْوَزِيرَ رَجُلٌ سِيَاسِيٌّ ، عَظِيمٌ الْخَطَرِ ، لَا يَعْرِفُ
الشُّرُورَ وَلَا الْحُزْنَ ، وَلَا يُحِسُّ الْحُبَّ وَلَا التُّفْصُرَ ، وَلَا تَنْتَرِقُ الشُّفَقَةُ
وَلَا الْفَضْبَرُ إِلَى قَلْبِه لِحَظَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَا تَصْبُو نَفْسُه إِلَى غَيْرِ الشَّرْوَةِ
وَالسُّلْطَانِ وَالْقَابِ الْمَجْدِ وَالْفَخَامَةِ : فَإِنَّ هَذِهِ الْفَلَائِيَاتِ - هِيَ وَحْدَهَا -
مَنَاطُ أَمْلِهِ ، وَمَرْمَى هِمَّتِهِ . وَهُوَ لَا يَنِي جاحدًا فِي السَّنَى إِلَى تَحْقِيقِهَا ،
وَإِشْبَاعِ تَلْكَ الرُّغْنَةِ الْجَامِحةِ الْمُلْحَّةِ الْقَاهِرَةِ .

ومن خصائصه أن يفتَن في تحويل الكلام ، وتجسيده إلى غير ما وضع له ، وتحويل الألفاظ كلًّا معنى من المعاني ، إلا المعنى الأصيل الذي تدلُّ عليه ! وهو لا يعني بالصحيح ، ولا يأبه للحق . وهو إذا وصف أحد خصومه بالرجيمية والتأخر ، كان أول مستيقن أن خصمته مثال التقدُّم والتَّجَدُّد !

ولذا وعد وأكَّد وعده بمُخرجاتِ الأقسام ومُغَلَّظاتِ الأنماط ، انهارت آمالُ منْ وعده ، وأصبح على يقينٍ من خبيثة مساعاه وحيثُ الوزير ! وهو يبدأ حياته بامتياح الفضائل ، وذم الرذائل ، والسطخ على الفساد الضارِّ بأطنابه في البلاد ؛ حتى إذا وصل إلى منصبٍ عالٍ ، انفعس فيما عابه من قبل ، وسار سيرَة أخرى تتناقض والمثال العالى الذي كان يُقدِّسه ويُهتف له متَّحمساً . وهو بارعٌ في التخلص من تبعية أعماله ، والمرورب منها إذا جدَّ الحِدُّ !

وله حاشية لا تنفك عن مصاحيته ، والتأدب بأديبه ، ولا تبني عن التدرب على الوقاحة والكذب ، واقتراف الدُّنایا والآثام ؛ حتى تصل - بفضل هذه الخلال - إلى أعلى المناصب في الدولة .»

٧ - السّرّاءُ والأعيانُ

وكان السيدُ الجوادُ قد سمعني أتحدثُ - ذاتَ يومٍ - عن سرقةِ
بلادِي وأعيانِها؛ فحسبني أنتَمِي إلى هؤلاءِ السادةِ، وأرادَ أنْ يهينَنِي
على ذلكَ - ولمْ أَكُنْ راغبًا في هذهِ التهنةِ التي لا أستحقُّها -
فَحَمَّمَ صاهلاً :

« لستُ أشكُّ في شرفِ أُسرتِكِ، وَكَرَمِ مَخْتِدِكِ؛ لأنَّ جَمَالَكِ
وَقَسَامَتَكِ وَنظَافَتَكِ تُمْثِلُكِ عن دَوَابَ «الباهاو» في بلادِنَا، وإنْ
كانتْ هذهِ الدَّوَابَ تُوقِّلكِ سرعةً ونشاطاً وقوَّةً .

على أنك تمتأزُّ عنها بالقدرة على الكلامِ، كما تمتأزُّ عنها بالعقلِ
الذى رفع من قدرِك عندَنا . »

وقد أدركتُ من أحدِيشهِ ومحاوراتهِ أنَّ بينَ العِيادِ طبقاتٍ
تفاوتُ أقدارُها : فالجوادُ الأشَبُ أو الأشقرُ أقلُّ جمالاً وقَسَاماً منَ
الجوادِ الأحمرِ أو الأزرقِ أو الأسودِ، وليس للعيادِ الشُّبُّيرِ والشُّقرِ
منَ المزايا مثلُ ما لغيرِها منَ العِيادِ الأخرى . ولهذا السببِ تَقْضِي

حياتها كلها خادمة لها، ولا تطمح تقوسها إلى أن تصبح - يوماً - في مقام سادتها . وقد دهشت لذلك أشد دهشة ، ولم يكن يدور لـ في الحُسـبـان .

وقد شكرت للسيد حسـنـ رأـيهـ فيـ ، وأـكـدـتـ لهـ أنـقـ منـ أـسـرـةـ فـقـيرـةـ ، لمـ تـنـمـ إـلـىـ مـرـتـبـةـ السـرـاقـ وـالـأـعـيـانـ ؛ وـلـكـنـ وـالـدـىـ - معـ هـذـاـ - قدـ أـحـسـنـ تـعـلـيمـيـ ، وـقـاماـ بـتـرـيـتـيـ وـتـشـقـيقـ خـيـرـ قـيـامـ .

ثمـ حـدـثـتـهـ عـنـ خـصـائـصـ
الـسـرـاءـ وـالـأـعـيـانـ عـنـدـنـاـ ، وـقـلـتـ
لـهـ صـاهـلاـ :



«إـنـ شـيـابـ هـؤـلـاءـ النـبـلـاءـ
قدـ نـشـواـ - منـذـ حـدـاثـتـهـمـ -
مـتـبـطـلـينـ مـتـرـفـينـ وـقـدـ أـسـلـمـتـهـمـ
الـبـطـالـةـ وـالـرـفـ إلىـ التـبـلـدـ
وـالـجـهـالـةـ ، وـأـمـتـلـأـتـ تـقـوـسـهـمـ
زـهـوـاـ وـخـيـلـاءـ وـأـنـارـيـةـ ، وـمـلـكـ الـهـوـىـ زـمـامـ أـمـورـهـمـ .

وَهُمْ — عَلَى ذَلِك — مَعْدُودُونَ مِنْ أَشْرَافِ الدُّولَةِ، وَأَوْلَى الرَّأْيِ فِيهَا.
 وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِصْدَارِ قَانُونٍ، أَوْ إِفْاتَاهُ، أَوْ تَعْدِيلِهِ؛ إِلَّا إِذَا أَقْرَءُ
 أَوْلَئِكَ الْعَظِيمَاءِ، الَّذِينَ يُبَرِّمُونَ قَضَائِهِمْ فَلَا يَجْرُؤُ عَلَى تَنْقِيَهِ
 كَائِنٌ كَانُ . »

الفصل السابع

١ - مزايا الجِيَادِ التَّاطِقَةِ

لعلَّ القارئ يدهشُ مما قصصتهُ عليه منْ مُحاوراتِ ، دارتْ بينِي وبينَ السيدِ الجِوادِ الذي استطعتُ أنْ أُظْهِرَ له حقيقةَ جنسِي في إخلاصٍ وأمانةٍ . ولمْ يكنْ منَ اليسيرِ علىَّ أنْ أُصِلَّ إلى هذهِ النَّهايةِ البعيدةَ : لأنَّ السيدَ الجِوادَ لمْ يكنْ له بمثيلٍ هذهِ الحقائقِ عهدٌ ، ولمْ يكنْ يظنُّ أنَّ الفرقَ كثیرٌ بينَ دوابَ « الياهو » في بلادِه ، وبينَها في البلادِ الأخرى ، إنْ كانَ فيها شيءٌ منها .

علىَّ أنني كشفتُ منْ مزايا السادةِ الجِيَادِ وفضائلِها – في أثناءِ حواري مع ذلكَ السيدِ – ما لمْ يكنْ يمرُّ لي بخاطِرِ ، ورأيتها قد برِئتَ منَ المفاسِدِ الإنسانيةِ التي انغمستَ فيها . وأظهرتَ لي تلكِ المُحاوراتُ آفاقاً جديدةً ، لمْ يكنْ يُتاحُ لى معرفتها لو لا ذلكَ الجِوادُ الذي بَصَرْتُ بها ، ووجَهْتُ إليها . فأصبحتُ أرى الأشياءَ بغيرِ العينِ

التي تَعَوَّذْتُ أَنْ أَرَا هَا بِهَا ، وَصِرْتُ أَحْكَمُ عَلَيْهَا أَحْكَامًا مُنَاقِضَةً لِلْأَحْكَامِ
السَّابِقَةِ الَّتِي أَفْتَهَا .

وَقَدْ بَذَلْتُ جَهْدِي فِي سَرِّ قَائِصٍ إِخْوَانِي مِنَ الْأَنَاسِ ، غَيْرَةً عَلَى
سُمْعِتِهِمْ وَشَرْفِهِمْ .

وَكَانَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ مُوفَورَ الذَّكَاءِ ، رَاجِحَ الْعُقْلِ . وَكَانَتْ آرَاؤُهُ
الَّتِي يُبَدِّيهَا رَشِيدَةً ، وَأَنْتِقَادَاتُهُ سَدِيدَةً . وَقَدْ تَعْلَمْتُ مِنْ حِوَارِهِ
كَيْفَ أَحْتَقَرُ الْكَذِبَ ، وَأَمْقَطُ الْلَّجَاجَ ، وَأَبْغِضُ الدَّهَانَ وَالْمُخَادَعَةَ .
وَبَدَتْ لِي الْحَقِيقَةُ : مَحْبُوبَةً جَذَابَةً ، وَأَصْبَحْتُ أَشْعُرُ بِإِجْلاَلِهَا
وَتَقْدِيسِهَا ، وَأَنْسَانِي شَغْفَيْ بِهَا كُلَّ مَا أَلْقَاهُ فِي سَيْلِهَا مِنْ عَنْتَرٍ
وَاضْطَهَادٍ ، وَأَصْبَحْتُ أَسْتَعْذُ بِالْجِهَادِ فِي نُصْرَتِهَا ، وَأَبْذَلُ لَهَا كُلَّ
مَا أَمْلَكَ .

وَلَقَدْ كُنْتُ أُورِثُ أَنْ أُغْفِلَ الْمَيْوَبَ وَالنَّقَائِصَ الَّتِي مُنِيتُ بِهَا
بِلَادِي ؛ لَأَنْ تَعْصِي لِجَنْسِي كَانَ يَدْفُنُنِي إِلَى ذَلِكَ . إِلَّا أَنِّي لَمْ
أَقْضِ فِي تِلْكَ الْبَلَادِ عَامًا كَامِلًا ، حَتَّى أَفْتَ طِبَاعَ أَهْلِيهَا مِنَ

السادةِ الجيادِ . وَأَعْجَبْتُنِي سلامَةُ أَخْلَاقِهِمْ ، وَوَفْرَةُ فَضَائِلِهِمْ ، وَنَقُورُهُمْ
مِنْ أَرْجَاسِنَا وَدَنَايَا نَا ، وَبَرَاءَتُهُمْ مِنَ التَّصْنِيفِ ، وَبَعْدُهُمْ عَنِ التَّظَاهِرِ
بِالْفَضْيَلَةِ ؛ فَقَرَرْتُ أَنَّ أَقْضِيَ بَقِيَّةَ عُمْرِي بَيْنَ ظَهَارِ أَنَيْهِمْ ، بَعِيدًا عَنِ
جَالِبَاتِ الْفُسَادِ وَالْفَوَاهِ وَالنَّفَاقِ ، الَّتِي تُهَمِّيْنُ عَلَى النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ فِي
جَمِيعِ الْبُلْدَانِ .

٣ - فَسَادُ الطَّبَائِعِ

وَظَلَّلْتُ أَمَّنِي تَقْسِي بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الرَّغْيَةِ النَّبِيلَةِ ؛ وَلَكِنَّ سُوءَ
الْحَظْ ، وَنَكَدَ الظَّالِمُ الَّذِينْ يَأْبَيُانِ أَنْ يَفَارِقُنِي طَولَ حَيَايِي ، قَدْ حَرَمَنِي
- فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ أَيْضًا - أَنْ أَظْهَرَ بِدَرْكِ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ الْعَزِيزَةِ ، كَمَا
سِيرَى الْفَارِئُ فِيمَا بَعْدُ .

لَقَدْ ذَكَرْتُ لِلسَّيِّدِ الْجَوَادِ عُيُوبَ بْنِ جِنِسِي مِنَ الْمُتَحَضِّرِينَ مُخَفَّفَةً ،
وَلَمْ أَعْرِضْ عَلَيْهِ مِنْ شُنُعِهِمْ وَمَخَازِيهِمْ كُلَّ مَا أَعْلَمُهُ ، وَاجْتَزَأْتُ
بِالقليلِ عَنِ الْكَثِيرِ ، وَتَعَمَّدْتُ أَنْ أُشِيرَ إِلَى الْهَنَوَاتِ ، وَأَسْتَرَ الْعُيُوبَ
الْفَاضِحَةَ ، وَالْمُخْزِيَّاتِ الْفَاتِلَةَ . وَلَكِنَّ السَّيِّدَ الْجَوَادَ كَانَ لَا يَتَسَمَّعُ

— قِيدَ أَنْمَلَةٍ — وَلَا يَغْرِيُ تِلْكَ الْهَنَّوَاتِ ، وَلَا يَغْوِي عَنْ تِلْكَ الزَّلَاتِ
الَّتِي عَرَفَهَا عَنْ بَنِي الْإِنْسَانِ
وَكَانَ السَّيِّدُ لَا تَأْخُذُهُ فِي نُصْرَةِ الْفَضْلِيَّةِ هَوَادَةً وَلَا رَحْمَةً ؛ فَخَيْلَ
إِلَى أَنَّى أَمَامَ مُمْتَحِنٍ شَدِيدَ الْقُسْوَةِ . وَقَدْ عَرَضَتْ عَلَيْهِ أَبْنَلَ الْجَوَانِبِ ،
وَأَحْسَنَ الْوِجْهَ ، الَّتِي تَقْخَرُ بِهَا فِي حَضَارَتِنَا . وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِي
أَنْ أَفْعَلَ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ ؛ فَإِنْ كُلَّ حَقِّي لَا بَدَّ لَهُ مِنْ أَنْ
يَعْجِنَ إِلَى وَطَنِهِ وَمَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَيَغْارَ عَلَى سُمْعَةِ بَلَدِهِ وَسَاكِنِيهِ ،
وَيَدَافَعَ عَنْهُمْ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سِيلًا .

وَقَدْ شَرَفَتْ بِرُفْقَةِ السَّيِّدِ الْجَوَادِ زَمَنًا طَويَّلًا ، وَسُعِدَتْ بِصُحبَتِهِ
— فِي خَلَالِ هَذِهِ الْمُدَّةِ — وَأَوْجَزَتْ فِي أَحَادِيثِي مَا وَسِعَنِي
الْإِيْجَازُ ، وَأَعْضَيَتْ عَنِّي كَثِيرًا مَخَازِينَا وَأَرْجَاسِنَا وَشُنُونَا ، مُكْتَفِيًّا
بِإِجَابَتِهِ عَنِّي أَسْأَلَتِهِ كُلَّمَا وَجَهَ إِلَيَّ سُؤَالًا .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ اسْتَدَعَنِي السَّيِّدُ إِلَيْهِ ، وَأَمْرَنِي أَنْ أَجِلِّسَ عَلَى مَسَافَةٍ
قَرِيبَةٍ مِنْهُ ، وَهُوَ شَرْفٌ لَمْ أَحْظَ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ حَمِّمَ صَاهِلًا :
« لَقَدْ أَنْعَمْتُ الْفَكَرَ فِي قُصْبِتِكَ ، وَأَطَلْتُ الرَّوِيَّةَ وَالْفَحْصَ عَمَّا

حدثني به عن نفسك وببلادك وأهليها ، وقد خرجتُ من ذلك كلّه بنتيجة لا تُرضيكَ : فقد انتهيتُ إلى أنكمْ - على عِلاتكمْ لستُ إلا دوابٌ من فصيلة « الياهو » التي في بلادنا ، ولكنَّ حادثاً - لا أستطيعُ أن أدركَ أسبابه - قد أُنكِبْتُمْ ذرَّةً فضيلةً من العقل ، وأبى لكمْ غُورُكمْ وضلالُكمْ أن تنتفعوا بهذه الذرة : فما زلتُمْ أن توجّهوها إلى الشرورِ والآثام ، وأبئتمْ أن تصرّفوها في وجوهِ النفعِ والبرِّ والخيرِ . وشدةَ أضتعُمُ الميزةَ التي وُهبتُمُوها ، وافتنتُمْ في خلقي متاعبَ وضروراتٍ لا حاجةَ بكمْ إليها ؛ فضاعتمْ بذلك مطالبيكمْ ، وأضتعتمْ جهودَكمْ ، في تحقيقِ أوهامِ اخترعتموها على غيرِ طائلِ .

أما أنتَ فليسَ في قدرتكَ أن تُشكِّرَ أنكَ ضعيفُ الجسمِ ، وليسَ لكَ مثلُ نشاطِ دوابٍ « الياهو » الحقيرةِ في بلادنا وسرعتها وخفتها . ولقد رأيْتُكَ تميّزَ على قدميكَ الخلفيتينِ وحدهما ، مشيّةً مُضطربةً ، ليسَ فيها رشاقةٌ ولا حِفةٌ . وقد أغلقتَ النهايةَ بمخالبكَ ، حتى أصبحتْ عديمةَ الجدوى ، لا تُنفيكَ في دفاعه ، ولا تعودُ عليكَ بفائدةٍ .

وقد حَلَقْتَ لِحِيَّتَكَ ، وَجَرَدْتَ ذَنَبَكَ مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي يَنْبَتُ عَلَيْهَا
لِيَقِيَّاً وَهَيْجَ الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا ، وَيَحْفَظُهَا مِنْ تَقْلِيبَاتِ الْجَوِّ .
وَجُمَاعُ الْقَوْلِ أَنَّكَ عَاجِزٌ ضَعِيفٌ لَا حَوْلَ لَكَ عَلَى الْمَدْوِ ، وَلَا
قُدْرَةَ لَكَ عَلَى تَسْلُقِ الْأَشْجَارِ ، كَمَا يَفْعُلُ إِخْوَانُكَ مِنْ دَوَابٍ
«الْيَاهُو» عِنْدَنَا .

٣ - غرائبُ الشَّرِّ

أَمَا النُّظُمُ وَالشَّرَائِعُ وَالْقَوَانِينُ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا لَكُمْ ، فَإِنَّهَا
عَجَزَتْ عَنْ إِصْلَاحِكُمْ ، وَتَقْوِيمِ زَيْنِكُمْ ؛ لَأَنَّكُمْ مُجْرَدُونَ مِنَ الْقُلُّ ،
مُسْتَهْبِنُونَ بِالْفَضْيَلَةِ . وَلَوْ كَانَ لَكُمْ مُسْكَنَةٌ عَقْلٌ ، لَمَّا رَكَمْتُمْ
أَنفُسَكُمْ فِي الدَّرَكِ الْأَوْهَدِ ؛ لَأَنَّ الْقُلُّ وَحْدَهُ كَفِيلٌ بِإِسْعَادِكُمْ ،
وَتَسْدِيدِ خُطُوطِكُمْ .

وَلِيَسَ فِي قَدْرِكِ أَنْ تَزْعُمَ أَنَّكُمْ سُعَادٌ . فَإِذَا أَقْرَرْتَنِي عَلَى رَأِيِّي ،
فَلَا مَعْدَى لَكَ عَنِ الْإِعْتَدَافِ بِأَنَّكُمْ قَدْ حُرِمْتُمُ الرُّشْدَ وَالسَّدَادَ .

ولقد عجبتُ لإصرارِ السيدِ الجوادِ على هذا الحكمِ ، بعد أنْ اخترعتُ لبني جنسى فضائلَ ومزاياً - لا أصلَ لها - لا حسنَ رأيهِ فيهم ؛ ولكنه أبى إلا أن يصرّ على رأيهِ . وقد عرفتُ الأسبابَ التي دعنته إلى هذا الإصرارِ ، حينَ أفضى بها إلى فيما يلى . قال صاهلاً :

« لقد رأيتُك تُشبةُ دوابَ « الياهو » عندنا في جميع أجزاءِ جسمِك ، إلا في القليلِ النادرِ منها . وهذا الفرقُ القليلُ لا ينفعُك ، بل يضرُك ؛ لأنَّه محسوبٌ عليك ، وليسَ لك . فما يبنِكما فرقٌ إلا في القوةِ والنشاطِ والسرعةِ والمخالبِ ؟ وهي ترجحُك في هذه المزايا كلَّها .

أما عاداتُكم وأعمالُكم وجرائمُكم التي وصفتها لي وجدتُني بها ، فهي تُماثلُ عاداتِ هذه الدوابِ - التماثلةُ لك - كلَّها .

ثم استأنفَ صاهلاً :

« إنَّ دوابَ « الياهو » في بلادِنا تمتازُ - من سائرِ الدوابِ الأخرى - بأنَّها مُتابضةٌ مُتنافرةٌ ، لا يأتِفُ منها اثنانٌ حتى يختلفا . وهي مشهورةٌ بعِقدِها وبغُرِيَّتها على بعضِها .

وَكُلُّ دَابَّةٍ مِنْ هَذِهِ الدَّوَابِ تَمْقُتُ أَبْنَاءَ جَنِسِهَا، أَكْثَرُ مِمَّا تَمْقُتُ
أَيْ دَابَّةٍ أُخْرَى.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ مَصْدِرَ هَذَا التَّنَافِرِ هُوَ بَشَاعَةُ مُنْظَرِكُمْ،
وَقُبْحُ هَيْئَتِكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ بِذَلِكَ.

وَلَقَدْ أَحَسْنَتَ إِذْ غَطَّيْتَ جَسْمَكَ بِهَذِهِ الثِّيَابِ الَّتِي اخْتَرَعْتُمُوهَا
اخْتِرَاعًا؛ لَتُخْفُوا الْقُبْحَ، وَتَسْتَرُوا الدَّمَامَةَ الَّتِي يَنْفِرُ مِنْهَا الذَّوقُ،
وَلَا يُطِيقُ رُؤْيَاها أَحَدٌ.

وَلَمَّا انتَهَى السَّيِّدُ مِنْ كَلَامِهِ، أَدْرَكَتُ أَنَّ أَسْبَابَ التُّزَاعِ وَالشُّقَاقِ
وَالاِقْسِامِ بَيْنَ دَوَابِّ بَلَادِيْمْ وَدَوَابِّنَا - مُعْشَرَ «الْيَاهُو» - وَاحِدَةٌ
لَا تَكَادُ تَتَغَيِّرُ.

٤ - بَنُو «الْيَاهُو» وَبَنُو «آدَمْ»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ صَاحِلًا:

«وَمَنْ دَلَّلَ الشَّرَّهُ الَّذِي خُصِّصُ بِهِ، يَا مُعْشَرَ «الْيَاهُو» - فِي
بَلَادِنَا وَبَلَادِكُمْ عَلَى السَّوَاءِ - أَنَا إِذَا أَعْطَيْنَا خَمْسَةً مِنْ هَذِهِ الدَّوَابِّ

طعاماً يكفي خمسين دابةً منها ، لم تقنع به ، ودفعها الشره إلى طلب المزيد ، ودب بينها الشُّقاقُ والنُّفُورُ ، وأبى كلُّ فردٍ منها إلَّا أن يستأثرَ وحده بكلٍّ ما قدَّمه من الغذاء .

وما أسرعَ ما تخلَّ الجَلَبةُ والصَّخَبُ محلَّ الهدوءِ والشُّكُونِ .
وئمةَ تُغَيِّرُ كلُّ دابةٍ على الأُخْرَى فتأخذُ بشعْرِها ، وتَعْرُكُ أذْنَها ،
ولا يَحْلُو لِإِحْدَاهَا أَنْ تَأْكُلَ إلَّا مَا تَهْمُمُ غَيْرُهَا بِأَكْلِهِ .

وقد أَلْفَنا منها هَذِهِ الْأَنَانِيَّةَ الْمَمْقوَتَةَ : فلم نَسْمَعْ لَهَا أَنْ تَأْكُلَ
خارجَ حظيرتها إلَّا إِذَا حرسها خادمٌ من خدمِنَا . فَإِذَا عادَتْ إِلَى
الْحَظَرِيَّةِ رَبَطْنَا كُلَّ دابةٍ منها عَلَى مسافَةٍ بَعِيدَةٍ مِّنَ الْأُخْرَى ؛ حَتَّى
لَا تَخْدُثَ بَيْنَهُما مَعْرَكَةٌ حَامِيَّةٌ الْوَطِيسِ .

فِإِذَا ماتَتْ إِحْدَى الْبَقَرِ - لِكِبَرِ سِنَّهَا - أَوْ تَرَدَّتْ (سَقَطَتْ)
وَلَمْ يُبْصِرْ بَهَا أَحَدٌ مِّنَ الْجِيَادِ ، أَسْرَعَتْ إِلَيْهَا دَوَابُ «الْيَاهُو» الْقَرِيبَةُ
مِنَهَا ، وَتَهَافَتْ عَلَى تَمْزِيقِ جَسَمِهَا ، وَآثَرَتْ كُلَّ دابةٍ أَنْ تَنْفَرِدَ
بَهَا وَحْدَهَا ، وَنَشَبَتْ بَيْنَهَا مَعْرَكَةٌ دَامِيَّةٌ تُعَالِمُ الْمُعَارِكَ الَّتِي حَدَّثَنِي

يُنشُّبُها في بلادِكم ، ولن تنجِلِي المعركةُ إِلا بَعْدَ أَنْ تَنْهَكَ قُواها ،
وَتُسْفِرَ عن كثيِّرٍ مِّنَ الْجَرَحَى .

وَقَلَّمَا تنتهي المعاركُ بالقتلِ ؛ لأنَّها لا تملكُ مِنْ وَسائِلِ الْهَلاكِ
مِثْلَ مَا تَمْلِكُونَ وَلَمْ تَخْتِرُنَّ - مِنْ أَدَوَاتِ الْإِبَادَةِ - مِثْلَ
مَا تَخْتِرُونَ .

وَكَمْ رأَيْنَا المَعَارِكَ تَنْشَبُ - مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يَدْعُو إِلَى نُشُوبِها -
بَيْنَ هَذِهِ الدَّوَابَّ الَّتِي تَعِيشُ فِي أَصْقَاعٍ مُّتَبَاعِدَةٍ . فَلَا يَمْرُرُ قطْبِيعٌ
مِنْ عُرَبَاءَ «الْيَاهُو» عَلَى قطْبِيعٍ آخَرَ ، حَتَّى يَدِبَّ بِيَنْهُمَا النُّفُورُ وَالْبُغْضُ ،
وَتَبْدِأُ الْعَرَبُ بِلَا رَحْمَةٍ .

وَهُذِهِ الدَّوَابَّ لَا تَرْكُ فَرْصَةً وَاحِدَةً تُمْكِنُهَا مِنَ الْإِغْارَةِ عَلَى
غَيْرِهَا مِنْ قُطْعَانِ «الْيَاهُو» إِلا أَنْتَهِزَنَّهَا لِشِفَاءِ أَحْقَادِهَا وَإِرْزَاقِهَا
عَلَيْهَا . وَهِيَ تَرْقِيُّ عَوْدَهَا - فِي كَمِينٍ خَفِيٍّ - ثُمَّ تَنْفَضُ عَلَيْهَا ،
وَتَأْخُذُهَا عَلَى غِرَّةٍ !

فَإِذَا أَخْتَقَتْ مُؤَامِرَتُهَا ، وَسَلَكَ أَعْدَاؤُهَا جَهَةً أُخْرَى ، عَادَتِ

الدَّوَابُ الْخَيْثَةُ خَائِبَةٌ مِنْ حِيثُ أَتَتْ ، وَلَمْ تُسْطِعِ الْبَقَاءَ هَادِهَةً
مُمْطَمِئَةً . وَلَا تَهْدِأُ تَأْرِثُهَا إِلَّا إِذَا أَنْتَرَتْ عَلَى تَقْسِيمِهَا حَرَبًا طَاحِنَةً ،
كَتَلَكَ الْعَرَبُ الَّتِي تُسَمُّونَهَا : « حَرَبًا أَهْلِيَّةً » !

٥ - الأنجارُ الْكَرِيسَةُ

ثُمَّ حَمَّمَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ صَاهِلًا :

« وَقَدْ رَأَيْتُ — فِي بَلَادِنَا — أَنْجَارًا بَرَاقَةً مُتَلَاثَةً ، مُخْتَلِفَةً
الْأَلْوَانِ ، مُبْشُوَّةً فِي بَعْضِ الْأَنْحَاءِ ، وَهِيَ أَنْجَارٌ لَا خَطَرَ لَهَا ، وَلَا
فَائِدَةَ مِنْهَا . وَلَكِنَّ هَذِهِ الدَّوَابُ تَهِيمُ بِجُبُبِهَا هُيَامًا ، وَتَبْحَثُ عَنْهَا
جَاهِدَةً ، وَتُخْرِجُهَا مِنْ مَخَابِهَا وَمَكَانِهَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَوْ كَانَتْ فِي
غَوْرٍ سَحِيقٍ . وَتَنْظَلُ تَحْفِرُ الْأَرْضَ أَيَّامًا عَدَدَةَ ، لَا تَنِي وَلَا تَكِلُّ
وَلَا تَقْتُرُ عَزِيزَتُهَا أَوْ تَظْفَرُ بِهَا ؛ فَتَحْمِلُهَا إِلَى حَظَائِرِهَا ، وَتُعْجِلُ
أَبْصَارَهَا فِيهَا ، وَتُخْفِيَهَا — عَنْ رِفَاقِهَا — فِي أَمَانٍ مَسْتُورَةٍ ،
لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا كَائِنٌ كَانَ .

وَكَانَمَا تَرَى فِيهَا كَنْزًا بِقِيسَاتِ جَدِيرًا بِالصَّوْنِ وَالرِّعَايَةِ . »

ثم استأنفَ السيدُ الجوادُ صاهلاً :

« ولقد كنتُ أحارُ في تعليلِ هذا الحِرصِ ، وترى أسبابِ هذا الشرِّ الذي لا معنى له ، ولا داعيَ إليه .

وقد بحثتُ جاهداً لعلِّي أعرفُ فائدةَ هذه الأَحْجَارِ الْبَرَاقَةِ ، وأيُّ نفعٍ يعودُ على هذه الدوابِ منها؛ فلم أوفقْ إلى معرفةٍ شئٍ من ذلك .
أما الآن ، فقد أدركتُ - من حوارِكِ ومن نقاشِكِ - السببَ ، وعَرَفْتُ حلَّ اللُّغْرِ التَّغْرِي ، وأيقنتُ أنَّ الْبُخْلَ الذي عَزَّزَهُ إلى دوابِكم الإنسانيةِ ، هو مصدرٌ ما مُنْتَهِيهٌ به من حِرصٍ عَجِيبٍ .»

ثم حَمَّمَ صاهلاً :

« ولقد عَنِّي - ذاتَ يوم - أنْ أتَرَكَ مَدَى حِرْصِها على تلك الأَحْجَارِ الْبَرَاقَةِ؛ فانهزمتُ منها غفلةً ، وقتلتُ - في أثناءِها - كُومةً من حِجَارِتها . ولما عادتِ الدَّابَّةُ القدرةُ التي خَبَأَتها في حظيرتها ، بحثتُ عنْ كُنْزِها فلم تَجِدْهُ . ولم تُوقنْ أنه ضائع ولم يبقَ له أمرٌ ، حتى سَيِّءَ وجهُها ، وَجَنَّ جُنُونُها ، وَنَارَتْ ثَأْرُوها ، وملأَتِ الجوَّ صَخْباً وصِياحاً ، وكاد النَّمَاءُ والأَلمُ يقتُلُانِها .

واجتمعتِ الدوابُ الآخرى - منَ « الياهُو » - ولم تَرَ
الدابةُ أخواتِها منَ بناتِ « الياهُو » ، حتى اقْضَتْ عليها ، وظلَّتْ
تعَضُّ مَن يَدَانِيهَا وتُجْرِحُ مَن يَقْرُبُ منها : حتى أَثْنَاهَا الجُهْدُ
وَبَرَحَ بِهَا الْأَلْمُ ؛ فَأَسْلَمَاهَا إِلَى الدُّهُولِ .

ولم يَسْتَسْغِ هَذَا « الياهُو » طَامِماً ، بَدَأْنَقَدَ الْجِعَارَةَ الْبَرَاقَةَ :
فَكَفَّ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَمْ تَطْعَمْ عَيْنَاهُ الْكَرَى ، وأَصْبَحَ
لَا يُطِيقُ الْعَمَلَ ، وَلَا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ . فَأَمْرَتُ بَعْضَ خَدِّيَّ أَنْ
يَرُدَّ الْأَحْجَارَ الْبَرَاقَةَ إِلَى مَخْبِئِهَا الَّذِي أَخْذَهَا مِنْهُ .

ولم يَقْعُ نَظَرُ « الياهُو » عَلَيْهَا ، حَتَّى تَمَلَّكَهُ الْفَرَحُ ، وَاسْتَولَ عَلَيْهِ
الإِبْتِهَاجُ ، وَعَادَ إِلَيْهِ أَنْسُهُ وَمَرَحُهُ .

وَكَانَمَا خَشِّيَّ أَنْ يُخْرِمَ الْأَحْجَارَ - مَرَةً أُخْرَى - فَدَفَنَهَا فِي
مَكَانٍ آخَرَ ؛ حَتَّى لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَحَدٌ .

وَلَقَدْ أَثْبَتَتِي الْمَشَاهِدَاتُ وَالتجَارِبُ أَنَّ أَكْثَرَ المَعَارِكِ الْعَنِيفَةِ
الْوَحْشِيَّةِ - الَّتِي تَنْشَبُ بَيْنَ هَذِهِ الدَّوَابَّ - إِنَّمَا تَقْعُ في الْحَمْوَلِ
وَالْمُرْوَجِ الَّتِي تَكْثُرُ فِيهَا تِلْكَ الْأَحْجَارَ الْبَرَاقَةَ : لَأَنَّ دَوَابَّ

« اليَاهُو » تُكِرُّ مِنَ الرُّؤُدِ عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَفْعَادِ .
 وَكَثِيرًا مَا رَأَيْتُ دَابَّتِينَ تَكْشِفَاتِ عن حَجَرِ بَرَاقِ ؛ فَلَا
 تَلْفَرَانْ بِهِ حَتَّى يَدِبَّ بَيْنَهُمَا دَبِيبُ الْخَلَافِ . وَمَمَّ يَشْتَدُّ التَّرَازُ
 فَيَنْقُلِبُ إِلَى حَرَبٍ ؛ لِأَنْ كُلُّا مِنْهُمَا تُرِيدُ أَنْ تَسْتَأْمِرَ بِهِ . ثُمَّ
 يَجْعَلُهُ ثَالِثًا — بَعْدَ أَنْ جَهَدَهُمَا الْعِرَاقُ — فَيَأْخُذُ الْحَجَرَ مِنْهُمَا
 عَنْوَةً وَاغْتَصَابًا .

وَمَا أَقْرَبَ الشَّبَّةَ — يَا صَاحِبِي — بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا تَصْنَعُونَهُ
 فِي بَلَادِكُمْ !

٦ - جَسْمُ « اليَاهُو »

وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُخْطِئَهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَأَفْحَمَتِنِي حُجَّتُهُ وَسَدَادُ
 مَنْطِيقِهِ فَلَمْ أُحِرِّزْ جَوابًا ، وَعَجَزْتُ عَنِ الدِّفاعِ عَنِ الْبَنِي جِنْسِي إِزَاءِ
 الْتَّهْمِ الشَّنْعَاءِ الَّتِي أَصْبَحَتَهُمْ بِهِمْ .

وَتَكَشَّفَ لِي صَوَابُ رَأِيهِ ، وَعِدَالَةُ حُكْمِيهِ ؛ حِينَ تَمَثَّلَ لِي
 مَا يَفْقِدُهُ الْمُتَخَاصِمَانِ مِنَ الْمَالِ ، إِذَا تَنَازَعَا عَلَى شَيْءٍ بِعَيْنِيهِ

وأختكما إلى القضاء؛ لأنهما لن يظفرا إلا بفقدان ما تنازع عليه !
ثم استطرد السيد الجواد صاهلا :



وَلَسْتُ أُرِي فِي تِلْكَ
الدَّوَابُ خَلَةً أَدْعَى لِلْمَقْتِ ،
وَأَجْلَبَ لِلْكَرَاهِيَّةِ وَالْإِحْتَقَارِ ،
مِنْ خَلَةِ الْجَمَعَّ التِّي خُصَّتْ
بِهَا مِنْ بَيْنِ دَوَابِ الْأَرْضِ
جَمِيعَهُ . إِنَّهَا تَأْكُلُ - فِي
شَرَهِ وَنَهَمْ - كُلَّ مَا تَجِدُهُ
فِي طَرِيقِهَا مِنَ الْحَشَائِشِ ،

وَجُذُورِ الْفَاكِهَةِ ، وَالْجَيْفِ الْغَفَنَةِ . وَرَبِّمَا جَمَعَتْ بَيْنَ هَذِهِ كُلُّهَا ،
وَخَلَطَتْهَا مَعًا ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى هَذِهِ الْأَخْلَاطِ تَأْكُلُهَا وَتَسْتَمِرُّ بِهَا دُونَ
أَنْ تَتَقَزَّزَ مِنْهَا .

وَمِنْ عَجَابِ مَا رَأَيْتُهُ أَنْ تِلْكَ الدَّوَابَ تُؤْثِرُ مَا تَسْرِقُهُ أَوْ تَخْطُفُهُ
أَوْ تَفْتَصِيبُهُ مِنَ الطَّعَامِ - وَلَوْ كَانَ تَافِهًا حَتِيرًا - عَلَى أَشْهَى الْأَغْذِيَّةِ

التي تُقدِّمُها إليها . وهي تأكلُ من تلك الأسلابِ والنمايمِ أكلاً لائماً ، وتظلُّ تخشُو أجوانها بالطعامِ حتى تكادَ بُطونُها تتفجرُ ؛ وثمَّ تُعجزُها التَّخمةُ عنِ الحركةِ . وقد هدتها الفريزةُ إلى نوعٍ منَ الجذورِ تأكلُه - إذا تَحِمَتْ - فلا تلبثُ أنْ تُسْرِعَ ما في بُطونِها مِنَ الطعامِ .

ورأيتُ هذه الدوابَ تستمرُّ نَوْعاً غريباً منَ الجذورِ ، يمتازُ عما عداهُ بِوَفْرَةِ الدَّسَمِ . وهو نادرُ الوجودِ في بلادِنا ؛ ولَكِنَّها تبحثُ عنه جاهدةً ، حتى تَعْثُرَ عليه ، فتَتَحَلَّبُ مسرورةً مبتهجةً . ولا تكادُ تقلُّ ذلك حتى يبدُو الخَيالُ على سِيامها ، ويحدثُ لها مثلُ ما يحدثُ لكم منْ جَرَاءِ تلك الأشربةِ المُهلكِ السامةِ التي حدَّثَني عنها .

وهذه الجذورُ العجيبةُ تُحدِّثُ آثاراً مُتناقضَةً ؛ فلا يتعلَّبُها « الياهو » حتى يَنْتَشِيَ ، ويبدو السرورُ على أسرارِه - أولَ الأمرِ - فيتوعدُ بعضاً إلى بعضٍ ويتعاطفُ ، ثمَّ لا تلبثَ الدَّوابُ أنْ تَتَجَهمَ وُجُوهاً ، وتَتَقلَّصَ شِفافُها ، وتشتبكَ في صِرَاعٍ عنيفٍ ؛ فَيُمْزَقُ بعضُها أجسادَ بعضٍ ، وتملاً الدنيا صُراخاً وجَلَبةً ، ثمَّ ترتئيَ - آخرَ الأمرِ - فِي الوَخْلِ ، وَتُضْبَحَ في حالٍ يُرْكِي لها .

وقد امتازت دواب « الياهو » — من بين دواب الأرض كلها —
بالتعرض للأمراض المختلفة، والعلل الفتاكـة .

وصدق السيد الججاد في ملاحظته . ولكنني رأيت أنَّ
الأمراض التي يتعرض لها « الياهو » في تلك البلاد الثانية ، أقلُّ
من أمراض الخيل في بلادنا . وهي لا تنتجم من سوء المعاملة ، أو
قلة العناية ؛ بل هي وليدة ما اختصت به من الضراوة والشرارة .
وقد أطلق العباد على كل مرض يصاب به أي حيوان في بلادهم .
اسم : « مَرَضِ الياهو » : لأنهم يرون أن مصدر العلل والأمراض
يرجع إلى دواب « الياهو » الخبيثة .

فإذا اكتنلت معدة دابة من دواب « الياهو » ، فاصابتها التخمة :
أرغموها على تجرُّع أخلاطٍ من أزوائهم وأبوائهم ، لتفريغ ما في
بطنها من خبائث الأطعمة . وهو علاج لها ناجح سريع الأثر .
وما أجدَر الأطباء — في بلادنا — أن يرغموا كل جسم شرِّه
على تجرُّع مثل هذا العلاج حتى يفلع عن عادته المرذولة !

٧ - الزَّعَامَةُ

أَمَا عُلُومُنَا ، وَفُنُونُنَا ، وَحُكْمُنَا ، وَصَنَاعَتُنَا ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ ؛ فَقَدْ قَرَرَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ أَنْ وَجْهَ الشَّبَهِ فِيهَا يَيْتَنَا وَبَيْنَ « يَاهُو » بِلَادِهِ ضَعِيفٌ جَدًّا ، أَوْ مُنْتَفِي لَا وُجُودَ لَهُ .

وَلَمْ يَكُنْ يَعْنِيهِ مِنْ وُجُوهِ الشَّبَهِ وَالْمُمَاثَلَةِ إِلَّا مَا هُوَ شَرِكَةٌ يَيْتَنَا وَبَيْنَ تِلْكَ الدَّوَابِّ ، مِنَ الْعَنَاصِيرِ الْجَوَهِرِيَّةِ وَالْحَوَافِزِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْفَرَائِزِ الْأَصِيلَةِ .

وَقَدْ أَخْبَرَنِي السَّيِّدُ أَنْ بَعْضَ الْفُضُولِيِّينَ مِنَ الْجِيَادِ قد رَاقَبُوا أَحْوَالَ هَذِهِ الدَّوَابِّ ، وَرَأَوْا أَنَّ لَكُلَّ سِرْبٍ مِنْ أَسْرَاهَا — غَالِبًا — زَعِيمًا يَتَرَأَّسُهُ الْقَطْيَعَ . وَيَمْتَازُ هَذَا الرَّئِيسُ عَنْ سَائِرِ الدَّوَابِّ بِأَنَّهُ أَوْفَرُهَا دَمَامَةً ، وَأَشَدُّهَا حَمَاقَةً ، وَأَشَنْعَهَا لُؤْمًا .

وَلَهُدَا الزَّعِيمُ — عَادَةً — نَدِيمٌ مُقْرَبٌ إِلَيْهِ ، يَصْطَفِيهِ مِنْ بَيْنِ الدَّوَابِّ ، لَا نَهُ أَدْنَى إِلَيْهِ شَبَهًا ، وَأَقْرَبُ إِلَى حَمَاقَتِهِ وَغَبَائِهِ . . .
وَمِنْ خَصَائِصِ النَّدِيمِ أَنَّ يَهْرِجَ لِلرَّئِيسِ ، وَيَلْعَقَ أَرْجُلَهِ .

وَلَا يَدْخُرَ جهداً فِي تَمْلِيقِهِ وَمُمَاسَحَتِهِ، فِي كَافِشَةِ الزَّعْيمِ بِقَطْعَةٍ مِنْ لَحْمِ حِمَارٍ، جَزَاءً لَهُ عَلَى تَقَانِيهِ فِي إِخْلَاصِهِ وَتَمْلِيقِهِ!

وَيَتَمَتَّعُ هَذَا النَّدِيمُ بِمَقْتِ جَمِيعِ أَقْرَانِهِ، وَكَراهِيَّتِهِمْ وَاحْتِقارِهِمْ! وَهُوَ لَا يُطِيقُ الْبُعْدَ عَنْ رَئِيسِهِ، وَلَا يَرَالُ يَنْسَعُ بِيَقْتِهِ وَعَطْفِهِ، حَتَّى يَظْهُرَ لَهُ مُنَافِسٌ يُبَرُّهُ فِي قُبْحِ الشَّكْلِ، وَخُبُثِ السَّرِيرَةِ، وَدَمَامَةِ الْوَجْهِ؛ فِي دِينِ الرَّئِيسِ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَيَقْرَبُهُ إِلَيْهِ، وَيُقْصِيَ النَّدِيمَ الْأَوَّلَ.

وَلَا يَكادُ النَّدِيمُ يَفْقِدُ عَطْفَ سَيِّدِهِ وَقَتْهَ، حَتَّى تَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْقَطِيعِ وَرِجَالُهُ – مِنْ أَخْدَاثِ وَشُيوخِ – فَيَنْهَا لَوْا عَلَيْهِ كَمَّا وَضَرَبَنَا، وَرَكَلَا وَنَطَحَا، بِأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَرُؤُسِهِمْ؛ ثُمَّ يُفْرِغُوا عَلَيْهِ كُلَّ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ أَقْذَارٍ.

وَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَقَابُ خَيْرًا جَزَاءً عَادِلًا يَلْقَاهُ النَّدِيمُ السَّاقِطُ.

ثُمَّ حَمَّمَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ صَاهِلًا:

« وَلَسْتُ أَذْرِي إِلَى أَيِّ مَدَى يَنْطَبِقُ هَذَا الْمَثَلُ عَلَى سَادَاتِكُمْ وَنَدَمَاتِهِمُ الْمُمْضَطَفَيْنَ فِي بَلَادِكُمْ! »

وَشَعِرْتُ بِمَرَأَةِ النَّقْدِ الْلَّاذِعِ ، وَقُسْوَةِ التَّهَكُّمِ الْفَاتِحِ ، الَّذِي يُسْخِرُ مِنَ الْذَّكَاءِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَيُكْسِفُ عَنِ عَوَارِهِ وَضَعِيفِهِ ، وَيَجْعَلُهُ أَقْلَى مَنْزِلَةً مِنْ كَلْبِ الصَّيْدِ ؛ فَهُوَ إِنْ قَلَّ عَنَّا ذَكَاءً ، لَا يُخَدِّعُ فِي الْإِهْتِدَاءِ إِلَى كَلْبِ أَوْفَرَ مِنْهُ فِطْنَةً ، وَأَكْثَرَ دُرْبَةً ، يُرْسِلُهُ إِلَى طَرَائِقِ الصَّيْدِ ، وَيَهْدِيهِ دُونَ أَنْ يُغَرِّرَ بِهِ ، أَوْ يَتَنَكَّرَ لَهُ !

ثُمَّ حَدَّثَنِي السَّيْدُ عَنِ الْمُشَاجِرَاتِ الَّتِي تَنْشَبُ بَيْنَ ذُكْلُورِ «الْيَاهُو» وَإِنَاثِهِ ؛ وَاتَّخَذَ مِنْهَا دَلِيلًا عَلَى خِسْنَةِ «الْيَاهُو» ، وَدَنَاءَتِهِ ، وَبَلَادَةِ طَبِيعِهِ . وَلَمْ أَكُنْ قَدْ حَدَثْتُهُ عَمَّا يَقْعُدُ فِي بَلَادِنَا مِنْ أَمْثَالِهَا . وَأَدْهَشَهُ - فِيمَا أَدْهَشَهُ مِنْ حِفَافَتِ «الْيَاهُو» - أَنَّهُ مَفْتُونٌ بِالْقَدَارَةِ ، هَائِمٌ بِالْأَرْجَاسِ ، وَأَنْ أَىْ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الدَّوَابِ لَا يُدَاينِيهِ فِي هَذِهِ الْمَنْزَلَةِ .

وَلَقَدْ وَدِدْتُ لَوْ كَانَ فِي تِلْكَ الْبَلَادِ خَنَازِيرٌ ؛ لِأَدْلُلَ لِلسَّيْدِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الدَّوَابَ لَا تَقِلُّ فِي قَدَارِهَا عَنِ «الْيَاهُو» . وَمَا كَانَ أَجْدَرَهُ بِالْإِقْتَاعِ بِصِحَّةِ رَأِيِّ إِذَا رَآهَا وَهِيَ تَتَمَرَّعُ فِي الْوَحْلِ - كَمَا يَفْعُلُ

« اليهو » – وَتَلِّهِمُ الْأَخْبَاثَ وَالْجِيفَ .
وَلَكِنَّ الْخَنَازِيرَ – لِسُوءِ الْحَظْ – لَا وُجُودَ لَهَا فِي تِلْكَ الْبَلَادِ .

ثُمَّ أَفْضَى إِلَى السِّيدُ بِعَجِيْبَةِ أُخْرَى مِنْ عَجَائِبِ « اليهو » ، الَّتِي
شَاهَدَهَا خَدْمَهُ – وَلَمْ يَرَهَا بَعْنَيْنِهِ – وَهِيَ أَنَّ بَعْضَ « اليهو » يَخْلُو
لَهُ أَحِيَانًا أَنْ يَنْتَحِرَ نَاحِيَةً قَصِيَّةً ، حِيثُ يَرْقُدُ وَيُلْقِي بِنَفْسِهِ فِي الثَّرَى ،
وَيَصِيغُ بِاَكِيَا مُعْوِلاً ، وَلَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى أَحَدًا مِنْ أَقْرَانِهِ يَدْنُو مِنْهُ .
وَالْعَجِيبُ أَنَّ هَذَا « اليهو » سَمِينٌ شَبَّاعٌ رَّيَانٌ ، لَا يُعُورُهُ غِذَاءٌ
وَلَا شَرَابٌ . وَلَمْ يَهْتِدْ أَحَدٌ إِلَى سِرِّ الْوَعِيلِ ، وَمَصْدِرِ الْآلَمِ . وَلَكِنَّ
الْخَدَّامَ مِنَ الْجِيَادِ الْأَذْكَيَاءِ فَطَنَوْا إِلَى عَلَاجِ هَذَا الدَّاءِ ، فَأَصْبَحُوا كُلُّمَا
ظَهَرَتْ أَغْرَاضُهُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ « اليهو » أَقْحَمُوهُ فِي عَمَلٍ مُرْهِقٍ شَاقٍ ؛
فَلَا يَلْبِسُ أَنْ يَعُودَ إِلَى هُدُوئِهِ ، وَيَشُوبَ إِلَيْهِ رُشْدُهِ .

وَظَلَّلْتُ أُمْنِيَ إِلَى هَذِهِ الْمَلَاحِظَاتِ الْقَاسِيَةِ ، مَتَّلِّمًا صَامِتًا ، لَا أُحِيرُ
جَوَابًا ؛ لَا أَنْتَ أَحِبُّ أَبْنَاءَ جِلْدَتِي ، وَلَا أَجِدُ مَا أَدْفَعَ بِهِ عَنْهُمْ غَائِلَةَ
النَّقْدِ الْأَلَيمِ .

وَتَكْشِفَ لِي – حِينَئِذٍ – أَنْ هَذِهِ الْحَالَ الَّتِي يَصِيفُهَا السِّيدُ الْجَوَادُ،
لَا تُصِيبُ – عَادَةً – إِلَّا الْمُتَرَفِّينَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ الْكُسَالَىِ .
وَرَأَيْتُ أَنَّ هَذِهِ الْعَلاجَ هُوَ – عَلَىِ الْحَقِيقَةِ – أَجَدَرُ دَوَاءِ لِأَمْثَالِ
هُولَاءِ الْمُتَبَطِّلِينَ .

شِمَ أَنْفَسَ إِلَيَّ السِّيدُ بِمَا يَأْخُذُهُ عَلَىِ نِسَاءِ «الْيَاهُزِ»؛ فَكَانَنَا كَانَ
يُحَدِّثُنِي عَمَّا أَعْرِفُهُ مِنْ غَرَائِزِ النِّسَاءِ عِنْدَنَا .
فَاسْتَوْلَتْ عَلَىِ الدَّهْشَةِ وَالْحُزْنِ، لِمَا رَأَيْتُهُ مِنَ التَّدَلِّيِ وَالْأَرْتِكَاسِ
فِي طَبَائِعِ النَّاسِ، عَلَىِ الْخِتَالِفِ الْأَلْوَانِ وَتَبَاعِينِ الْأَجْنَاسِ .

الفصل الثامن

١ - في حظائر « اليهو »

لعل أعرَفُ بالطبيعة الإنسانية من ذلك السيد، أو - على الأقل -
هذا هو ما أفترضه ! فإذا صَحَّ ذلك ، فِمَنْ يُسِيرُ عَلَىْ أَنْ أَطْبِقَ
آرَاءَهُ عَلَىْ بَنِي جِنْسِي ، وَأَتَعْرَفَ مِقدارَ مَا تَخْوِيهِ مِنْ صِدْقِي .

وقد خَيَلَ إِلَيْيَّ أَنَّ قَادِرًا عَلَىْ أَكْشِفَ عَنْ خَصائِصِ « اليهو »
الْأُخْرَى ، إِذَا سَمِعَ لِي السَّيِّدُ بِمُرَاقبَتِهِ فِي حَظَائِرِهِ وَمُرُوجِهِ .

وقد أَجَابَنِيَ السَّيِّدُ إِلَى طَلْبَتِي ؛ لِأَنَّهُ مُفْتَسِنٌ بِكَراهِيَّتِي وَمُفْتَى لِهُذَا
الجنسِ الْخَيْثِ . وَلَمْ يَخْشَ أَنْ أَتَأْتِرَ هَذِهِ الدَّوَابَّ فِي عَادَاتِهَا
وَأَخْلَاقِهَا . وَلَكِنَّهُ رَأَى أَنْ يَحُوْطَنِي مِنْ مَكْرِهِا ، وَيَحْمِيَنِي مِنْ
أَذِيَّتِهَا . فَوَكَلَ بِي جَوَادًا كَيْرًا أَشَقَّرَ - مِنْ خَدَمِهِ - لِيَذُودَ عَنِ
مَكْرَ « اليهو » وَأَذَاهُ .

وَلَمْ أَكُنْ قَدْ نَسِيَتُ إِسَامَةَ هَذِهِ الدَّوَابَّ إِلَى حِينَ حَلَّتُ الْجَزِيرَةِ .
وَلَمْ أَنْسَ أَنَّنِي تَعَرَّضْتُ لِأَذَاهَا - فِيمَا بَعْدُ - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَانِ .

وقد كادت تُفْرِسِنِي حين رأته بعيداً عن المنزل، لولا أنني أُفْقِدْتُ من بين مَخالِبِها بِمُعْجِزَةٍ خارقةٍ . و كنتُ أرجُحُ أنَّ دواب « الياهو » تَعْذِنِي من أقرانِها ، و تَوَى فِي مَثَلًا من أبناء جنسها ؛ فكشتُ عن صدرِي ، و خسرتُ عن ذراعي ؛ لِأُقْبِلَهَا أَنْتَ على شَكِّلِتها . فاقتربَتْ مِنِّي ، و صارتْ تُهَلِّكُ حركاتِي و إشاراتِي ، هازِنَةً ، ساحِرةً ، كَمَا تَقْعُلُ الْقِرَدَةُ . و لم تستطعْ إيدائِي ، لأنَّها رأتِي في كَنْفِ الجوادِ الأشقرِ .

ثم أمسكتُ بِطِفلٍ صغيرٍ – لا يتجاوزُ الثالثةَ من عُمُرهِ – ولا اطْفُلُهُ – جُهْنِدي – و ربَّتْ كَتِفَهُ لِأُونِسَهُ وَأَسْكَنَتْهُ من رَوْعِهِ (أَمْهَدَهُ مِنْ فَرَزِعِهِ) ؛ فلم يَزَدْ الشَّيْطَانُ الصَّغِيرُ إِلَّا ثَوْرَةً وَهِيَاجًا : غلا صُراخُهُ ، وَظَلَّ يَخْمِشُنِي بِأَظافِرِهِ ، وَيَعْصُنِي بِأَسْنَانِهِ ؛ حتى اضطُرَّتِي إِلَى أَنْ أَتَجَهَّمَ لَهُ . فَأَسْرَعَ سِرْبٌ مِنْ « الياهو » إِلَى لِيُنْقِدَهُ ، فرأَى ذَلِكَ الصَّغِيرَ يَعْدُو أَمَامِي هارِبًا ، وَرَأَى الجوادَ الأشقرَ إِلَى جانبي ؛ فلم يَجِدُهُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْ .

٢ - قَدْرَةُ «الْيَاهُو»

وَشَمِّتْ رَايَةَ كَرِيهَةَ مُنْتَنَةَ ، تَبَيَّثَ مِنْ تِلْكَ الدَّوَابَ ، وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَى رَايَةِ الْكَرْكَدَنِ وَالشَّعْلَبِ ، وَإِنْ كَانَ تَفُوقُهَا بَشَاعَةً وَتَنَانًا .

وَقَدْ فَاتَنِي أَنْ أَذْكُرُ لِلقارِئِ - وَأَرْجُو أَنْ يَفْرَغَ لِي هَذَا النُّسْيَانَ -

أَنَّى لَمْ أَمْسِكْ بِذَلِكَ الطَّفْلِ
الْخَيِثِ ، حَتَّى لَوْتَ ثِيَابِيِ .
وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي ، أَنْ
وَجَدْتُ عَدِيرًا مِنَ الْمَاءِ
عَلَى مَقْرَبَةِ مِيَّنِ ، فَبِذَلِكُ
جَهْدِي فِي تَنْظِيفِ الثِّيَابِ ؛
حَتَّى لَا يَرَاهَا السَّيْدُ الْجَوَادُ
- إِذَا عُدْتُ إِلَيْهِ - قَدْرَةُ
كَرِيهَةِ الرَّائِحةِ .



وقد أقنعني المشاهدة والاختبار أن دواب « الياهو » هي أقل الدواب صلاحية للتعليم ، لأن كفايتها لا تندو بجر المركبات ، وحمل الأثقال .

وعندي أن مرد هذا النقص عائد إلى خيالها وعنادها ولوم طويتها ؛ فهي — على قوتها وشدة بأسها — تمثل الجبن والندالة والقسوة . وقد رأيت أن ذات الشعر الأحمر — من جنسها : الذكور والإثاث — هي أشدّها حمافة ، وأعظمها قوّة ، وأوفرها نشاطاً .

ومن عادة الجياد الناطقة أن تُقرِّد لخدمها — من « الياهو » — أكوانها على مسافة لا تبعد كثيراً عن منازلها ، ثم ترك سائر دواب « الياهو » سائمة في المقول ، ترتعى جذور الأرض وحشائشها ، وتتلمّس غذاءها من الحيف والفار وبنات عرس؛ وترزد ردها في شرم وجشع . وقد مررت بطبعها على أن تخفر بأظافرها حفرًا عميقاً في سفوح التلال والهضاب ، ثم ترقد فيها ،

وتَتَّخِذُ منها أَجْحَارًا تَأْوِي إِلَيْها . وَهِيَ تُدْرِبُ صِنَارَهَا عَلَى السُّبَاحَةِ فِي الْمَاءِ مِنْذُ حَدَاثَتِهَا ، فَتَبِقُ فِي قَاعِهِ كَالْفَنَادِعِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَتَظَلُّ بِأَحِيثَةٍ عَنِ السَّمَكِ ، لَتَعُودَ بِهِ إِلَى أَجْحَارِهَا .

٣ - خَصَائِصُ الْجِيَادِ

وَقَدْ قَضَيْتُ فِي تِلْكَ الْبَلَادِ سَنَوَاتٍ ثَلَاثَةٍ كَامِلَةً . وَمَا أَحْسَبُ الْقَارِئَ إِلَّا مُطَالِبِي بِأَنْ أُشْهِبَ الْقَوْلَ فِي أَخْلَاقِ السَّادَةِ الْجِيَادِ وَعَادَاتِهِمُ الَّتِي تَوَفَّرَتْ عَلَى دَرْزِهَا فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِي ؛ فَهَدَ أَلْفَ الْقَارِئِ مِنْ أَفَاصِيصِ السَّائِحِينَ أَنْ يُعْنِوا بِأَمْثَالِ هَذِهِ الشُّؤُونِ .

عَلَى أَنِّي ذَكَرْتُ الْكَثِيرَ مِنْ أَخْلَاقِ الْجِيَادِ . وَقَدْ رَأَيْتُهَا : سَرِيَّةَ النَّفْسِ ، كَرِيمَةَ الشَّمَائِلِ ، مُتَحَلِّيَّةَ بِأَكْرَمِ الْفَضَائِلِ ، تَتَّخِذُ مِنَ الْعُقْلِ مُرْشِدًا إِلَى الْخَيْرِ ، وَهَادِيًّا إِلَى السَّدَادِ ، وَلَا طَاقَةَ لَهَا بِالْجَدَلِ وَالْمُنَاقِشَةِ وَالثَّرَثَرَةِ . وَهِيَ لَا تَتَشَكَّكُ فِي شَيْءٍ ، وَلَا تُعْنِي بِوُجُوهِ الرَّأْيِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْمَسَأَةِ الْوَاحِدَةِ .

وَلَقَدْ شَخِرَ مِنْ السَّيِّدِ الْجَوَادِ حِينَ سِمِعَنِي أَتَحدُثُ عَنِ الْفَلْسَفَةِ

الطبيعية وآراء الفلسفية فيها — من قدماء ومحدثين — وعجب من عناية العقلاء بامتثال هذه الظنون والأوهام . فهو — بهذا — يتفق مع فلسفة « سocrates » ، التي جاءنا بها « أفلاطون » ! وإلى لا كاشف القاري أنني أرى في هذه المواقف أعظم شرف أصحابه أمير الفلسفه؛ فقد تمثلت لي — حينئذ — جنابه هذه المذاهب الفلسفية على المؤلفين والقراء .

ومن أخص خصائص هذه الجياد : الألفة ، وإكرام الغريب . فهى تعامل إخوانها من الجياد الفرباء التي فى أقصى العجزة — حين تحل عندها — معاملة الآخرين ، وتلتقاها فى أدب واحتشام ، وإن كانت تجهل كل ما تواضعتنا عليه من أساليب المجادلة الزائفية والتسليق السخيف .

وهي تعنى بتاريخها عنایة عاقلة رشيدة ، لا يفسدُها ما ألفناه من آياتنا من حنوث وتدليل .

وهذه الجياد — على اختلاف بلادها — متحابة متعاطفة ، بعيدة عن الأهواء والأرجاس ، متحللة بالوفاء والإنسان . ولم أر فيها زوجة

تُعْقِّبُ زَوْجَهَا، وَلَا زَوْجًا يَفْدِرُ بِزَوْجِهِ. وَلِيسَ بِيَنْهَا شِجَارٌ وَلَا نِزَاعٌ.
وَحِيَاتُهَا صَافِيَةٌ لَا كَدْرَ فِيهَا، فَهِيَ لَا تَفْضَبُ وَلَا تَهْتَاجُ. وَهِيَ تُسَوِّى
فِي الْمُعَالَمَةِ بَيْنَ الْإِنَاثِ وَالذَّكُورِ، وَتُدَرِّبُ صِفَارَهَا مِنْذُ حَدَائِثِهَا عَلَى
الْعَمَلِ، وَالرِّيَاضَةِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّبَاقِ مِنْ أَعْلَى التُّلَالِ إِلَى أَسْفَلِهَا،
وَتَمْرَنُهَا عَلَى الْجَرْنِيِّ فَوْقَ الْأَرَاضِيِّ الصَّخْرِيَّةِ.

وَهِيَ تُدَرِّبُ السِّهَارَ عَلَى السُّبَاحَةِ وَالْغَوَصِ، وَتُقْيمُ لِذَلِكَ حَفَلَاتٍ
أَزْبَاعَافٍ خِلَالِ الْعَامِ، لِتُظْهِرَ مَهَارَتَهَا فِي الْجَرْنِيِّ وَالْقَفْزِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ
مِنْ أَسَابِبِ الرِّيَاضَةِ. ثُمَّ تُكَافِي الْبَارِعَ السَّبَاقَ بِنَشِيدٍ تُعَدُّ فِيهِ
مَزَايَاً، وَتُتَشَّنِي عَلَيْهِ أَخْسَنَ النَّسَاءِ.

وَتَجْعِي «الْخَدْمُ» بِسِرْبٍ مِنْ دَوَابٍ «الْيَاهُو» يَحْمِلُ طَعَامَ الْجِيَادِ :
مِنْ حَشِيشٍ يَابِسٍ وَشُوفَانٍ وَلِبَنٍ ، إِلَى مَكَانِ الْحَفَلَةِ . ثُمَّ تَرْجِعُ الدَّوَابَ
مِنْ حِيثُ أَتَتْ، حَتَّى لَا تُكَدِّرَ صَفَوَ الْإِجْتِمَاعِ !

٤ - مَجَمُوعُ الْجِيَادِ التَّاطِقَةِ

وَفِي كُلٌّ سَنَوَاتٍ أَرْبَعَ تَعْقِدُ الْجِيَادُ - فِي الْغَرِيفِ - مَجَمِعًا
عَامًا يُمْثِلُ فِيهِ الْجِيَادُ جَمِيعَ الطَّوَافِنِ ، فِي سَهْلٍ فَسِيرٍ يَبْعُدُ عَنْ

منزل السيد الجواد عشرين ميلاً . ويظل هذا المجمع خمسة أيام أو ستة ، وتعرض فيه أحوال الأقاليم المختلفة وما أخرجته من الحاصيلات من حشيش وشوفان ، ويُحصى فيه عدد البقر و «الياهو» . فإذا رأوا عجزاً أو نقصاً - وقليلاً ما يحدث ذلك - اشتركوا في تلافي أسبابه .

ويُعنى هذا المجمع بتوزيع الأبناء توزيعاً عادلاً . فإذا رُزق أحد العياد ولدين ، ورُزق آخر بنتين ؛ قسم المجمع بينهما قسمة عادلة . وإذا فقد أحد الآباء ولده في حادث من الأحداث الفجائية وبلغت أمه سن اليأس ، قرر لها المجمع ولداً يحل محله ، تقدّمه إحدى الأسر التي أنجبت من المهاجر أكثر مما أنجبه غيرها .

الفصل التاسع

١ - مُناقشةُ المجتمع

عقدَ مَجْمُوعُ الْجِيَادِ جَلْسَاتِهُ الْحَافِلَةَ قَبْلَ أَنْ أُغَادِرَ الْبَلَادَ بِسَهْوٍ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ . وَكَانَ السِّيدُ مِنْ أَعْضَايْهِ : نَائِبًا عَنْ إِقْلِيمِهِ ، وَمُمْثِلًا لَهُ فِيهِ . وَدَارَ الْبَحْثُ فِي مَسَأَلَةِ الْمَسَائِلِ الَّتِي شَفَلَتْ بِالْجِيَادِ النَّاطِقَةِ زَمْنًا طَوِيلًا ، وَهِيَ الْمَسَأَلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَشَعَّبَتْ فِيهَا آرَاءُ الْجِيَادِ وَاقْسَطَتْ .

وَقَدْ قَصَّ عَلَى السِّيدِ - بَعْدَ عَوْدَتِهِ - كُلَّ مَا دَارَ مِنْ الْحِوارِ . وَكَانَ شُغْلُ الْمَجْمُوعِ الشَّاغِلُ أَنْ يَبْتَتَ أَمْرَ « اِلْيَاهُو » ، وَأَنْ يُصْنِدِرَ قَرَارًا حَاسِمًا فِي هَذِهِ الْمَسَأَلَةِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي حَارَ فِيهَا الْمُصْبِلُاجُونَ !

وَكَانَ نَصُّ الْإِقتْرَاحِ : أَنْ يَقْرُرَ الْمَجْمُوعُ اسْتِفْسَالَ الدَّوَابِ الْأَدَمِيَّةِ ، وَإِيَادَتِهَا جَمِيعًا مِنْ جَزِيرَةِ الْجِيَادِ !

٢ - أَضْلُلُ «الْيَاهُو»

وقد انتصر أحد الأعضاء لهذا الاقتراح، وأيدَهُ - في حماسة - وحِمَّحَ صاحبَهَا:

«إنَّ هَذَا الْجِنْسَ الْأَدْمِيَّ هُوَ أَفْلَعُ الدَّوَابِ شَكْلًا، وَأَقْبَحُهَا صُورَةً، وَأَلَامُهَا نَقْسًا، وَأَشَدُهَا تَثْوِيهًًا، وَهُوَ أَقْدَرُ حَيْوَانٍ رَأَيْنَاهُ». ولم يَرَ مِنْ بَيْنِ الدَّوَابِ كُلُّهَا - عَلَى اختِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَتَبَاعِينَ أَوْصَافِهَا - دَابَةً وَاحِدَةً اجْتَمَعَتْ فِيهَا كُلُّ هَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْأَرْجَاسِ.

فَهَذِهِ الدَّوَابُ الْأَدْمِيَّةُ - كَمَا تَعْلَمُونَ - مُؤْذِنَّةٌ، عَصِّيَّةٌ، مُسْمَّرَّةٌ، شَدِيدَةُ الْبَحَاجِ. وَهِيَ تَنْتَهِزُ الْفُرَصَ لِتَحْلُبَ الْبَلَزَ مِنْ أَبْقَارِنَا خُلْسًا، وَلَا تَقْتَلُهُنِّمُ الْقِطْطَ، وَتَعِيشُ فِي حُقُولِنَا فَسَادًا: تَطَأُ الشَّوْفَانَ وَالخُضْرَةَ بِأَقْدَامِهَا كُلُّمَا سَنَحَتْ لَهَا فَرْصَةٌ، وَتَضْطَرُّنَا إِلَى حِرَاسَةِ الْحُقُولِ وَالْمَاشِيَّةِ - لَيلَ نَهَارَ - حَتَّى نَأْمَنَ شُرُورَهَا. وَلَيْسَ لِهُنَّا يَاتِ الدَّوَابُ الْأَدْمِيَّ الْعَمِيقَةُ الرَّغْنَاءُ حَدَّ تِقْفُ عَنْهُ. وَمَا أَخْبِبُكُمْ نَسِيمُ الْقَصَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي سَمِعْنَاها مِنْ أَسْلَافِنَا، عِنْ نَشَأَةِ هُوَلَاءِ الْأَدْمِيَّينَ :

قد حَدَّثُونَا أَنَّهُمْ لَمْ يُوجَدُوا مُنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ؛ بَلْ ظَهَرُوا مُنْذُ قُرُونٍ عَدَّةٍ. وَقَدْ خَلَقَ اثْنَانِ هُمَا جَدًا هَذِهِ الْمُخْلوقَاتِ : خُلِقَا مِنْ صَلْصَالٍ - فِي أَعْلَى الْجِيلِ - بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَشِعَّتَهَا، وَأَنْضَبَتْهُ حَرَارَتَهَا. أَوْ لَعَلَّهُمَا خَرَجاً مِنْ قَاعِ مُسْتَنقَعٍ، أَوْ تَكُونَا مِنْ طَنْيِ الْبَحْرِ. ثُمَّ تَوَالَّدَ هَذَانِ الْأَدَمِيَّانِ، وَتَكَاثَرَ نَسْلُهُمَا، فَكَانَ شَرُّ نَكْبَةٍ مُُنِيتٍ بِهَا يَلَادُنَا.

وَقَدْ ضَجَّرَ أَسْلَاقُنَا بِهِمْ، وَضَاقُوا ذَرْعَانِي بِأَذْاهُمْ وَشَرَّهُمْ، فَقَرَّرُوا إِبَادَهُمْ جَمِيعًا، لَمْ يَسْتَفِنُوا إِلَّا بَعْضَ الْأَطْفَالِ.

وَآتَرَ كُلُّ جَوَادٍ أَنْ يَدْخُرَ صَغِيرَتِنِ، لِيَتَأْفِهُمَا - مُنْذُ حَدَاثِهِمَا - وَيَرْوِضُهُمَا عَلَى جَرِ الْمَرْكَبَاتِ، وَحَمِلُ الْأَثْقَالِ.

وَهَذِهِ الْأَقْصُوصَةُ - فِيمَا أَرَى - لَهَا نَصِيبٌ كَيْرٌ مِنَ الصِّحَّةِ؛ فَإِنَّ الْأَدَمِيَّينَ لَمْ يَكُونُوا - فِي يَوْمِ مِنَ الْأَيَّامِ - مِنْ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْبَلَادِ، بَلْ دُخَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ : أَنَّهُمْ مَكْرُوْهُونَ مِنْ دَوَابِ الْأَرْضِ قَاطِبَةَ. وَمَا أَجْدَرَهُمْ بِهَذَا الْمُقْتَرِنِ، لِقَسَادِ سَرَاوِهِمْ وَلُؤْمِ طِبَاعِهِمْ! وَلَوْ كَانُوا أَصْلَاءَ فِي الْبَلَادِ، لَمَا نَشِبَ هَذَا النُّفُورُ الْمُسْتَخْكِمُ

فِي طَوِيلِ الْمُصُورِ ، وَلَنَفَّ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى مَرَّ الزَّمْنِ .

٣ - « اليامِهُ » والْحَمِيرُ

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْمُصْوَرُ الْمُخْتَرُ صَاهِلًا :

« وَلَسْتُ أَدْرِي : أَيْ فِكْرَةٍ خَاطِئَةٍ أَوْقَتَتْ أَسْلَاقَنَا فِي هَذِهِ
الْوَزْطَةِ ؟ وَمَاذَا أَصَابَ عُقُولَهُمْ حِينَ آتُوهُمْ أَصْنِطُنَاعَ الْأَدْمَيْنِ ،
وَأَهْمَلُوهُمْ أَصْنِطُنَاعَ الْحَمِيرِ ؟ وَمَا بِالْهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ الْأَوَّلَيْنَ وَيَنْسَوْنَ
الآخَرَيْنَ ؟

إِنَّ الْحَمِيرَ مِنْ أَكْرَمِ الدَّوَابِ أَخْلَاقًا ، وَأَهْدَيْتَهَا نَفْسَكَ ، وَأَشَدَّهَا
إِنْسَانًا . وَهِيَ سَهْلَةُ الْقِيَادِ ، لَا تَكِلُّ مِنَ الْعَمَلِ ، وَلَا يُكَلُّفُنَا طَعَامُهَا
شَيْئًا مَذْكُورًا . وَلَيْسَ كَرِيهًةً الرَّائِحةُ كَأُولَئِكَ الْأَدْمَيْنِ .

وَهِيَ قَوِيَّةُ الْبَاسِ ، عَظِيمَةُ الصَّبَرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِثْلٌ نَشَاطُ الْأَدْمَيْنَ
وَسُرْعَاتُهُمْ . وَلَيْسَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ إِلَّا صَوْتُهَا الْمُنْكَرُ ، وَتَهِيقُهَا
الْمُفْزِعُ وَلَكِنَّهُ — عَلَى نُكْرِهِ وَبَشَاعِتِهِ — أَقْلَعَ إِزْعاجًا مِنْ
أَصْوَاتِ الْأَدْمَيْنِ وَصَيْحَاتِهِمْ . »

٤ - عَلَاءُ «الْيَاهُو»

ثم أدى كثير من شيوخ الجياد - في ساحة المجمع - بآرائهم في هذه المسألة الخطيرة؛ وكانت آراؤهم ناضجة، وعباراتهم فصيحة. ثم قام صاحبى السيد الجواد، وأقر آراء من سبقه من شيوخ الجياد، وتصدى لتلك الأسطورة المتواترة التي تلخص أصل «الياهو» ونشاته في بلادهم، فمحمد صالحًا:

«ما أحسّبُنَا مخدوعاً فيما أرَاهُ فِي هَذِهِ الْمَسَأَةِ التَّارِيخِيَّةِ

الخطيرة .

فإنَّ أَرَى الْأَدْمَيْنَ الَّذِينِ تُحَدِّثُنَا عَنْهُمَا الْأَقْصُوصَةُ، قد وَفَدَا

عَلَى أَرْجُنَا مِنْ بَلَادٍ بَعِيدَةٍ جَدًا، ورَاءَ هَذَا الْبَحْرِ السَّاحِيقِ .

وقد أَنْزَلَهُمَا رِفَاقُهُمَا إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ تَرَكَاهُمَا؛ فَذَهَبَا إِلَى الْجَبَالِ

وَالْفَيَابَاتِ، وَخَالَطَا الْوُحُوشَ: فَتَوَحَّشَا .

وَلَمْ يَلْبِسْ نَسْلُهُمَا مِنْ «الْيَاهُو» أَنْ اخْتَلَفَ عَنْ أَنْجَدَادِهِ الْأَوَّلَيْنَ .

وَرَأَى السَّيِّدُ الْجَوَادُ أَنْ يُعَزِّزَ كَلَامَهِ لِلْأَعْضَاءِ الْمُحْتَرَمِينَ ،

فاستشهد بما عرفه من الحقائق التي أفضيتُ بها إليه؛ وكان سوادُ الحاضرين قد رأني من قبل، فامنَّ على رأيه.

ثم حذهم السيد الججاد عن المصادفة التي آتاحت لهم مقابلتي، وكيف رأى جسحي مدرّساً بثياب متّسوجة من الشعر، أو مصنوعة من جلد الدواب؟ وكيف رأني أتحدث بلغة بلادي، ثم لا أعجز عن درس لغتهم الصاھلة، والحمدمة بها، في سهولة نادرة.

وقص عليهم قصبة وفودي على جزيرتهم، وكيف رماني رفافي على الشاطئ، وكيف تكشفت له أمري — بعد زمان — حين رأى جسدي عارياً، واقتنع بأنني آدمي حقاً، وإن كنت أبضم اللون، قليل الشعر، قصير المخالب.

ثم استأنق يخاطب الأعضاء صاحلاً:

« ولا أكُم أن هذا الغريب الآدمي أراد أن يعني أن الآدميين من أمثاله — في أكثر البلدان التي مرّ بها — هم سادة الدواب كلّها، وأنهم — وحدم — العلام الراشدون، والمسينطرون العاكِمون، حتى على الجياد. فقد أخبرني أنَّ الجياد — في

بلادِم - مِنَ الْأَرْقَاءِ ! » ثُمَّ عَقَبَ عَلَى ذَلِكَ صَاهِلاً :

« وَهُدَا الْأَدَمِ » - عَلَى التَّحْقِيقِ - جَمِيعُ الظَّاهِرِ الْأَدَمِيَّةِ الَّتِي
نَرَاهَا فِي « يَاهُو » بِلَادِنَا . وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُ حُضَارَةَ مِنْهُمْ : لَأَنَّهُ
مُسْكَنَةَ ضَيْئَةَ مِنَ الْعُقْلِ (قَلِيلًا مِنَ الْعُقْلِ) ؛ فَعَقْلُهُ - عَلَى كُلِّ
حَالٍ - دُونَ عَقْلِنَا مَعْشَرَ الْجِيَادِ ، بِمَرَاحلَ كَثِيرَةِ . »
ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِمُ الْأَسْلُوبَ الَّذِي تَبَيَّنَهُ - نَحْنُ « يَاهُو » - فِي تَرْوِيَضِ
الْجِيَادِ وَتَذْلِيلِهَا فِي بِلَادِنَا كَمَا سَمِعْتُمْ مِنِّي ، وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمُ أَنْ يَقْبِسُوا
هَذَا النَّظَامَ فِي بِلَادِمْ ، وَيُطَبَّقُوهُ عَلَى الْأَدَمِيَّينَ .

ثُمَّ خَتَمَ حِطَابَهُ صَاهِلاً :

« وَهُذَا نَظَامٌ مِيسُورٌ سَهُلٌ » - كَمَا تَرَوْنَهُ - وَلَا هَارَ عَلَيْنَا إِذَا
حَاكَيْنَا هُؤُلَاءِ الْهَمَّاجَ الْمُتَوَحِشِينَ فِي بَعْضِ مَا يَعْمَلُونَ ؛ فَقَدْ عَلَمْتَنَا
النَّفَلَةَ كَيْفَ تُصْبِحُ صُنَاعَةً مُدَبِّرَةً ، كَمَا عَلَمْنَا الشَّخْرُورَ كَيْفَ تَبْنِي
بُيُوتَنَا . وَلَا عَلَيْنَا إِذَا حَمَلْنَا صِفَارَ الْأَدَمِيَّينَ عَنْدَنَا كَمَا يَعْمَلُونَ فِي
بِلَادِمْ أَخْدَاثَ الْجِيَادِ وَصِنَارَ الْأَقْرَاسِ ؛ لِنَذَلِّلَهُمْ لَنَا - كَمَا ذَلَّلُوهُمَا
لَهُمْ - تَذْلِيلًا .

ولَنْ يَصُبَّ عَلَيْنَا أَنْ نُبَدِّلْ هَذَا الْجِنْسَ الْخَيْثَ شَيْئًا فَشَيْئًا — مَتَى
اتَّبَعْنَا هَذَا النَّظَامَ — دُونَ أَنْ تَعْرِمَهُ الْحَيَاةَ صَدْمَةً (دَفْعَةً وَاحِدَةً).
وَلَا يَفُوتُنِي — أَيُّهَا السَّادَةُ — أَنْ أُوصِيَكُمْ بِالْحُمْرِ خَيْرًا . فَهِيَ
— إِلَى مَزَايَاها الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَرْجَحُ بَهَا مَزَايَا « الْيَاهُو » — قَادِرَةٌ عَلَى
الإِضْطِلَاعِ بِأَعْمَالِنَا مَتَى بَلَغَتِ الْخَامِسَةَ مِنْ عَمْرِهَا . أَمَّا الْأَدَمِيُّونَ فَلَا
يَصِلُّونَ لِشَيْءٍ قَبْلَ الثَّانِيَةِ عَشَرَةَ . »

٥ - حَضَارَةُ الْجِيَادِ

هَذِهِ خُلاصَةُ مَا أَفْضَى بِهِ ذَلِكَ السَّيْدُ إِلَى ، مِمَّا دَارَ مِنْ حِوارٍ
بَيْنَ شِيوَخِ الْجِيَادِ وَنُوَّابِهَا . وَقَدْ كَتَمَ عَنِ آرَاءِهِمْ فِي أُمْرٍ بَقَائِيْ أوْ
طَرْدِيْ منْ بَلَادِهِ ، وَظَلَلَتْ زَمَنًا لَا أَذْرِي شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ
حَتَّى فُوِجِئْتُ بِهِ .

وَكَانَ هَذَا الْحَادِثُ مَبْدَأً شِقْوَتِيْ وَتَعَاسِيْ ، وَخَاتِمَةً هَنَائِيْ وَسَعادِيْ ،
وَمَصْدِرَ الْمُصَابِ وَالْآلامِ الَّتِي حَلَّتْ بِي فِيمَا اسْتَقْبَلْنَا مِنَ الْأَيَّامِ .
وَلَا يَفُوتُنِي أَنْ أُوْجِزَ حَضَارَةَ السَّادَةِ الْجِيَادِ ، كَمَا عَرَفْتُهَا فِي أَشْأَاءِ

إِقَامَتِي بَيْنَ ظَهَرَانِيهِمْ . فَهُمْ قَوْمٌ لَا يُعْنَوْنَ بِالْلُّغَةِ وَآدَابِهَا ، وَمَمْ يَجْتَرِئُونَ بِالنَّقْلِ ، وَلَيْسُوا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَدْوِينِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَقْعُدُ لَهُمْ : لَأَنَّ الْبَلَادَ فِي أَمْنٍ مِّنْ كُلِّ مُفَاجَأَةٍ : قَدْ يَسَّرَ لَهُمُ الْعُقْلُ طَرِيقَ السَّدَادِ ، وَهَدَتُهُمُ الْفَضْيَلَةُ إِلَى النَّجَاحِ وَالسَّعَادَةِ ؛ فَأَصْبَحَ تَارِيَخُهُمْ مَيْسُورًا سَهْلًا ، لَا يَصُعبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْفَظُوهُ .

وَهُمْ لَا يَمْرَضُونَ ؛ فَلَا حَاجَةٌ بَيْهُمْ إِلَى أَطْبَاءِ . وَقَدْ وُفِّقُوا إِلَى بَعْضِ الْحَشَائِشِ وَالْبَاتَاتِ النَّافِعَةِ الَّتِي تَضَمِّنُ جَرَاحَهُمْ إِذَا جُرِحُوا ، وَتُعَالِجُ سَنَابِكَهُمْ إِذَا أَصَابَهَا سُوءٌ . وَهُمْ يَخْسِبُونَ الزَّمَنَ بَعْدِ الدَّوْرَاتِ الشَّمِسِيَّةِ وَالْقَمَرِيَّةِ ، فَيُؤْرُخُونَ بِهَا سِنِيهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ تَقْسِيمَ الزَّمَنِ إِلَى أَسَايِعَ . وَهُمْ يَحْذِقُونَ حِرَكَاتِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَأَسْبَابِ الْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ ، وَهَذَا هُوَ مَلْعُونُ عِلْمِهِمْ فِي الْفَلَكِ .

وَهُمْ أَصْدِقُ الشُّعَرَاءِ ، وَأَبْرُعُهُمْ فِي الْوَصْفِ وَالتَّشْيِيدِ ؛ وَلَنْ يَسْتَطِعَ أَحَدٌ أَنْ يُجَاهِرِيهِمْ فِي ذَلِكِ . وَأَشْعَارُهُمْ تَفَيَضُ – فِي مَجْمُوعِهَا – بِالْإِلْحَاصِ وَالْوَفَاءِ ، وَالْإِشَادَةِ بِالصِّدَاقَةِ وَالْإِخْاءِ ، وَالْتَّنْفِي بِفَضَائِلِ السَّبَاقِينَ مِنْهُمْ ، الَّذِينَ يَفُوزُونَ فِي التَّمْرِينَاتِ الْرِّياضِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِهِمْ .

أَمَا مَا كَنُوكُمْ ، فلِيسْ فِيهَا شَيْءٌ مِّنَ التَّرَفِ ، بَلْ هِيَ مُخَشِّنةٌ^{*}
 غَيْرُ مَعْقُولَةٍ ، وَلَكِنَّهَا صِحِّيَّةٌ كَفِيلَةٌ بِوِقَايَتِهِمْ مِّنَ الْحَرَّ وَالْبَرْدِ
 عَلَى السَّوَاءِ . وَمَمْ يَسْتَعْمِلُونَ أَرْجُلَهُمُ الْأَمَامِيَّةَ – كَمَا نَسْتَعْمِلُ
 أَيْدِيَنَا – وَيَقْبِضُونَ بِرَاحَاتِهَا وَحَوَافِرِهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فِي مَهَارَةٍ
 وَرِشاقَةٍ نَادِرَتِينِ . وَقَدْ رَأَيْتُ فَرَسًا شَهِيًّا تُدْخِلُ الْخَيْطَ فِي سَمَّ الْخَيَاطِ
 (تُقْبِلُ الْأَبْرَةِ) بِلَا عَنَاءٍ ، وَتَحْلُبُ الْأَبْقَارَ ، وَتَجْتَثِّثُ الشَّوْفَانَ مِنَ
 الْحَقُولِ ، وَلَا تَعْجِزُ عَنِ عَمَلٍ يَدَوِيٍّ .

وَمَمْ يَتَخَذُونَ مِنَ الْحِجَارَةِ الصَّلِبَةِ فُؤُسًا ، وَمَلَاطِيسًا ، وَمَطَارِقًا ،
 وَمَنَاجِلَ ؛ يَعْتَشُونَ بِهَا الشَّوْفَانَ مِنَ الْحَقُولِ ، وَيَصْبِعُونَهُ عَلَى مَرْكَبَاتِ
 يَجْرِّهَا الْأَدْمِيُّونَ مِنْ «الْيَاهُو» ؛ ثُمَّ يَهُرُسُهُ الْخَدْمُ ، فَيُخْرِجُونَ مِنْهُ الْحَبَّ ،
 وَيَحْفَظُونَهُ فِي مَخَازِنِ سَادَتِهِمْ .

وَلِلْجِيَادِ قُدْرَةٌ عَجِيبَةٌ ، وَمَهَارَةٌ نَادِرَةٌ فِي صُنْعِ الْآِنَيَّةِ مِنَ
 الْأَجْرُّ وَالْخَشْبِ . وَمَمْ يُعَرِّضُونَ الْأَوَانِيَّةَ الْفَخَارِيَّةَ لِحَرَارَةِ الشَّمْسِ
 حَتَّى يَتِمَ جَفَافُهَا .

وَمَمْ – إِذَا نَجَوُا مِنْ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ وَخُطُوبِهِ – لَا يَمْوتُونَ إِلَّا

باليشيخوخة . وَمَمْ يُدْفَنُونَ فِي مَكَانٍ قَصِيرٍ شَدِيدُ الظُّلْمَةِ .
 وَلَا يَحْزَنُ أَصْدِقَاؤُهُمْ وَأَهْلُوْهُمْ عَلَيْهِمْ – إِذَا مَاتُوا – وَلَا يَجْزَعُونَ ،
 وَلَا يُبَدِّي الْمُحْتَضَرُ أَسْفًا وَلَا جَزَعًا لِّمُفَارَقَةِ الدُّنْيَا ؛ بَلْ يَشْعُرُ
 أَنَّهُ قَدِ اتَّهَى مِنْ زِيَارَتِهَا ، فَيُسْتَأْذِنُ أُسْرَتَهُ وَجِيرَانَهُ فِي الِانْصَارَافِ
 إِلَى بَيْتِهِ !



ولستُ أَنْسَى يَوْمَ دَعَا السَّيِّدُ بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ لِمُشارَكَتِهِ وَأُسْرَتِهِ
 فِي اجْتِمَاعٍ خَطِيرٍ . فَلَمَّا دَنَتْ سَاعَةُ الْمَوْعِدِ ، لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ
 الْمَدْعَوْيِينَ . ثُمَّ جَاءَتْ سَيِّدَةٌ وَوَلَادَاهَا بَعْدَ قَلِيلٍ ، فَاقْتَدَرَتْ السَّيِّدَ

بأن زوجها قد مات إلى أمه الأولى !
وهي - بهذا - تعني أمه الأرض ، وتُخْبِرُ السيدَ أنَّ زوجها
قد مات !

ثم تشاورت وخدَّمتَها في المكان الألاقي بـدفن زوجها ، وكان الإطمئنانُ
يبدو على سيمها أكثرَ مما يبدُّ على ولديها . وقد لحقتِ السيدةُ
برزوجها بعد أشهرين ثلاثة من موته قريباً .

وتعيشُ العجادُ - عادةً - حتى تبلغ الخامسة والستين ، وقُلما
تصلُ سنها إلى الشهرين . ويُعترِفُ بها شئونَ من الضيوفِ قليلَ موتها
بأسابيع قليلة ، ولكنها لا تشعر بشيءٍ من الألم .

فإذا ابتدأت هذه الفترة ، توافقَ على بيتها الأصدقاء والجيران .

حتى إذا لم يبقَ على وفاتها إلا عشرة أيام - وقُلما تُعطيُ العجادُ
بغْرِيزَتها تقديرَ هذه المدة - ذهب العجادُ المُشرِفُ على التلفيرِ
إلى أصحابِه وجيرانه ، يُحييهم ويودعهم ، ويرد لهم زيارتهم . وهو يذهبُ
إليهم محمولاً على مركبةٍ يجرُّها « الياهو » ، إذا كان العجادُ
المحتضر طاعناً في السن ، أو كانت شقةُ السفرَ بعيدةً .

فإذا أتت زيارته ، وَدَّعَهُ أَصْحَابُهُ — بعد أن يَسْتَأْذِنَ مِنْهُمْ فِي
الِّانْصَارَفِ — وَكَانُوا يُودُّونَ مُسَافِرًا يَعْتَزِمُ الرَّحِيلَ إِلَى بَلْدَةٍ
نَاءٍ ، لِيَقْضِيَ فِيهِ أَيَّامًا ثُمَّ يَعُودَ .

وليس في لغة العجم **الْفَاظُ** تدل على الشر أو الشوء، عدا استعاراتٍ
قليلةً يستعيرونهَا من صفاتِ «الياهو» وهيئته !

الفصل العاشر

١ - مَنْزِلُ «جَلَفَرَ»

كُنْتُ - فِي أَنْتَهِ إِقْمَاتِي فِي هَذِهِ الْبَلَادِ - قَدْ نَظَّمْتُ أُمُورِي
جُهْدَ طَافِي ، وَاسْتَقْرَرْتُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي أَمْرَ بِبَنَائِهِ السَّيِّدُ الْجَوَادُ
لِيَكُونَ مَأْوَى ؛ وَكَانَ لَا يَبْعُدُ عَنْ دَارِهِ أَكْثَرَ مِنْ سِتُّ خُطُواتٍ ،
وَقَدْ بَنَوْهُ عَلَى طِرَازِ بُيُوتِهِمْ ؛ فَغَطَّيْتُ أَرْضَهُ وَجُدُرَانَهُ بِالصَّلْصَالِ
وَجَدَاهُلَّ مِنَ الشِّعْرِ .

وَقَدْ نَسَجْتُ مِنَ الْكَتَانِ - الَّذِي يَنْبُتُ فِي حَقولِهِمْ - شِيَابَانًا
وَغَرَارِيرَ (زَكَابَ) مَلَأْتُهُ بِرِيشِ الطَّيُورِ الَّتِي اقْتَنَسْتُهَا . وَكُنْتُ
قَدْ صَنَعْتُ شِيَابِكَا مِنْ شَعْرِ «الْيَاهُو» لصَيْدِ الطَّيُورِ ، فَنَجَحْتُ
فِي ذَلِكَ نِجَاحًا عَظِيمًا . وَكَانَ لِحْمُهَا سَائِفًا لِذِيذَا ، فَأَقْبَلَتُ عَلَيْهِ فِي
شَهِيْدَةٍ نَادِرَةٍ .

وَاسْتَعْنَتُ بِمُدْيَتِي عَلَى صُنْعِ مَائِدَةِ وَكْرَسِيدَهِ . وَقَدْ سَاعَدَنِي

الجوابُ الأحمرُ فيما أَعْظَمَ مُساعدةً .

وَصَنَعْتُ لِنفْسِي ثَوْبًا جَدِيدًا مِنْ جِلْدِ الْأَرَانِبِ وَغَيْرِهَا مِنْ
الْحَيْوَانِ - بَعْدَ أَنْ خَلَقَ ثَوْبِي - كَمَا صَنَعْتُ مِنْهُ جَوَارِبَ نَظِيفَةَ
جَمِيلَةَ الشَّكْلِ . وَصَنَعْتُ شِنْعًا مِنْ قِطْعَةِ صَفِيرَةِ مِنَ الْخَشْبِ شَدَّدْتُهَا
إِلَى تَعْلِيٍ . وَلَمَّا كَلِّيَ وَجْهُ الْحَذَاءِ، صَنَعْتُ غَيْرَهُ مِنْ جِلْدِ «الْيَاهُو»،
بَعْدَ أَنْ جَفَّفْتُهُ حَرَارَةُ الشَّمْسِ
وَكُنْتُ أَشْتَارُ الشَّهَدَةَ - أَحِيَانًا - مِنْ جُذُورِ الْأَشْجَارِ، وَأَمْزُجُهُ
بِالْغُبْرِ الَّذِي صَنَعْتُهُ مِنَ الشَّوْفَانِ .

وَقَدْ آمَنْتُ - بَعْدَ هَذِهِ التَّجَرِبَةِ - بِصِدْقِ الْمَثَلِ الْقَائِلِ :
«إِنَّ الْقَنَاعَةَ وَالرُّضْنَى بِالقلِيلِ : مِنْ خَصَائِصِ الطَّبِيعَةِ .»

كَمَا آمَنْتُ بِصِدْقِ الْمَثَلِ الْقَائِلِ :
«الْحَاجَةُ تَقْتُلُ الْحِيلَةَ، وَالْفُرْسُورَةُ أَمُّ الْإِخْرَاعِ .»

٢ - سَعَادَةُ الْقَانِعِينَ

وَشَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ تَكْتُنُ، وَتَفْرُّقُ قَسِي إِنَاسًا وَبِشَرًا، وَتَكْسِبُ

جِسْمِي صِحَّةً وَقُوَّةً ، وَفَكْرِي رَاحَةً وَهُدُواً ؛ فَقَدْ وَجَدْتُنِي فِي مَأْمَنٍ
مِنْ خِيَانَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَتَنَكِّرِ الْأَصْدِقاءِ ، وَدَسَائِسِ الْمُنَافِقِينَ الظَّاهِرَةِ
وَالْمَسْتُورَةِ . وَأَصْبَحْتُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى تَمْلِيقِ عَظِيمٍ رَغْبَةً فِي إِرْضَانِهِ ،
أَوْ مُحَاسَنَةِ ذِي جَاهِ طَمْعًا فِي جَاهِيهِ ، أَوْ التَّنَزَّهُ مَعَ كَبِيرٍ لِيَمْتَعَلِّفَنِي
لَهُ نَدِيمًا وَسَمِيرًا .

وَرَأَيْتُنِي آمِنًا مِنْ عُدُوانِ الْمُقْتَدِينَ ، وَغِشِّ الْمُزَوِّرِينَ ، وَجَوْزِ
الْظَّالِمِينَ ؛ فَلَمْ أَخْتَنِعْ إِلَى مُفَاوِضَاتِهِمْ وَيَدَلِّلَ كُلُّ مَا أَمْلَكَ مِنْ مَالٍ
وَنَشَبِّرَ فِي سَبِيلِ الدُّفَاعِ عَنْ حَقِّيِّ . وَارْتَهَتْ مِنْ الْمُشْيُونَ وَالْأَرْصادِ
وَالْجَوَاسِيسِ الَّذِينَ يُحْصُونَ عَلَى أَنْفُسِي وَيَأْتِمُونَ بِي ، طَمْعًا فِي مَكَافَأَةِ
الْحُكُومَةِ وَرَغْبَةً فِي حُسْنِ جَزِائِهَا !

وَسُعِدْتُ بِعِيشَةِ رَاضِيَّةٍ ، لَا يُعَكِّرُ صَفْوَهَا تَذَجِيلُ الْهَارِجِينَ ،
وَتَخْرِيفُ السَّاسَةِ ، وَتَرْتِيرُ الْمُتَفَاصِلِينَ ، وَتَعَصُّبُ الْأَدْعِيَاءِ وَالْجَاهِلِينَ .
وَأَصْبَحْتُ فِي آمِنٍ مِنْ فَتْكِ الْلَّصُوصِ وَالْجُنَاحِ وَالسَّفَاحِينَ ، وَإِسْفَافِ
الْمُتَفَلِّسِينَ فِي فَنِّ الْمُوسِيقِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفُنُونِ الرَّفِيقَةِ !

يَا لَهَا مِنْ حِيَاةِ سَعِيدَةٍ لَا يُنْفَضُّهَا هِيَاجُ التَّأْثِيرِينَ ، وَتَخَالُفُ

الأحزاب ، ورُوّجو الرَّذِيلَةِ ؛ ولا ترى فيها أثراً للسُّجُونِ وآلاتِ
الْتَّقْتِيلِ والْتَّمْزِيقِ : من مَشَانِقَ وفُؤُسِ وخَوازِيقَ ؛ ولا تُعْثَرُ عَلَى مُحْتَالِ
وَلَا أَنَانِيَّ وَلَا أَفَاكِّ وَلَا عَزِيزِيَّ وَلَا سِكِيرِيَّ ؛ ولا تُقْسِدُهَا الْأَمْرَاضُ
الْفَتَاكِهُ الْخَيْثَهُ الَّتِي تَقْتِيكُ بِالْأَهْلِيَنَ فِي الْبَلَادِ الْمُتَحَضَرَهُ !

٣ - صُحبَةُ الْجِيَادِ

وَهُكْدَا سَحْرَتِي صُحبَةُ الْجِيَادِ ، وَمَلَأَتْ نَفْسِي طُمَانِيَّهُ وَأَنْسًا .
وَلَقَدْ طَالَمَا شَرَفْتُ بِالْتَّحَدُثِ إِلَيْهِمْ ؛ وَكَانُوا يُكَثِّرُونَ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَى
دارِ السَّيِّدِ ، فَلَا يَصْنَعُ عَلَى البقاءِ فِي مَجَلسِهِمْ ، لِأَنْفِدَهُمْ حُكْمَهُمْ ،
وَأَنْهَلَهُمْ حَدِيشَهُمْ . وَكَانُوا يَتَنَزَّلُونَ بِسُؤَالٍ ، ثُمَّ يُسِيخُونَ إِلَى
جَوابِي : كَرَمًا مِنْهُمْ وَتَفَضُّلًا .

وَطَالَمَا صَحِبَتُ السَّيِّدَ الْجَوَادَ فِي زِيَارَاتِهِ لِأَصْفِيَاهِ وَخُلُصَائِهِ
مِنْ كَرَامِ الْجِيَادِ . وَكُنْتُ دَائِمَ الصَّمْتِ ، إِلَّا إِذَا سُئِلْتُ
وَاضْطُرْرُتُ إِلَى الإِجَابَهِ .

وَكُنْتُ شَدِيدَ الْأَسْفِ عَلَى الزَّمْنِ الَّذِي أُصْبِغَهُ فِي الْكَلَامِ .

ولم أكُن أَتَحدَّثُ إِلَيْهِمْ إِلَّا مُضْطَرًّا ؛ لِأَنِّي إِلَى الْإِفَادَةِ مِنْ حُكْمِهِمْ وَعِلْمِهِمْ أَخْوَجُ مِنِّي إِلَى الْكَلَامِ مَعْهُمْ .

وَكُنْتُ شَدِيداً الْإِعْجَابِ بِأَسْلُوبِهِمْ فِي الْحَدِيثِ : لَا هُمْ يَجْتَزِئُونَ
بِالْأَلْفاظِ الْقَلِيلَةِ . وَالْعِبَارَةُ الْمُوجَزَةُ الْحَافِلَةُ بِالْمَعْنَى السَّامِيَّةِ النَّبِيَّةِ ،
عَنْ كُلِّ شَرْحٍ وَإِسْهَابٍ . وَكَانُوا — فِي أَحَادِيثِهِمْ — مَثَلًاً لِلْأَدَبِ
الْوَافِرِ ، وَإِنْ كَانُوا بَعِيدِينَ عَنِ الْمُجَامِلَةِ الْفَارِغَةِ وَالْتَّعْلِيقِ السَّخِيفِ
وَمَا كَانُ أَحَدُهُمْ لِيَبْدأَ بِالْكَلَامِ إِلَّا إِذَا أَنِسَ ارْتِيَاحًا لِذَلِكَ وَوُجُدَ
فِي تَقْسِيمِهِ مَا يَسْتَحِقُّ الْإِفْضَاءَ بِهِ . وَلَمْ أَرْ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَلَى الْآخَرِ
حَدِيثَهُ ، أَوْ يَرْفَعُ صَوْتَهُ ، أَوْ يَخْتَدُ ، أَوْ يَصْنَعُ ، كَمَا تَقْعُلُ فِي
بِلَادِنَا . وَعِنْدَهُمْ مَثَلٌ حَكِيمٌ يَقُولُ :
« يَحْسُنُ أَنْ يَسُودَ الصَّمَتُ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ . بَيْنَ حِينِ
وَآخَرَ » .

وَمَا أَصْدَقَ هَذَا الْمِثْلَ وَأَبْعَدَ حُكْمَتَهُ؛ فَإِنَّ الْفَتَرَاتِ الَّتِي يَسُودُ فِيهَا الصَّمْتُ بَيْنَ الْمُتَحَدِّثَيْنَ، تُرْبِحُ الْذَّهَنَ وَتَمَانِوُهُ بِالآرَاءِ النَّاضِجَةِ وَالْأَفْكَارِ الْجَدِيدَةِ، لِيَسْتَأْنِفَ الْحَدِيثَ فِي قُوَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَتَمَحِيصٍ.

وأكثُرُ أحادِيَّتَهُ العَامَّةُ تَدُورُ عَلَى الصَّدَاقَةِ، وَالْوَفَاءِ، وَحُسْنِ
الرُّحْمَانِ، وَالنَّظَامِ، وَالاِقْتَصَادِ، وَالطَّبِيعَةِ، وَالْفَضْلَةِ، وَالتَّقَالِيدِ. وَرُبُّمَا
طَرَقُوا فُنُونًا مُخْتَلِفةً مِن الشِّعْرِ.

وَكُنْتُ - وَلَا فَخَرْ - أُلْهِمْهُمْ أَحِيَّاتِهِ أَحَادِيثَ طَرِيقَةً؛
لَأَنَّ حُضُورِي كَانَ يُتَبَعُ لِلسَّيِّدِ الْفَرَصَةِ لِتَحَدُّثِهِ عَنِ وَذِكْرِ تَارِيخِي
وَتَارِيخِ مِيلَادِيِّ.

وَكَانَ يَخْلُو لِلْجِيَادِ أَنْ تَحَدُّثَ عَنِ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ أَحَادِيثَ لَا تُرْضِيَنَا؛
فَلَا دَاعِيَ لِذِكْرِهَا لِلقارِئِ.

وَكَانَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ - فِيمَا يَبْدُو لِي - قَدْ عَرَفَ بِذَكَانِهِ
مِنْ تَقَاضِينَا وَجُنُونِنَا وَمُخْزِيَاتِنَا مَا لَمْ أَعْرِفْهُ. وَقَدْ كَشَفَ الْأَسْتَارَ
عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَسْرَارِ اِنْحِطاَتِنَا وَتَدَهُورِنَا الَّتِي لَمْ تَكُنْ يُتَخَطَّرَ لِ
عَلَى بَالِ.

وَكَانَتِ الأَسْبَابُ وَالْمُقَدَّمَاتُ - الَّتِي يَنْبَغِي عَلَيْهَا أَحْكَامَهُ -
مُحْتَمَلَةً مَعْقُولَةً، لَا تُنَافِي الصَّحِيحَ، وَلَا تَصِدُّمُ الْحَقِيقَةَ.

٤ - حِكْمَةُ الْجِيَادِ

وإِنِّي لَا قَرَرْتُ مُعْتَرِفًا أَنَّ مَا ظَفِيرْتُ بِهِ مِنْ حِكْمَةٍ قَلِيلَةٍ ، أَوْ تَبَصُّرٌ ضَئِيلٌ ، إِنَّمَا يَعُودُ فَضْلُهُ إِلَى الدُّرُوسِ الْحِكْمَيَّةِ الَّتِي تَلَقَّيْتُهَا فِي بَيْتِ السَّيِّدِ الْجَوَادِ : مِنْ حَدِيثِهِ وَحِوارِ أَصْدِقَائِهِ الَّذِينَ سُعِدْتُ بِصُحْنِهِمْ وَلَعِمْتُ بِرَقْبِهِمْ وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِزَاهِدِهِ كُلَّمَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْهِمْ . وَلَسْتُ أَذْكُرُ أَنِّي شَعَرْتُ بِمِثْلِ هَذَا الْفَخْرِ فِي أَسْمَى الْجَمَاعَاتِ الْمُتَحَضَّرَةِ ، وَأَرْزَقَ الْبَيَانَاتِ الْعِلْمِيَّةِ السَّامِيَّةِ .

وَلَقَدْ أُعْجِبْتُ بِالْإِعْجَابِ كُلَّهِ بِقُوَّةِ السَّادَةِ الْجِيَادِ ، وَجَمَالِهِمْ وَنَشاطِهِمْ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُوَّسُهُمْ مِنْ الْفَضَائِلِ النَّادِرَةِ ، وَالْتَّعَاطُفِ الْعَجِيبِ . وَالْأَدَبِ الْمَوْفُورِ ، وَالْأَخْلَاقِ الْكَاملَةِ . وَلَنْ أَنْسَى لَهُمْ – طَولَ حَيَاتِي – مَا خَصَّوْنِي بِهِ مِنْ رِعَايَةٍ وَعَطْفٍ ؛ إِذْ مَيَّرُونِي عَنْ جَمِيعِ أَبْنَاءِ جَنْسِي مِنَ الْأَدَمِيَّينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ بَيْنَ ظَهَارِنِهِمْ .

٥ - كَرَاهِيَّةُ النَّاسِ

وَكَانَ إِعْجَابِي بِالْجِيَادِ لَا يَعْدُلُهُ إِلَّا كَرَاهِيَّتِي وَمَقْتِي لِلْأَدَمِيَّينَ ،

بعد أن خبرتُ فضائلَ الأوّلينَ وقائصَ الآخرينَ !
وأصبحتُ كلما فكرتُ في أسرتي وخلصائي وأبناء وطني خاصةً ،
والجنسِ الآدميِّ عامّةً ، شعرتُ أنهم جميعاً لا يختلفون عن دوابَ
«الياهو» التي تقطنُ في هذه الجزيرة ، وإن كانوا أكثرَ من «الياهو»
حضارةً ، وأوفرَ عقولاً . ولكنَّ قومنا - ليسوا حظهم - قد وقفوا مزايدهم
ومواهبيهم العقليةَ على مضاعفةِ شورِهم وقائصِهم ، وتنفّيسِ حياتِهم ،
وتكميلِ صفوِهم .

وكنتُ إذا لمحتُ صورةَ وجهي في صفحةٍ بحيرةٍ أو غديرٍ
هالئي بشاعةً ما أرى ، ولم أطق رؤيةَ الصورةِ الكريهةِ التي
تمثّلُ لي منظرَ «الياهو» القبيحَ .

وأصبحتُ أشعرُ بسعادةٍ نادرةٍ كلما نظرتُ إلى العيادِ ، وأحسَّ
لهم إجلالاً وإكباراً . وقد همّيَنَ سلطانُهم على نفسي ، فرُختُ
أحاكيَهم في مشيتِهم وحرَّكاتِهم ؛ حتى وصفني بعضُ أصدقائي بأنني :
محاكي العيادِ . وكان هذا الوصفُ أبلغَ تكرييمٍ ظفرتُ به في حياتي ،
وهو عندي شرفٌ لا يُعدُّ له شرفٌ . ولستُ أخجلُ حين أقرُّ أنني

ظَلِيلَتُ - طُولَ عمرِي - أَوْثُرَ اللُّغَةَ الصَّاهِلَةَ عَلَى لُغَاتِ الْعَالَمِ كُلُّهَا،
غَيْرَ مُبَالِ بِسُخْرِيَّةِ السَّاخِرِينَ وَتَنَادِيرِ الْهَازِئِينَ .

٦ - فَاتِحَةُ الشَّقَاءِ

وَبَيْنَا أَنَا غَارِقٌ فِي أَحْلَامِ السَّعَادَةِ وَالْأَمْلِ بِدَوَامِ هَذَا النَّعِيمِ،
إِذْ أَزْسَلَ إِلَى السِّيدِ الْجَوَادِ يَسْتَدْعِينِي فِي صَبَاحِ يَوْمِ باكِرٍ، عَلَى
خِلَافِ عَادَتِهِ . وَمَا إِنْ رَأَيْتُهُ حَتَّى لَمَّا تَحْتَ عَلَى سِيمَاهُ شَيْئًا مِنْ
أَمَارَاتِهِ الْهَمُّ وَالْقَلْقِ . وَكَانَمَا كَانَ مُتَرَدِّدًا فِي الْأَفْضَاءِ إِلَى بِأَمْرِ
خَطِيرٍ، فَهُوَ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَدْأُبُ بِالْكَلَامِ !
وَأَطْرَقَ زَمَانًا قَلِيلًا، ثُمَّ ابْتَدَرَنِي صَاهِلًا :
« لَسْتُ أَدْرِي : أَئِ أَثْرٌ سِيَرُكَهُ كَلَامِي فِي نَسِيكِ ؟ وَلَكِنِي
مُضْطَرٌ إِلَى مُكَاشَفَتِكِ بِجَلِيلَةِ الْأَمْرِ . لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ - مِنْ قَبْلُ -
أَنْ مَجَمَعَ الْجِيَادِ قدْ تَحَدَّثَ فِي أَمْرِكَ . وَالآنَ أَخْبُرُكَ أَنْ أَكْثَرَ الشَّيوُوخِ
وَالْمُوَابِ قدْ أَخْذُوا عَلَى عِنَائِي بِكَ وَتَحَدَّثُ إِلَيْكَ وَارْتِياحِي إِلَى
مُصَاحَبَتِكَ ، وَرَأَوْا أَنْ ذَلِكَ السُّلُوكَ يُنَافِي الطِّبِيعَةَ الْفَرَسِيَّةَ وَالْعُقْلَ

الْجَوَادِيَّ . فلم يُسْبِقْ لِأَحَدٍ مِنَ الْجِيَادِ أَنْ صَاحِبَ أَحَدًا مِنَ الْأَدْمَيْنَ . وقد نَصَحُونِي أَنْ أَخْتارَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ أُنْزِلَكَ مِنْزِلَ الْأَدْمَيْنَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي بِلَادِنَا وَأَنْلُكَ فِي عِدَادِهِمْ وَأَعْهَدَ إِلَيْكَ بِمُثْلِ أَعْمَالِهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ تَمُودَ إِلَى بِلَادِكَ الَّتِي جِئْتَ مِنْهَا .

إِمَّا أَوَّلُ الْأَمْرَيْنِ فَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . وَقَدْ رَفَضَهُ كُلُّ مَنْ رَأَكَ مِنْ أَصْدِقَائِي الْجِيَادِ ، وَقَالُوا : إِنَّ شُعَاعَ الْعُقْلِ الَّذِي مَيِّزَكَ عَنْ سَائرِ الْأَدْمَيْنَ ، إِذَا أُضِيفَ إِلَى طَبِيعَتِهِمُ الشُّرُّيرَةِ ، عَادَ عَلَى بِلَادِنَا بِالنَّاتِيجِ الْوَبِيلَةِ .

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّيِّدُ صَاهِلًا :

« وَلَا يَزَالُ خُلُصَائِي مِنَ الْجِيَادِ يُلْهُونُ عَلَيَّ – فِي كُلِّ يَوْمٍ – أَنْ أَخْذَ بِرَأْيِ الْمَجَمَعِ ؛ وَلَيْسَ فِي وُسْعِي أَنْ أُخَالِفَ مَا أَقْرَءُوهُ . وَلَسْتُ أُشْكُّ فِي أَنَّكَ عَاجِزٌ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى بَلَدِكَ سِبَاخَةَ – لِطُولِ الْمَسَافَةِ – فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تُنْشِئَ نَوْعًا مِنَ الْمَرْكَبَاتِ الَّتِي وَصَفَّتَهَا لِي مِنْ قَبْلُ ، لِتَجْتَازَ بَهَا الْبَحْرَ .

وَسَيُعَاوِنُكَ خَدَّرِي وَخَدَّمُ جِيرَانِي فِي إِنْجَازِهَا . »

ثُمَّ حَمْمَ صَاهِلًا :

« ولو تُرِكَ أَمْرُكَ إِلَىَّ ، لَأَتَرَكْتُ بَقَاءَكَ عِنْدِي طُولَ الْحَيَاةِ : لأنني رأيتُ فيك مَخَايِلَ مِنَ النَّجَابَةِ ، وقد وُقْتَتُ إِلَى إِصْلَاحِ كَثِيرٍ مِنْ عُيُوبِكَ وَتَقَائِصِكَ وَعَادَاتِكَ السَّيِّئَةِ ، بَعْدَ أَنْ عَوَنَقَنِي فِي ذَلِكَ وَبِذَلِكَ قُهْسَارَى جُهْدِكَ – عَلَىَّ قَدْرِ مَا تَسْمَحُ بِهِ طَبِيعَتُكَ الْخَافِرَةُ – فِي تَقْوِيمِ نَفْسِكَ وَانْتِهَاجِ حُطَّتِنَا مَعْشَرَ الْعِيَادِ . »

وَلَا يَفُوتُنِي أَنْ أُنْبِهَ الْقَارِئَ إِلَىَّ أَنَّ قَرَارَ هُذَا الْمَجْمُعِ يُسَمَّى بِتَلْكَ الْلُّغَةِ الصَّاهِلَةِ : « تَرْغِيَّبًا ». وَإِنَّمَا سَمْوَةُ كَذَلِكَ ، لَا نَهْمَ لَا يَسْتَطِيُونَ أَنْ يُذَرِّكُوا أَنَّ مَخْلُوقَنَا عَاقِلًا يُرْعَمُ – فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَامِ – عَلَىَّ أَدَاءِ شَيْءٍ بِعَيْنِهِ فَهُمْ يَكْتَفُونَ بِالنَّصِيحَةِ وَحْدَهَا ، وَلَنْ يَعْصِيَ الصُّنْحَ عَاقِلٌ جَدِيرٌ بِهَذَا الْوَصْفِ .

٧ - وَقْعُ الْخَبَرِ

وَقَدْ وَقَعَ فِي تَقْسِي هُذَا الْخَبَرُ وَقَعَ الصَّاعِقَةِ . وَخَارَثْ قُوَّاَيَّ ،

وَسَلَكَنِي الْيَأسُ؛ فَأَغْمَى عَلَى مِنْ شِدَّةِ الْأَلْمِ، وَوَقَتُ عَلَى
الْأَرْضِ تَحْتَ أَقْدَامِ السَّيِّدِ، وَظَلَّتْ فِي غَشْيَتِي سَاعَةً مِنَ الزَّمْنِ.
وَقَدْ حَسِبَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ أَنِّي فَارَقْتُ الْحَيَاةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْلَفْ
مِثْلَ هَذَا الْخَوَارِ (الْضَّعْفِ) الَّذِي خُصِّصْنَا بِهِ مِنْ بَيْنِ الْحَيَانِ.

ثُمَّ قَلْتُ لَهُ فِي صَهْيلِ خَافِتِ :

«إِنِّي أُورِثُ الْمَوْتَ عَلَى تَرْزِكِ هَذِهِ الْبَلَادِ السَّعِيدَةِ. وَلَيْنَتِ الْمَجْمَعُ،
قَدْ خَفَفَ مِنْ حُكْمِهِ عَلَىِّ؛ فَلَيْسَ فِي وُسْعِيِّ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ الْمَسَافَةَ
الْهَائِلَةَ سِيَاحَةً. وَرُبَّمَا كَانَتْ أَقْرَبُ أَرْضِ خَلْفِ هَذَا الْخِضْمَ الْوَاسِعِ
عَلَى بُعدِ مائَةِ مِيلٍ. وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَسْبَعَ أَكْثَرَ مِنْ مِيلٍ
وَاحِدٍ، وَلَيْسَ لِدِي شَيْءٌ مِنَ الْمُعَدَّاتِ الَّتِي تُمْكِنُنِي مِنْ بِنَاءِ زَوْرَقٍ.
عَلَى أَنِّي مُحَاوِلٌ إِمْكَانِي، وَبِاَذْلٌ جَهِيدِي، لِإِطَاعَةِ أَمْرِهِ، وَإِنْ
كُنْتُ مِنَ النَّجَاجِ لَعَلَى يَأْسٍ كَبِيرٍ. »

ثُمَّ اسْتَأْنَتْ صَاهِلًا :

«وَلَقَدْ عَدَدْتُ نَفْسِي — مِنْذُ الْيَوْمِ — مَخْلُوقًا تَعِسًا مَقْضِيًا
عَلَيْهِ بِالْهَلاكِ

على أنَّ الموتَ هو أيسُرُ ما ألاقيهِ من ضُرُوبِ الشَّقاءِ؛ فَإِنِّي
إِذَا ظَفَرْتُ بِالْمُحَالِّ ، وَعَبَرْتُ الْبَحَارَ الشَّاسِعَةَ ، وَبَلَغْتُ بِلَادِي
سَالِمًا - وَهُوَ أَمْرٌ لَا سَبِيلَ إِلَى إِدْرَاكِهِ - فَلَنْ أَسْتَطِعَ الْبَقَاءَ بَيْنَ دَوَابِ
«الْيَاهُو» فِي بِلَادِي ، بَعْدَ أَنْ أَلْفَتُ الْحَيَاةَ الْجَوَادِيَّةَ السَّعِيدَةَ الْخَالِصَةَ
مِنْ شَوَّابِ الْأَكْدَارِ وَالْأَرْجَاسِ . وَلَنْ أَجِدَ الْمِثْلَ الْفَرَسِيَّ الْصَّالِحَ الَّذِي
يَهْدِينِي سَوَاءَ السَّبِيلِ فِي وَطَنِي؛ وَلَنْ أُبْلِثَ - بَعْدَ قَلِيلٍ - أَنْ
أَرْتَكَسَ فِي حَمَأَةِ الرَّذِيلَةِ وَالْأَدَنَاسِ .

وَإِنِّي لَعَلَى ثِقَةٍ مِنْ رَجَاحِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بَنَى عَلَيْها السَّادَةُ الْجِيَادُ
قَرَارَمْ . وَلِيَسْ فِي قُدْرَةِ «يَاهُو» حَقِيرٌ - مِثْلِي - أَنْ يَرَى رَأْيَا
أَفْضَلَ مَا يَرَاهُ أُولَئِكَ السَّادَةُ؛ فَلَا مَعْدَى لِي عَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِذْعَانِ .
بَيْدَ أَنِّي أَتَتَمِسُّ مِنْكُمْ أَنْ تَفْسِحُوا الْأَمْدَ، وَتَرْكُوا لِي مِنَ الْوَقْتِ
مَا يَسْمَعُ بِإِنْجَازِ هَذَا الْمَهْمَمُ الشَّاقِّ .
ثُمَّ اسْتَأْفَتُ صَاهِلًا :

«وَإِنِّي بِاذْلِلٍ قُصَارَى جُهْدِي فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى سَلَامِتِي؛ حَتَّى إِذَا قُدِرَ
لِي أَنْ أَعُودَ إِلَى وَطَنِي - وَمَا إِنْهُ ذُلْكَ مُمْكِنًا - وَقَفَتُ حَيَاً وَوَقْتِي

وَجُهْدِي عَلَى إِذَا عَنْ فَضَائِلِكُمْ وَرِزْيَاكُمُ الْبَاهِرَةِ ، بَيْنَ دَوَابِ الْأَدَمِيَّينَ ؛
لَعْلَهَا تَقْبِسُ شَيْئاً مَا خُصِّصْتُ بِهِ مِنَ الرُّثْقِ وَالْفَضْلِ . .

٨ - نِسَاءُ الزُّورَقِ

وَتَلَطَّفَ بِي السِّيدُ الْجَوَادُ ، فَأَذِنَ لِي فِي الْبَقَاءِ شَهْرَيْنِ آخَرَيْنِ ؛
ثُمَّ عَهِدَ إِلَى صَدِيقِ الْجَوَادِ الْأَحْمَرِ أَنْ يُطِيعَنِي فِي كُلِّ مَا أَطْلَبُهُ مِنْهُ .
وَقَدْ قَلَتُ لِلسِّيدِ الْجَوَادِ : « إِنَّ هَذَا الصَّدِيقَ وَحْدَهُ يَكْفِيَنِي فِي إِنْجَازِ
مَا أُرِيدُ . .

وَكَانَ أُولَئِكَيْنِ مَا بَدَأْتُ بِهِ : أَنِّي ذَهَبَتُ مَعَ الْجَوَادِ إِلَى حِيثُ
أَقْنَانِ الْمَلَاحُونَ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا عَلَيْهِ . ثُمَّ صَعَدْتُ إِلَى مُرْتَقَعِهِ مِنَ
الْأَرْضِ ، وَأَجَلَتُ بَصَرِي فِي أَرْجَاءِ الْبَحْرِ ؛ فَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَرَى
— صَوْبَ الشَّمَالِ — جَزِيرَةَ صَمِيرَةَ . فَأَخْرَجْتُ الْمِنْظَارَ الْمُقْرِبَ
مِنْ جَيْبِي ؛ فَرَأَيْتُهَا — فِي وُضُوحِ وَجْلَاهُ — عَلَى بُعدِ خَمْسَةِ أَمْيالٍ
تَقْرِيبًا . وَقَدْ أَيْقَنَ صَدِيقُ الْجَوَادِ الْأَحْمَرُ أَنَّهَا سَحَابَةٌ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى رِتْقَةِ
مِنْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلُّهَا لِيَسَ فِيهَا بَلَادٌ غَيْرُ بِلَادِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يُسْتَطِعُ أَنْ

يَتَسْبِّهَا بِصَرِّهِ، وَهِيَ عَلَى هُذَا الْبُعدِ.

أَمَّا أَنَا فَقَدْ اغْتَرَّمْتُ أَنْ أَتَخَذَ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أُولَـِ الْمَطَارِحِ التِي كُتِبَ عَلَى أَنْ أُتَقَى إِلَيْهَا، ثُمَّ أَتَرَكَ لِلْاِقْدَارِ وَالْحُظُوطِ أَنْ تُقْرَرَ مَا تَشَاءُ. ثُمَّ عُدْتُ إِلَى مَسْرِيَّ، وَتَحَادَثْتُ مَعَ صَدِيقِ الْجَوَادِ الْأَحْمَرِ، حَتَّى قَرَّ رَأْيُنَا عَلَى الدَّهَابِ إِلَى غَابَةِ قَرِيبَةٍ؛ قَطَعْنَا مِنْ أَشْجَارِ الْبَلُوطِ كَثِيرًا مِنَ الْأَغْصَانِ.

وَلَنْ أُضْنِحَّ الْقَارِئَ بِتَفْصِيلِ مَا صنعتُ. حَسْبِيَ أَنْ أَقُولَ : إِنِّي اسْتَطَعْتُ - بِمُعَاوَنَةِ هَذَا الْجَوَادِ - أَنْ أُتَمِّمَ صُنْعَ الزَّوْرَقِ بَعْدَ أَسَايَعَ سَيْتَةً؛ ثُمَّ غَطَّيْتُه بِجَلْدِ «الْيَاهُو»، وَصَنَعْتُ لَهُ شِرَاعًا مِنْهُ، وَجَعَلْتُ لَهُ أَرْبَعَةَ مَجَادِيفَ، وَوَضَعْتُ فِيهِ مِنَ الزَّادِ مَا يَكْفِيَنِي زَمَانًا طَوِيلًا. وَكَانَ زَادِي مُؤْلَفًا مِنْ لَعْنِ الْأَرَانِبِ وَالْطَّيُورِ، بَعْدَ أَنْ بَذَلْتُ جُهْدِي فِي تَقْدِيدهِ حَتَّى لَا يَتَرَضَّ لِلثَّلَافِ، وَمَلَأْتُ إِنَاءِنِ مَاءً وَلِبَنًا. ثُمَّ أَجْرَيْتُ الزَّوْرَقَ فِي مُسْتَنْقَعٍ كَبِيرٍ، بَعْدَ أَنْ سَدَّدْتُ مُقْبَبَهُ بِشَحْمِ «الْيَاهُو»؛ وَقَدْ رَأَيْتُه صَالِحًا لِمَا أَعْدَتُهُ لَهُ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَنْقُلوهُ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ؛ فَوَضَعُوهُ عَلَى مَرْكَبَةٍ كَبِيرَةٍ

تُجْرِئُهَا دَوَابُّهَا **«النَّاهُودُ»** إِلَى الشَّاطِئِ ، وَكَانَ الْجَوَادُ الْأَخْمَرُ يَرْقُبُهَا
حَتَّى وَصَلَّتْ إِلَيْهِ .

٩ - سَاعَةُ الْوَدَاعِ

وَهُكْمًا أَعْدَدْتُ مُعَدَّاتِي كُلَّهَا ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا الرَّحِيلُ .
فَاسْتَأْذَنْتُ مِنَ السَّيِّدِ زَوْجِهِ وَأَهْلِهِ فِي السَّفَرِ ، وَعَيْنَاهِي مُخْضَلَتَانِ
بِالدُّمُوعِ ، وَقَلْبِي يَكادُ يَنْفَطِرُ مِنَ الْأَسَى وَالْحُزْنِ . وَذَهَبَ السَّيِّدُ
وَأَصْفِيَاوَهُ لِيَرَوَا هَذَا الزُّورَقُ الْمُجِيبُ .

وَقَدْ تَفَضَّلَ السَّيِّدُ الْجَوَادُ قَبْلَ رَجَائِي فِي أَنْ أَفْتَمَ سُنْبُكَهُ ،
وَشَرَفَنِي بِهَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي لَمْ يَظْفَرْ بِهَا آدَمٌ قَبْلِي . وَلَنْ أَنْسَى
— مَا حَيَّتُ — هَذَا الشَّرْفَ الْعَظِيمَ الَّذِي خَصَّنِي بِهِ السَّيِّدُ الْكَرِيمُ !
وَبَقِيتُ فِي زَوْرَقِي سَاعَةً حَتَّى انْحَسَرَ الْمَدُّ فَأَقْلَعَ الزَّوْرَقُ .
وَرَأَيْتُ الرِّيَاحَ مُوَاتِيَّةً تَهْبِطُ صَوْبَ الْجَزِيرَةِ — لِحَسْنِ
الْحَظْ — فَحَيَّتُ السَّادَةَ الْجِيَادَ ، وَمَا زِلتُ أَحْسِنُهُمْ حَتَّى غَبَتُ
عَنْ أَبْصَارِهِمْ .

الفصل الحادى عشر

١ - بدأء الرُّحلة



بدأت هذه الرُّحلةُ المسيرةُ المضنيةُ في الساعةِ التاسعةِ من صباحِ اليومِ الخامسِ عشرَ من فبرايرِ عامِ ١٩١٥م . وكان الجوُ صحوًا والرياحُ طيبةً . ولكنني - على ذلك - لجأتُ إلى مِيدانِي ؛ حتى إذا خشيتُ الإغياةَ والشعبَ عمدتُ إلى الشُّراعِ : وقد ساعدني المدُ على تحقيقِ غايَتي .

ولن أنسى وداعَ السيدِ ورفاقهُ ، وقد وقفوا على شاطئِ البحرِ

يَرْقُبُونِي حَتَّى غَبَتْ عَنْ أَنْظَارِمْ . وَلَا يَرَالُ صَوْتُ صَاحِبِي الْجَوَادِ
الْأَحْمَرِ يَوْنُ فِي أَذْنِي ، وَهُوَ يُعْمِمُ صَاهِلًا :
« احْتِرِسْ أَيُّهَا « إِلْيَاهُو » الظَّرِيفُ . تَوَقَّعُ الْأَخْطَارَ فِي
ثَبَاتِ وَيَقْظَةٍ ! »

وَقَدْ رَدَدَ هَذِهِ الجَملَةَ صَاهِلًا مَرَاتٍ عِدَّةً حَتَّى غَابَ عَنْ نَظَرِي .
وَسَارَ الزُّورَقُ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ سَيِّرًا حَثِيثًا . وَكَانَ كُلُّ هُمٌّ
أَنْ أَرْسُوَ عَلَى جَزِيرَةِ قَفْرَاةِ ، أُعِيشُ فِيهَا عِيشَ الْكَفَافِ ، فِي عُزْلَةٍ
عَنِ النَّاسِ ، نَاجِيَا مِنْ شُرُورِهِمْ . وَهِيَ حَيَاةٌ طَالَمَا تَاقَتْ نَفْسِي
إِلَيْهَا ، وَآتَرَهَا عَلَى أَكْبَرِ مَنْصِبٍ فِي أَعْظَمِ دُولَةٍ .
وَإِنَّمَا أُوْرِيَتُ لِلْعُزْلَةِ لِأَنَّهَا تُمْكِنُنِي مِنْ إِنْعَامِ التَّفْكِيرِ وَإِطَالَةِ الرَّوِيَّةِ ،
وَتُبَعِّدُنِي عَنْ قَائِصِ الْأَدْمِينَ ، وَتُتَبِّعُ لِي فُرْصَةَ التَّأْمِلِ فِي فَضَائِلِ
الْجِيَادِ النَّاطِقِةِ ، وَالتَّحَلِّي بِأَخْلَاقِهَا الْعَالِيةِ .

٢ - فِي جَزِيرَةِ الْهَمَاجِ

لَقَدْ عَرَفَ الْقَارِئُ - مَا أَسْلَفْتُهُ - أَنْ مَلَاحِي سَفِينَتِي الَّذِي

ائتَمْرُوا بِي وَأَتَرُوا عَلَيَّ ، قَدِ اعْتَقَلُونِي فِي غَرْفَتِي ، وَأَوْصَدُوا بِإِبَاهَا دُونِي ،
وَكَتَمُوا عَنِّي خُطُطَهُمْ فِي السَّيْرِ أَسَايَعَ عِدَّةً ، ثُمَّ أَنْزَلُونِي أَرْضًا لَا أَعْلَمُ
لَهَا اسْمًا . وَأَقْسَمَ الْمَلَاحُونَ الَّذِينَ صَحَّبُونِي إِلَى تِلْكَ الْأَرْضِ : إِنَّهُمْ
لَا يَعْرِفُونَ فِي أَيِّ نَاحِيَةٍ مِّنَ الْعَالَمِ حَلَّنَا !

وَمَا أَدْرِي : أَصَدَقُوا فِي قَسَمِهِمْ أَمْ كَانُوا مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟
عَلَى أَنِّي ذَكَرْتُ أَنِّي سَمِعْتُ — ذَاتَ مَرَّةٍ — جُمْهُورَ الْمَلَاحِينَ
يَتَهَامِسُونَ — بِالْقُرْبِ مِنْ غَرْفَتِي — بِأَنَّهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى « مَدَغَشْقَرَ ». .
فَاسْتَخَلَصَتُ مِنْ هَذَا أَنَّا عَلَى مَسَافَةِ عَشْرِ دَرَجَاتٍ جَنُوبَ رَأْسِ
الرَّجَاءِ الصَّالِحِ تَقْرِيبًا ، أَيْ فِي الدَّرِجَةِ الْخَامِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ خُطُوطِ
الْعَرْضِ الْجُنُوَيَّةِ .

فَيَمْمَتُ صَوْبَ الشَّرْقِ ؛ لَعَلَّ أَرْسُو فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ
« هُولَانَدَةِ الْجَدِيدَةِ » ، حِيثُ أَنْهَدَرُ مِنْهَا غَرْبًا إِلَى إِحْدَى الْجَزَائِيرِ
الصَّفِيرِيَّةِ الْمُجاوِرَةِ لَهَا .

وَكَانَتِ الرِّيحُ تَهَبُّ صَوْبَ الْفَرْبِ . فَلَمَّا بَلَغَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ
مَسَاءً ، كَانَتِ الْمَسَافَةُ الَّتِي قَطَعْتُهَا نَحْوَ ثَمَانِيَّةِ عَشَرَ مِيلًا صَوْبَ

الشرق . فرأيتُ جزيرةَ صَغِيرَةَ على بُعدِ ميلٍ وَنِصْفِ مِيلٍ تقرباً .
فبلغتها بعدَ زمْنٍ قليلٍ .

وكان المُرسَى صخريّاً ، فارسَيْتُ فيه زَورَقٌ ، وَتَسَاقَتُ الصُّخُورَ :
فرأيتُ أرضاً فسيحةً تمتدُ منَ الجنوبِ إِلَى الشَّمَالِ : فعُدْتُ إِلَى
زَورَقٍ ، وَقَضَيْتُ لَيْلَتي فيه .

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ بِأَكْرَانِ ، وَاصْلَتُ تَجْدِيفي حتَّى بَلَغَ الْطَّرَفَ الْجَنُوبِيَّ
الشَّرْقِيَّ من « هولندة الجديدة » ، في الساعَةِ السابعةِ .

وَلَمْ أَجِدْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ أَحَدًا مِنَ السُّكَانِ . وَقَدْ خَشِيتُ
أَنْ يُصِيبَنِي سُوءٌ إِذَا أَوْغَلْتُ فِي الْجَزِيرَةِ ، لِأَنِّي أَغْرَلُ . فَلَزِمْتُ شَاطِئَ
البَحْرِ ، وَأَكَلْتُ شَيْئاً مِنَ الْمَحَارِ نِيَّئاً ؛ لِأَنِّي خَشِيتُ أَنْ أُوقِدَ النَّارَ
فَيَفْطُنَ إِلَى مَكَانِي أَحَدٌ مِنْ هَمَّاجِ الْجَزِيرَةِ .

وَظَلَّتُ قَانِعاً بِهَذَا الطَّعَامِ أَيَّامًا ثَلَاثَةَ ، مُحْتَفِظًا بِزَادِي الْقَلِيلِ
لِيَنْفَعَنِي فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ . وَلَمْ أَجِرُوهُ عَلَى الْبُعدِ عَنِ الشَّاطِئِ ، حَتَّى
لَا أُعَرِّضَ نَفْسِي لِلْأَخْطَارِ . وَقَدْ وَجَدْتُ - لِحَسْنِ حَظِّي - غَدِيرَ
ماءِ صَالِحٍ لِلشُّرْبِ ، بِالْقُرْبِ مِنِّي .

فلما جاء اليومُ الرابعُ ، جازَتْ فَبَعْدُتْ عنِ الشاطئِ قليلاً . ولمَّا كَذَ أَفْلَى حَتَّى رَأَيْتُ جَمِيعَهُ مِنَ الْهَمَجَ ، يَتَرَجَّحُ عَدُدُهَا بَيْنَ العَشْرَ وَالثَّلَاثِينَ ، وَهِيَ جَائِيَةٌ عَلَى يَقْاعِدِهِمْ لَا يَبْعُدُ عَنِّي أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِيَّةِ خطوةٍ .

وَرَأَيْتُ الْهَمَجَ : مُرَاءَ الْأَجْسَامِ – رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا – وَقدْ جَلَسُوا حَوْلَ نَارٍ دَلَّنِي عَلَيْهَا دُخَانُهَا .

وَلَمَّا حَنَى أَحَدُهُمْ ، فَنَبَّهَ رِفَاقَهُ إِلَيْهِ ؛ فَأَسْرَعَ نَحْوِي خَمْسَةً مِنْهُمْ . فَلَمَّا أَجِدْ بُدَّا مِنَ الْفِرَارِ إِلَى الشاطئِ ، حَتَّى بَلَغْتُ قَارِبِي ، وَلَمْ أَدْخِرْ جُهْدًا فِي التَّجْدِيفِ هَرَبَّا مِنْ شَرِّهِمْ .

وَلَمَّا رَأَى الْهَمَجُ أَنَّ فَرِيسَتَهُمْ تَكادُ تُقْلِتُ مِنْ أَيْنِهِمْ ، عَدَوْا خَلْفِي ؛ حَتَّى إِذَا يَئُسُوا مِنَ الْلَّحَاقِ بِي ، أَطْلَقَ عَلَى أَحَدُهُمْ سَهْمًا ، فَأَصَابَنِي فِي رُكْبَيِّ الْيُسْرَى ، وَجَرَحَنِي جُرْحًا يَلِيقًا لَّمْ يُمْحَى أَثْرُهُ مِنْ جِسْمِي حَتَّى أَمُوتَ . وَضَاعَتْ قُوَّتِي فِي التَّجْدِيفِ ، حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْعَدَ مِنْ مَرْمَى سَهَامِهِمْ . وَكَانَ الْجُوُو صَحْوَا ، فَصَرَّتُ الْجُرْحَ ، وَضَمَدْتُهُ جَهْدَ طَاقَتِي ، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ السَّهْمُ مُسْوِمًا : وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ .

٣ - سفينة أوربيّة

واشتَدَتْ حِيرَتِي وارتباكِي؛ فقد أصبح من المُحال على أن أجاري بالعودَة إلى المكان الذي اعتدَى على الجميع فيه. ولمَحْتُ شراع سفينة يلوح ويستخفُّ بين لحظة وأخرى؛ فلم أثأر أن الحق بالسفينة، حذراً من أن تزجعني إلى بلادي، وتحرمني لذة الوحَدة والعزلة في جزيرة مُقفرة. وقد كنتُ أوثر الموت على أن أعود إلى مُخالطة «الياهو» مرة أخرى.

فحولتُ زورقي ناحية الشاطئ، ورسوتُ في خليج صغير، وعزمتُ على أن أسلم نفسي لأول متواشي يلقاني، ليقتلني؛ فإن الموت أحب إلى نفسي من لقاء تلك الدواب الأدمية المتحضرة. ولما دنوتُ من الشاطئ، تركتُ الزورق، واحتسبتُ خلف صخرة قريبة من الغدير. وليثت قليلا؛ فرأيتُ السفينة تقترب من الخليج، ثم ترسو على مسافة نصف ميل منه، ثم تُرسِلُ زورقها — وفيه برميلان — لينملأها الملاحون ماء.

وَأَدْرَكَتُ - حِينَئِذٍ - أَنْ هَذَا الْمَكَانَ مَرْوُفٌ مَطْرُوقٌ . فَلَمَّا دَنَا
مَلَاحُو السَّفِينَةِ مِنْ لَمَّا جَدَ مُسْتَعْسِمًا لِلْفِرَارِ ، فَلَبِثَتُ فِي مَكَانِي مُخْتَبِطًا .
وَرَأَى الْمَلَاحُونَ قَارِبِي ، فَجَعَلُوا مِنْ وُجُودِهِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ،
وَقَسْطُوهُ ؛ فَادْرَكُوا أَنَّ صَاحِبَهُ قَرِيبٌ مِنْهُ . وَسَارَ أَرْبَعَةُ مِنْهُمْ مُسْلِحِينَ
يُفْتَشُونَ ، حَتَّى عَثَرُوا عَلَى مُخْتَبِطًا خَلْفَ الصَّخْرَةِ ، وَرَأَوْنِي رَاقِدًا
وَوَجَهِي إِلَى الْأَرْضِ : فَدَهِشُوا مَا رَأَوْا .

وَاشْتَدَّتْ دَهْشَتُهُمْ حِينَ أَبْصَرُوا ثِيابِيَ الْمُصْنوعَةَ مِنْ جَلْدِ الْأَرَانِبِ ،
وَحِذَايَتِ الْخَشْبِ ، وَجَوْزَبِيَ الْفَرِيبَ الْمُنْظَرِ . وَأَيْقَنُوا أَنِّي لَسْتُ مِنْ
أَهْلِ الْبَلَادِ : لَأَنَّ أَهْلَهَا جَمِيعًا مِنَ الْهَمَاجِ الْمُرَأَةِ .

٤ - حِوارُ الْمَلَاحِينَ

وَأَمْرَنِي أَحَدُهُمْ أَنْ أَقِفَ - وَكَانَ يُخَاطِبُنِي بِالْلُّغَةِ الْبُرْتُغَالِيَّةِ -
وَسَأَلَنِي مُتَعَجِّبًا : « مَنْ أَنْتُ؟ »
فَأَجْبَتُهُ بِالْبُرْتُغَالِيَّةِ ، وَكُنْتُ أُجِيدُهَا :
« إِنِّي « يَاهُو » مِسْكِينٌ » ، تَقْتَنِي سَادَةُ الْجِيَادِ مِنْ بَلَادِهَا ، وَإِنِّي

أُقِيمُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْكَنِي وَشَائِنِي !

فَدَهِشَ الْمَلَاحُونَ مَا سَمِعُوا ، وَعِجِّبُوا إِذْ رَأَوْنِي أُجِيدُ لِتَهْمَمْ ،
وَأَيْهُنُوا أَنِّي أُورُبِّي . وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا مَا أَغْنِيَهُ بِكَلْمَةِ « يَاهُ »
وَلَمْ يَعْرِفُوا شَيْئًا مَا أَعْرَفُهُ عَنِ السَّادَةِ الْجِيَادِ ؛ فَلَمْ يَتَمَالَكُوكُوا أَنْ
يَضْطَحَّكُوكُوا ؛ لَأَنْ لِهَجَّتِي الَّتِي حَدَثَتْهُمْ بِهَا كَانَتْ لِهَجَّةَ جَوَادِيَّةً صَاحِلَةً ،
لَمْ تَأْلَفُهَا آذَانُهُمْ مِنْ قَبْلُ !

أَمَا أَنَا قَدْ عَرَسْتِنِي هِزَّةً وَرِغْدَةً شَدِيدَتَانِ ، حِينَ رَأَيْتُ هَذِهِ
الدَّوَابَ الْأَدَمِيَّةَ أَمَامِي ، وَالْتَّمَسْتُ مِنْهُمْ - ضَارِعًا - أَنْ يَتَرَكُونِي
وَشَائِنِي . وَهَمَّتْ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى زَوْرَقٍ ؛ فَلَمْ يَسْمَحُوكُوا لِي بِذَلِكَ ،
وَأَمْسَكُوكُوا بِتَلَابِيَّجِي ، وَسَأَلُونِي :

« مَنْ أَيّْ الْبَلَادِ أَنْتَ ؟ وَمَنْ قَدِمْتَ الْآنَ ؟ »

فَقَبَلْتُ لَهُمْ :

« نَشَأْتُ فِي « إِنْجِلْتَرَا » ، وَقَدْ غَادَرْتُهَا مِنْذُ سَنَوَاتِ خَمْسٍ ،
وَمَا أَنَا إِلَّا « يَاهُ » حَتَّىْرُ الْقَدْرِ ، ضَئِيلُ الْخَطَرِ . وَقَدْ اعْتَزَمْتُ أَنْ
أَقْضِيَ مَا بَقِيَ مِنْ حَيَايِي الشَّقِيقَةَ التَّعْسَوَ فِي عُزْلَتِي عَنِ النَّاسِ . »

فَدِهِشُ الْبُرْتَقَالِيُونَ مَا سَمِعُوا، وَعِجِيبُوا مِنْ جَرْسِيَ الصَّاهِلِ وَلَهْجَتِيَ
الغَرِيبَةِ، وَإِنْ كَانُوا قدْ فَهِمُوا الْفَاظِيَ كُلُّهَا.

وَلَمْ تَكُنْ دَهْشَتِيَّةِ لَهْجَاتِهِمْ بِأَقْلَى مِنْ دَهْشَتِهِمْ مِنْ لَهْجَتِيِّي؛ فَقَدْ
حَسِبْتُنِي أَمَامَ عَجِيبَةِ خَارِقَةِ مِنْ غَرَائِبِ الطَّبِيعَةِ الشَّاذَةِ، وَخُبِيلَ إِلَى
— وَأَنَا أُنْصِتُ لِحَوَارِمْ — أَنِّي أَسْمَعُ بَقَرَةً أَوْ كَلْبًا يَتَكَلَّمُانِ فِي
بَلَادِنَا، أَوْ « يَاهُ » يَتَكَلَّمُ فِي جَزِيرَةِ الْجِيَادِ النَّاطِقَةِ.

وَلَا أَكُنْ أَنَّهُمْ تَلَطَّفُوا بِي، وَلَمْ يَتَرَكُوا جُهْدَهَا فِي مُلَائِيَّتِي
وَالْتَّرْفِيهِ عَنْ نَقْسِي، وَأَكْدُوا إِلَى أَنْ رُبَّاهُمْ — وَهُوَ مِثَالُ الْوَدَاعِيَةِ
وَدَمَائِتِيَ الْخَاقِي — سَيَحْتَفِي بِمَقْدِيمِي، وَيُكَرِّمُ وِفَادِيَتِي، وَيُقْلِنِي فِي
سَفِينَتِهِ مِنْ غَيْرِ أَجْرٍ، حَتَّى أَصِلَّ إِلَى « لِشْبُونَةَ »؛ حِيثُ يَسْمُلُ عَلَى
السَّفَرُ مِنْهَا إِلَى « إِنْجِلِيتَرَا ».

ثُمَّ أَوْفَدُوا اثْنَيْنِ مِنْهُمَا لِمَقْبَلَتِ الرُّبَّانِ وَالْإِفْضَاءِ إِلَيْهِ بِمَا عَرَفَاهُ مِنْ
أَمْرِيِّ، وَطَلَبُوا إِلَى — بَعْدَ أَنْ شَدُّوا وَثَاقِي — أَنْ أُقْسِمَ بِشَرَفِيِّ أَنْ
أَكُفَّ عَنْ مُحاوَلَةِ الْهَرَبِ. فَلَمْ أَرَ وَسِيلَةَ تُمْكِنُنِي مِنْ مُخَالَفَتِهِمْ،
فَأَجْبَتُهُمْ — مُؤْمَنًا — إِلَى مَا افْتَرَحُوهُ.

وكانوا مشغوفين بترثيف قصتي ، وما وقع لي من الأحداث والخطوب ؛ فقصّمت عليهم طرفا يسيراً مما حدث لي ، لعل أرضي فضولهم . فتعاظمتم الدهشة ، وحسبوا أن الكوارث التي حلّت بي قد أضاعت عقلي وصيّرتني أهذى دون أن أعرف ما أقول .

وبعد ساعتين عاد الزورق والملاحان ، وأبلغا رفيقيهما أن الربان قد أمر باستدعاء إلية . فجئته على ركبتي ضارعا إليهم أن يتكوني حراً ؛ فلم يقبلوا رجائي ، وحملوني - عنوة - إلى الزورق ، ومضوا بي ، حتى بلغنا غرفة الربان .

٥ - حفارة الربان

وكان الربان - على الحقيقة - غاية في الوداعة والتلطف والأدب ؛ فاحتق بمعدمي ، وهش لي وبش ، وسألني متودداً عن حقيقة أمري ، وعمما تشتهيه تقسي من طعام وشراب ، وأكده لي أنه لن يعاملني إلا معاملة الأخ أخاه ، والله نديه . فدّهشت من هذه الأخلاق الفاضلة ، وعجبت كيف تتحلى بمثلها دابة آدمية مثله .

ولَكِنِّي لَزِمتُ الْمُبُوسَ وَأَثْرَتُ الصَّمْتَ ، وَكَادَ يُفْعَى عَلَى حِينَ شَمِّتُ رِيحَهُ وَرِيحَ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ رِجَالِهِ . وَطَلَبَتُ أَنْ آكِلَّ مِنَ الرِّزْدِ الَّذِي أَعْدَدْتُهُ فِي زَوْرَقِي ؛ وَلَكِنَّ الْرَّبَانَ أَمْرَ رِجَالَهُ أَنْ يُعِدُّوا لِي دَجَاجَةً وَشَيْئًا مِنَ الشَّرَابِ الْفَاخِرِ . ثُمَّ أَعْدَدُوا لِي سَرِيرًا نَظِيفًا فِي غُرْفَةٍ مُنْعَزِّلَةٍ : فَلَمْ أَزِرْعُ مَا عَلَىٰ مِنَ الشَّيْبِ ، وَانْطَرَحْتُ عَلَى السَّرِيرِ زُهْاءً نِصْفِ سَاعَةٍ . ثُمَّ اسْتِيقَظْتُ ، فَخَرَجْتُ مِنْ غُرْفَتِي ثَانِيًّا . وَهَمِّتُ أَنْ أَقْدِفَ بِنَفْسِي إِلَى الْبَحْرِ وَأَعُودَ سَابِحًا مِنْ حِيثُ أَتَيْتُ ، لِأَخْلُصَ مِنْ مُعَاشِرِهِ هَذِهِ الدَّوَابُ الْآدَمِيَّةُ الْبَشِّرَةُ . وَلَكِنَّ أَحَدَ الْمَلَائِكَ حَانَتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ : فَأَدْرَكَ مَا هَمِّتُ بِهِ ، وَحَالَ دُونَ تَحْقِيقِ مَا أَرَدْتُ . وَلَمَا عَلِمَ الْرَّبَانُ بِمَا حَدَثَ أَمْرَ أَعْوَانَهُ بَشَدٌّ وَثَاقٌ ، حَتَّى لا أَحَابُّ مِثْلَ ذَلِكَ مَرَةً أُخْرَى .

وَلَمَا اتَّهَوْا مِنْ طَعَامِهِمْ ، جَاءَنِي الْرَّبَانُ لِيَتَعَرَّفَ أَسْبَابَ سُخْطِي وَالْمَعِي ، وَتَلَطَّفَ مَعِي فِي القَوْلِ ، وَحَادَّتِي فِي أَسْلُوبِ مُؤَثِّرِ وَلِهَجَةِ تَقِيَّضِ حَنَانَا وَرِقَّةَ ، وَطَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْهِ بِدِخْلَتِي . فَأَنْسِتُ إِلَيْهِ شَيْئًا ، وَبَدَأْتُ أَرَى فِيهِ دَاهِيَّةً عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّعَقُّلِ :

فَرَوَتْ لَهُ - فِي إِبْجَازٍ - قِصْتِي مَعَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ افْتَمَرُوا بِي ،
وَمَا أَغْتَبَهَا مِنْ مُفَاجَاتٍ : فَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ رُؤْيَ وَأَحَلَامًا .

وَقَدْ آتَمْنِي مَا بَدَا عَلَى سِيمَاهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْإِرْتِيَابِ وَالشَّكْ فِي
صِدْقِي مَا أَقُولُ . وَكُنْتُ قَدْ نَسِيْتُ فِي أَثْنَاءِ إِقْامَتِي فِي تِلْكَ
الْبَلَادِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْذِبُونَ ، وَأَنَّهُمْ - وَهُدَمْ - قَدْ افْرَدُوا
مِنْ بَيْنِ دَوَابِ الْأَرْضِ كُلُّهَا بِالشَّكْ فِيمَا يَسْعَونَ ، وَالْكَذِبِ
فِيمَا يُحَدِّثُونَ .

فَسَأَلْتُ مَدْهُوشًا :

«هَلْ تَعَوَّذْتُمْ فِي بَلَادِكُمْ أَنْ تَذَكِّرُوا شَيْئًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ ؟
أَمْ يُقْلِمُ أَبْنَاءَ آدَمَ عَنْ عَادَةِ الْكَذِبِ إِلَى الْيَوْمِ ؟
لَقَدْ عَيْشْتُ بَيْنَ ظَهْرَائِيِ الْجَيَادِ زَمْنًا طَوِيلًا ، لَمْ أَسْمَعْ كَذَبَةً
وَاحِدَةً : مِنْ سَادَتِهِمْ وَخَدَمَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ . وَلَوْ عَيْشْتُ مَعْهُمْ أَلْفَ
سَنَةٍ لَمَا سَمِعْتُ مِنْ أَصْفَرِ خَدَمَهُمْ خَبَرًا وَاحِدَةً غَيْرَ صَحِيحٍ .
فَمَا بِالْكُمْ - يَا مَعْشَرَ «الْيَاهُو» - تَرْتَابُونَ فِيمَا تَسْمَعُونَ ؟

على أنني أترك لك الحرية في تصديق ما أقول، أو الشك فيه!»
 ولم أشأ أن أتكلكاً في إجابته عن أسئلته : لأنني رأيت من سجادة أخلاقه ما دفعني إلى الإغضاد عما أفتته طبيعة «الياهو»، التي لا تندى له عنة؛ فأجبت عن أسئلته كلها في بساطة وصراحة .
 وكان عاقلاً ذكيًا بعيد النظر؛ فلم يلبث أن أخذ بكلامي ، واعتقد الصدق فيما قلت . ثم التفت إلى قائلاً :
 « ما دُمتَ مُتَمَسِّكًا بالفضيلة إلى هذا الحد ، فإني أرجو أنْ تَعِذَنِي - وتقسم بشرفك أن تتحقق وعدك - أن تبقى منا طول الرحلة ، وإلا اغتسلت في غرفتك حتى تصيل إلى : لشبونة . »
 فماهنته على إجابته إلى ما طلب ، بعد أن أفضيت إليه بمقدار
 للدواب الآدمية كلها ، وتُورى من لقائهما والعيش بين ظهرانيهما .

٦ - نهاية الرحلة

ومرت أيام الرحلة كلها من غير أن يُصيّبنا مكرورة أو يقع لنا حادث يستحق الذكر . وكان الربان يُلْمِع على - في كثير من الأحيان - أن أتحدث إليه ، فلا أخيب رجاءه لدَمَائِه خلقه .

وقد بذلتُ جهدي في إخفاء كراهيهي لهذا الجنس الآدمي الممقوت؛ ولكن بوادر هذا التفور كانت تظهر على الرغم من أحياناً، فيغضى عنها الربانُ مُتظاهراً بأنه لم يفطن إلى شيء مما رأى.

وقد ألحَّ علىَّ في آن أخلع ثيابيَّ - التي صنعتها من جلدِ الأرانبِ - ليلبسنَّ غيرها؛ فشكرتُ له ذلك، واستبشرتُ أنَّ أضعَ على جسми ثياباً ارتدتها دابةٌ آدميةٌ قتليَّ !

وسألهُ أنْ يفترضني قميصينِ أحيدَ غسلهما، لا لأدؤُلَّ بينهما في ارتدائهما .

وفي اليوم الخامس عشرَ من نوفمبر وصلنا إلى « لشبونة » . وقد أرغمَيَ الربانُ على ارتداء معطفهِ ، قبلَ أنَّ أهبطَ إلى المدينة؛ حتى لا يستغرَّ مني غوغاء الناسِ وأوشابُهم في الطريقِ .

٧ - في بيتِ الربانِ

ثم ذهبَ بيَّ الربانُ - واسمهُ الدوقُ « بِترو » - إلى بيتهِ . فالحقَّتُ عليهَ أنْ ينزلَنِي حجرةً مُعزَّلةً بالطَّابقِ الأعلىِ ،

وأقسمتُ عليه أن يكتُم أمرِي عن جميع الناسِ ؛ حتى لا تهافتَ علىَ
جماهيرِهم ، فتُزعجَنِي وتقْضيَ ماضِي وتكدرَ صفوِي ، فضلاً
عما تجرّهُ علىَ من تحقّيقِ رجالِ التفتيشِ وأسئلتهمِ التي لا تنتهي
بغيرِ القتلِ والإحرابِ .

وألحَّ علىَ الدوقِ في أن أرتديَ ثوبًا جديداً : فلم أقبلُ .
وأيَّدتُ أن أسمحَ لخياطِه بتفصيلِ الثوبِ علىَ قدِّي ؛ حتى لا تمسَّ
جسمي يدهُ . وكان الدوقُ « بُثرو » في مثلِ قامتي تقريباً ، فأعطاني
ثوبًا جديداً — فصلَهُ الخياطُ علىَ قدمِه — لألبسهِ .

وكان الدوقُ عَزَبَا ، وليس في بيته إلَّا ثلاثةٌ منَ الخدامِ .

وقدْ أجابني إلى طلبِي ، فلم يأذن لأحدٍ منهم بالوقوفِ علىَ المائدةِ ، في
أثناءِ الطعامِ . فشعرتُ له بشيءٍ منَ التقديرِ ، لما رأيته من حسنِ أدبهِ
وتلطفِه . وكان له عقلٌ نادرٌ إذا قيسَ إلى عقولِ أقرانِه من الدوابِ
الآدميةِ . فاطعنتهُ ، وأذعنْتُ لارادتهِ حين زَيَّنَ لي أن أطْلَلَ من
نافذةِ الحُجْرَةِ المُشرفةِ علىَ فناءِ دارِه . وما زال بي حتى أُنْزَلَني حُجْرَةً
أخرى تُشرفُ علىَ الطريقِ العامَّ . وكان يُزِينُ لنفسي أن أطْلَلَ

من النافذة ، لعل آلف روحة الناس ؛ فلا أكاد أنقل حتى أتراجع
فريعاً من بشاعة ما أرى من سخنات « الياهو ». ثم استدرجني
إلى الجلوس أمام البيت ، بعد ثمانية أيام .
ولما جاء اليوم العاشر ، قال لي مُتلاطضاً :

« لا مناص لك من المودة إلى بيتك ، لعيش بين أولادك وأهلك .
وقد علمت أن سفينه تأهب اليوم للسفر إلى « إنجلترا » ، فاغدلت
لك معدات السفر . ولا يدورن بخلدك أنك قادر على تحقيق أربيلك
في العزلة : فإنك لن تظفر - مهما تبذل من جهد - بجزرة قراء
كما تعلم . وربما ظهرت بالعزلة في بيتك ، حيث تجد من الراحة
ما لا تجده في مكان آخر . »
فلم أجد بدأ من التسليم له بصحة ما رأه .

٨ - في أرض الوطن

وهكذا غادرت « لشبونة » في اليوم الرابع والعشرين من
نوفمبر ، وركبت سفينه تجارية . وقد ودعني « الدوق » وعاتقني ،

فتحملتُ هذا التَّلَطُّفَ على مَضَضٍ ، دونَ أَنْ أُبِدِيَ أَمامَهُ أَقْلَى
أشمَّازٍ أوْ تُؤْرِي !

وَتَقْضَى عَلَى فَاقْرَضَنِي عِشْرِينَ جُنْيهًا ، فَشَكِّرْتُ لَهُ صَنِيعَهُ هَذَا .
ثُمَّ أَقْلَعْتُ السَّفِينَةَ . وَانْتَبَذْتُ نَاحِيَةَ قَصِيَّةَ فِيهَا ، وَتَظَاهَرَتْ
بِالْمَرْضِ حَتَّى لَا يَدْخُلَ حُجْرَتِي أَحَدٌ مِّنْ « الْيَاهُ » .

وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ دِيْسِمْبِرِ عَامِ ١٧١٥ مَأْلَقَتِ السَّفِينَةُ مَرَاسِيهَا
فِي « دُونَ » ، وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَى الْمَيْنَاءِ فِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ صَبَارِ
ذَلِكَ الْيَوْمِ .

فَوَاصَلتُ السَّيرَ إِلَى بَلْدِي « رِدِيفَ » ، حَتَّى بَلَغْتُهُ فِي السَّاعَةِ الْثَّالِثَةِ
بَعْدَ الظَّهَرِ .

٩ - اجتماُ الشَّمْلِ

وَمَا وَصَلَتْ إِلَى بَيْتِي . حَتَّى لَقِيَتِنِي زَوْجِي وَأَفْرَادُ أُسْرَتِي ،
فَرِحِينُ مُسْتَبِشِينَ . وَكَانُوا عَلَى يَائِسٍ مِّن لِقَائِي ، بَعْدَ أَنْ سَلَكُونِي
فِي عِدَادِ الْهَلْكَى وَلَمْ تَعُدْ تَخْطُرُ لَهُمْ عَوْدَتِي عَلَى بَالِي .

وقد ملأتهم الفيَّطة والشُّرُورُ . أما أنا فتَمَلَّكتِي الحُزْنُ والكرامةُ
والضمير ، برغم تقديري لتلك الرابطة الوثيقة التي تجمعني بهم .
فقد تَاصَلَ في قسي مقت « اليهو » ، على اختلاف مراتبه وأجناسه :
من نساء ورجال ، وشيوخ وأطفال ، وأقارب وأباعد . وأصبحتُ — بعد أن
افتُ معاشرةً للجياد الناطقة — لا أطيق رؤية الدواب الأدمية ، ولا أرتاح
إلى لقاء أحدٍ من هذا الجنس . وكانت قسي مملوءة إجلالاً وإكباراً
لتلك الجياد البليدة ، التي جمعت أشرف الصفات وأكرم الأخلاق .
وكنت كلما فكرت في أنني قد تزوجت دابةً آدميةً
وأصبحت والدًا لدواوَب آدميةً أخرى ، شعرت بخجل عظيم ، وتمثلَ
لـ العار والشقاء !

ولم أدخل المنزل حتى ضممتني زوجتي إليها وطوقتني بذراعيها
و قبلتني وهي فرحةً يعودت إليها ؛ فلم أطق صبراً على ذلك .
وكنت قد تعودت ألا أمس أحداً من « اليهو » منذ سنوات ،
فخافتني قوائِي واتتابني الضعف ؛ فأغميَ على وهوَيْتُ إلى الأرض ،
وبقيت في غشائي زهاء ساعة ، ثم عُذْتُ إلى صوابي .

١٠ - في صُحْنِي جَوَادِين

وانتقضَ علىَ عَوْدَتِي سَنَوَاتٌ خَمْسَةَ قَبْلَ أَنْ أَقُولَى عَلَى حَمْلِ
الْقَلْمَ لِكِتَابَهُ هُذِي الرُّخْلَةِ الِّي أَقْصَى أَخْبَارَهَا عَلَى الْقَارِئِ .
وَلَمْ أَكُنْ أُطِيقُ رُؤْيَا زَوْجِي وَوَلْدِي خِلَالَ الْعَامِ الْأَوَّلِ .
وَكَانَتْ رَائِحَتُهُمْ تَمَلاً تَقْسِي تُفُورَا وَتَقْزِزاً . وَكَنْتُ أَشْعُرُ بِالْمُلْمَ
شَدِيدِ كَلْمَا رَأَيْتُهُمْ يَجْلِسُونَ مَعِي وَلَمْ أَكُنْ أُبِيِّعُ لِواحِدِهِمْ
أَنْ يَمْسَ خُبْزِيْ أوْ يَشْرَبَ مِنْ قَدَحِيْ ، أَوْ يَلْمُسَ يَدِيْ .
وَقَدْ انتَهَزْتُ أَوْلَ فُرْصَةَ سَنَّتَ لِي ، فَاشْتَرَتُ مُهْرِنْ ، وَأَعْدَدْتُ
لَهُمَا إِصْطَبْلَ حَيْثُ أَنْزَلْتُهُمَا أَحْسَنَ حُجْرَةِ . وَكَنْتُ آنَسُ بِقُرْبِهِمَا
وَأَرَاهُمْ إِلَى مُحَاوِرَتِهِمَا . وَيُنْعِشُنِي طِيبُ رَائِحةِ الإِصْطَبْلِ ، كَا
أَهَشُ لِلسَّائِسِ وَأَطْرَبُ لِرَائِحَتِهِ الْذِكِيرَةِ الِّي أَكْتَسَبَهَا مِنْ جَوَادِينِ
الْإِصْطَبْلِ الْمُعَطَّرِ وَعِشْرَةِ الْجَوَادِينِ الْكَرِيمَيْنِ . وَقَدْ أَتَخَذْتُهُ لِي
جَلِيسًا وَمُؤْنِسًا .
وَكَنْتُ أَحْمَمْ صَاهِلًا مَعَ الْجَوَادِينِ ، وَتَدُورُ بَيْنَنَا مُحَاوِراتٌ

صَاهِلَةُ ، قُرْبَةَ سَاعَاتٍ أَرْبَعَ عَلَى الْأَقْلَمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ . وَكَانَا يُعِيدان
فَهُمْ مَا أَقُولُ .

وَلَمْ أَكُنْ أَدْخِرُ وَسَنَا فِي الْعِنَاءِ بِأَمْرِهِمَا ، وَتَلْبِيَةَ رَغْبَاتِهِمَا .
وَقَدْ عَاشَا مَعِي فِي صَفَاه وَدَعَةٍ وَانْشِراحٍ ، وَلَمْ يَمْسِ جَسَدَيْهِمَا
سَرْجٌ وَلَا لِحَامٌ .

الفصل الثاني عشر

١ - صدق الرواية

لقد صدقتك الحديث - كما رأيت أنها القارئ الشريف -
وتوخيت الأمانة فيما نقلته لك عن رحلاتي، خلال بضعة أيام
وبعدة أشهر وستة عشر عاماً.

وقد عنيت - في هذا الكتاب - بال الصحيح من الأحاديث ،
أكثر مما عنيت بزخرف القول ومونق اللفظ .

وقد كان في وسعي - لو ارتضيت نهج غيري من السائرين - أن
أمتسع نفسك وأسكن البهجة في خلقك ، بما أزوّره لك من عجيب
الأقصيص وغريب الحوادث التي لا تمت إلى الحقيقة بنسب . ولتكنى
اخترت الصحيح الثابت ، وارتضيت الأسلوب السهل ، وأثرته
على الخيال الرائع والعبارة المنمقة . وأخذت قسي يار شاديك وتعليمك ،

ولم أشاً أن أسلِّيك وأرْفُه عن تقِيك بأقاصيصن لا أصل لها.

ولم يكن أيسرا علينا - مفترِّ السائرين في تلك الأصقاع النائية، التي لا تكاد تطأها قدم متَّحضر - من أن نصف لك عجائب الدوابُ البحريَّة والبريَّة. ولكنني لم أفعل شيئاً من ذلك: لأنني أعتقد أنَّ أولَ واجباتِ الكاتبِ المعني بالأشفارِ، أنْ ينصرف إلى تنقيفِ الإنسانِ وتهذيبِه، ويعنى بتوسيعِ مداركه وتوفيرِ معرفته وتقويمِ ذكائه، بما يعرضه عليه من المُثُلِ العلية والفاشدة على السواء؛ مما يراه فيما يرتادُ من أرجاءِ سَجِيقَةٍ لا عهد لأحدٍ بروايتها.

ولكم تمنيتُ - من كل قلبي - أن تسُنَّ الحكومةُ قانوناً يفرضُ على كل سائح أن يقسم بمُحرِّجاتِ الأقامِ - قبلَ أن يُوذنَ له في نشرِ رحلاته - أن يتَّوَخَّى الصَّحِيحَ في كل ما يكتبه ويطبعه. وأن يبذل قصاراه في نُصرةِ الحقِ والتزامِ الصدقِ. وئمة يؤمنُ الناسُ خداعَ الكتابِ الذين تدفعهم الرغبةُ في التَّنادِرِ وحبُ الرواجِ لمؤلفاتهم إلى تشكُّبِ الجادةِ، وحشدِ الأغالطيِ والمُفترَياتِ في كُتُبِهم التي تُسمِّ عقلَ القارئِ البريءِ.

لَقَدْ قرأتُ - في شِرْيَخ شَبَابِي - كثِيرًا مِنْ كُتُبِ الرَّحَالِينَ ،
وأعْجِبْتُ بِمَا تَعْوِيهَا مِنْ طُرَفٍ وَغَرَائِبَ ، ثُمَّ تَبَيَّنَتْ مَا فِيهَا مِنْ زُوُّوفٍ
وَأَوْهَامٍ وَخُرَافَاتٍ ، بَعْدَ أَنْ جَبَتْ بِنَفْسِي كثِيرًا مِنَ الْأَصْنَاعِ
الثَّانِيَةِ .

وقد عافتْ عَيْني - لِهَذَا السَّبِيلِ - مُطَالَعَةً كثِيرًا مِنْ تِلْكَ
الْأَسْفَارِ ، وَامْتَلَأَتْ نَفْسِي بِالْمَقْتِ وَالْإِحْتَقارِ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْتَهِينُونَ
بِالْحَقِّ وَلَا يَحْرِسُونَ عَلَى الصَّدْقِ ، بَلْ يَتَعَمَّدُونَ خِدَاعَ النَّاسِ
وَتَفْسِيلَهُمْ . فَلَا غَرَوْا إِذَا أَخْذَتُ نَفْسِي بِتَوَحْشِي الدُّقَّةِ وَالِتِزَامِ الصَّحِيحِ
فِيمَا قَصَّصْتُهُ عَلَى الْقَارِئِ ؛ لَعْلَهُ يَعِدُ فِي تِلْكَ الْجَهُودِ الْفَعِيفَةِ - الَّتِي
بَذَّلَتْهَا لِخَدْمَةِ الْحَقِيقَةِ - فَائِدَةً لَهُ .

وَلَقَدْ كَانَ لِلْجَيَادِ النَّاطِقَةِ - الَّتِي أَقْمَتْ بَيْنَ ظَهَرَانِيَها زَمَانًا غَيْرَ
قَصِيرٍ - أَكْبَرُ الْفَضْلِ فِي هَذَا الْحَرْصِ النَّادِرِ وَتِلْكَ الْفَيْرَةِ الشَّدِيدَةِ
عَلَى الصَّدْقِ . وَمَا زِلتُ مَدِينًا لِلْجَيَادِ بِكُلِّ فَضْلِهِ تَحْلِيَتُ بِهَا
إِلَى الْآزِ .

٢ - غاية المؤلفين

ولست أجهل أن أمثال تلك المؤلفات لا تحتاج إلى عبرية ، ولا تقتضي من صاحبها اطلاعاً واسعاً ولا خبرة نادرة ولا ذاكرة واعية . كلا ، ولن تكتسبه مجدًا باقيا : لأن مؤلفها قلما يختلفون عن مؤلفي المعاجم اللغوية : لا ينتهون من تأليف معاجمهم حتى يُضيق عليهم التسخين أذى الله : ذلك بأن مؤلفي المعاجم التي تعقبهم قد بذلوا جهوداً ساق لهم ، وأضافوا معارفَهم إلى معارفِ من تقدّمُهم ؛ فأصبحت معاجمُهم الصرية أحل بالفائدة وأجدر بالعناية مما سبقها .

ولن يشُق على السائحين الجدد أن يُغيفوا — إلى ما أقصبه من الأخبار — طرائفَ وبدائعَ لم أفلن إليها ، أو يحدِّفوا ما وقعتُ فيه من هنواتٍ — إن وجدت — فيصيّحوا بذلك أجدرَ مني بالتقدير . ثم ينسى العالم كلّ ما قدّمت له من حقائق وأنباء . على أنني لم أحفل بشيءٍ من هذا كله ؛ لأنني لا أبني الخلود

بِمَا كَتَبْتُ وَلَا أَطْمَعُ فِي الثَّنَاءِ؛ وَإِنَّمَا أَبْغى الْعِظَةَ وَأَتَوَّخِي
الْفَائِدَةَ. وَقَدْ أَثْبَتْتُ أَثَارَةً مَا عَرَفْتُهُ مِنْ فَضَائِلِ الْجِيَادِ النَّاطِقَةِ؛
لِيَرَى الْعَاقِلُ الْحَصِيفُ مَدَى مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَسْفٍ، إِذَا قَاسَ فَضَائِلَهُ
إِلَى فَضَائِلِ هُولَاءِ السَّادَةِ الْأَمْجَادِ!

وَلِيَسْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ غَايَةً يَتَوَخَّاها مُؤْلِفٌ يَنْشُدُ الْإِصْلَاحَ.
وَحَسْبِيُّ أَنْ أَكُونَ نَافِلًا أَمْيَنًا لَا يُرْجِزُهُ الْهَوَى، وَلَا تُعْمِلُهُ
الْأَغْرَاثُ. وَلَسْتُ أَطْمَعُ - بَعْدَ هَذَا - فِي ثَنَاءٍ لَا أَسْتَحِقُهُ،
فَمَا تَوَّخَّيْتُ - بِمَا كَتَبْتُ - غَيْرَ الْحَقِّ وَالْإِنصَافِ.

٣ - آرَاءُ النَّاقِدِينَ

وَلَقَدْ أَشَارَ عَلَىٰ بَعْضِ النَّقَادِ - هَامِسِينَ فِي أَذْنِي - أَنْ أَعِدَّ
تَهْرِيرًا بِمَا كَشَفْتُ عَنْهُ مِنْ الْبُلْدَانِ النَّابِيَّةِ؛ لِتُضَيِّفَهَا الدُّولَةُ إِلَى
فُتُوحِهَا، وَتَرْفَعَ عَلَمَهَا عَلَىٰ أَرْجَائِهَا السَّجِيقَةِ.

وَلَكِنِي لَمْ آخُذْ بِنَصِيْحَتِهِمْ لِبُدِّهَا عَنِ الصَّوَابِ:
فَإِنَّ أَقْرَامَ «لِيلِيَّوْت» لَا يُسَاوُونَ ثَمَنَ الْأَسْلَحةِ الَّتِي نُعِدُّهَا

لِلإِغَارَةِ عَلَيْهِمْ . وَلِنَسْ مِنْ رَجَاحَةِ الْعُقْلِ أَنْ تُهَاجِمَ عَمَالَقَةَ « بُرْبُدِنْجَاجَ » ، وَلَا أَصْحَابَ الْجَزِيرَةِ الطَّائِرَةِ ، وَلَا الْجِيَادَ النَّاطِقَةَ ؛ كَلَّا ، وَلَا سَيِّلَ إِلَى اسْتِعْبَادِهِمْ ، وَلَا فَائِدَةَ لَنَا مِنْ إِخْبَارِهِمْ عَلَى أَيْ حَالٍ .

٤ - أَخْلَامٌ وَأَمَانٌ

أَمَّا بَعْدُ : فَلَيَأْذَنْ لِيَ الْقَارِئُ فِي أَنْ أُوَدِّعَهُ ، وَأَخْلُوَ إِلَى أَحْلَامِي وَأَمَانِي ، وَأَفْتَحَ قَسِي بِمَحَادَثَتِهِ جَوَادِيَ اللَّذِينَ اشْتَرَتُهُمَا ، وَأَنْسَتُ يَقْرُبِهِمَا ، وَفُتِنْتُ بِمَنْظَرِهِمَا ، وَشُغِلْتُ بِهِمَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَلَا أَكُمُّ أَنِّي كُنْتُ لَا أُطِيقُ رُؤْيَاَ الْأَدَمِيَّينَ – كَمَا أَسْلَفْتُ القولَ – وَأَنِّي ظَلَلْتُ أَرْوَضُ قَسِي عَلَى رُؤْيَاَ صُورَتِي : فِي الْمِرِآةِ تَارَةً ، وَفِي صَفَحَةِ الْمَاءِ تَارَةً أُخْرَى ؛ حَتَّى قُلْتُ بِشَاعَةً مَنْظَرِي فِي عَيْنِي .

وَقَدْ سَمَحْتُ لِزَوْجِي – لِلْمَرْأَةِ الْأُولَى – فِي الْأَسْبُوعِ الْمَاضِي

أن تأكل ميعى على مائدة واحدة طولية ، على أن تجلس في طرف المائدة و تتوجه إلى يجاز في إجابتها عن أسئلتي .
و كنت - أول أمرى - لا أطيق رؤية « ياهو » بلادنا ،
ولا أتحمل قربهم : فاضطرر إلى سد أتفى حتى لا تؤذيني رائحتهم .
وليس من السهل على شيخ - في مثل سنى - أن يقلع عن طبيعة أو يبدل مِنْ عادته ؛ ولكن أتمنى في إصلاح الناس و تهذيب
قوتهم ، خفَّ من قوري منهم ، و موحدتى عليهم .

٥ - الكبُرِياءُ

كان من غير المعال - على أي حال - أن أوضن تفسي على
مهاذه جمهور « اليهو » والإغصاء عن مساوئه ، لو ازتفى
لنفسه أن يقنع بما توارثه : من قائل رُكبت في خلقته ،
و حماقات أمرت بحث نظراته .

وما كنت لأنيق ذرعاً بروية من ألقى من مرضى النُّفوس ؛
فليست قائمتهم - فيما أعلم - إلا نتيجة منطقية لـ ما تأصل
في قوتهم من طباعه .

وَلِكِنْهُمْ لَا يَقْفُونَ عِنْدَ هَذَا الْحَدَّ ، وَلَا يَكْتَبُونَ بِمَا رُزِّئُتْ
بِهِ أَجْسَادُهُمْ وَأَرْواحُهُمْ مِنْ عَاهَاتٍ ، فَيُضَيِّفُونَ إِلَى هَذَا الرُّكَامِ
— فِي غَيْرِ حَجَلٍ وَلَا حَيَاةٍ — نَقِيَّةَ الْكِبِيرِيَاءِ .

هُنَا يَخْرُجُ صَدَرِي وَيَنْفَدُ صَبَرِي ، وَتَشَدُّدُ حَيْرَتِي وَتَسْوُرُ ثَوَرَتِي ،
فَسُؤَالُ نَفْسِي : مِثْلُ هَذَا الْحَيَوانِ ، وَمِثْلُ هَذِهِ النَّقِيَّةِ ؟
تُرَى : أَيْ وَسِيلَةٍ جَمَعْتُهُما ، وَأَيْ عَجِيَّةٍ أَفْتَ بِيَنْهُما ؟
وَأَعُوذُ بِذَارِكَتِي إِلَى الْجِيَادِ النَّاطِقَةِ ، فَأَرَاهُمْ — عَلَى الضُّدِّ مِنْ
«الْيَاهُو» — قَدْ عَمَرَتِ الْحِكْمَةُ قُلُوبَهُمْ ، وَسَدَّ الْقُلُولُ أَخْكَامَهُمْ ;
فَلَمْ تُعِزِّهُمْ مَنْقَبَةٌ مِنْ حَمِيدِ الْمَنَاقِبِ الَّتِي يَغْنِي بِهَا الْعَقْلَاءُ .
وَابْحَثُ فِي لُفْتَهُمْ عَنْ كَلِمَةٍ تُعْبُرُ عَنِ الْكِبِيرِيَاءِ : وَلِيَدَةِ
النَّقْصِ وَالْفَنَاءِ ، فَلَا أَظْفَرُ بِطَائِلٍ .

وَيَشَدُّ بِي الْعَجَبُ حِينَ أَرَى لُفْتَهُمْ تَخْلُو مُفَرَّدَاتُهَا مِمَّا يُعْبِرُ
عَنِ الشَّرِّ . وَلَوْلَا لَفَتَاتُ أَطْلَعَتْهُمْ عَلَى نَقَائِصَ لَمْحُوها فِي طِبَاعِ
«الْيَاهُو» ، لَمَّا تَمَثَّلُوا لِلنَّقْصِ وَجُودًا وَلَا تَخْيلُوهُ .
عَلَى أَنْهُمْ لَمْ يَمْيِيزُوا نَقِيَّةَ الْكِبِيرِيَاءِ هَذِهِ ، فِيمَا مَيِّزُوهُ مِنْ نَقَائِصِ

«الياهو». وَعُذْرُهُمْ قَائِمٌ؛ فَقَدْ أَغْوَزَهُمُ الدَّرْسُ الْوَاسِعُ وَالْإِسْتِيَاعُ^١ الجامِعُ، وَوَقَتَتْ بِهِمُ الْمَعْرِفَةُ، فَلَمْ تَزِدْ عَلَى دَرْسٍ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ أَخْلَاقِ «الياهو» فِي جَزِيرَتِهِمْ حَيْثُ يُمْتَهِنُ خَادِمًا، وَلَمْ يُتَّسِعْ لَهُمْ أَنْ يَدْرُسُوا «الياهو» – كَمَا دَرَسْتُهُ فِي بَلَادِي – حَيْثُ يُسَوِّدُ مَلِكًا. فَلَا عَجَبٌ إِذَا فَاتَهُمْ – كَمَا لَمْ يَفْتَنِي – الْمُقَابَلَةُ بَيْنَ «الياهو» فِي حَالِيٍّ : مُتَوَحِشًا وَمُسْتَأْنِسًا، وَأَكْتَسَاهُ مَا اسْتَرَّ مِنْ غَرَائِزَ تَتَجَلَّ فِي طِبَاعِهِ أَنِيسًا مُسَوِّدًا، أَكْثَرَ مِمَّا تَتَجَلَّ فِيهِ وَخَشَا مُسْتَعْبَدًا.

وَلَوْلَا مَا أُتْبِعَ لِي مِنْ دِرَاسَةٍ مُتَعَمِّقٍ خَيْرِ لِجَمَاعَاتِ «الياهو» الْمُتَوَحِشِينَ – مِنْ سُكَانِ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ – لَمَا فَطَنَتْ إِلَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ أَخْلَاقُهُمْ مِنْ نُزُوعٍ إِلَى الْكِبْرِيَادِ .

فَهُمْ – فِيمَا رَأَيْتُ – عَلَى الضَّدِّ مِنْ سَادَتِهِمُ الْجِيَادِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي كَنْفِ الْقُلْ، وَيَدِينُونَ لِحُكُومَتِهِ بِالْوَلَاءِ، وَلَا يُدِلُّونَ بِمَا أَخْرَزُوا مِنْ حِكْمَةٍ، وَلَا يَفْخَرُونَ بِمَا أَوْتُوا مِنْ فَضْلٍ، أَكْثَرُهُمْ مِمَّا أَفْغَرَ أَنَا بِأَنِّي لَمْ أَفْقِدْ ذِرَاماً وَلَا ساقَا . وَهَلْ يَفْخَرُ بِهَذَا عَاقِلٌ؟

إنَّ احتفاظي بالذِّراع والساقي ميزة طبيعية لا تُثير في نفسي شعوراً بالزهو والخيلاء . ولكنَّ فقد أحدِهما يُثير في قصي شعوراً بالتعاسة والشقاء .

خاتمة القصة

نِدَاءُ وَرَجَاءُ

فَإِذَا رَأَيْتَنِي أَبْدَأْ هَذَا الْمَعْنَى وَأَعِيدُ ، وَأَفِيضُ فِي تَفَرِّيرِهِ وَأَسْتَرِيدُ ، فَإِنَّمَا أَسْتَجِيبُ إِلَى أَمْلِي بِرَأْدِنِي ، وَرَغْبَةٌ تُعاوِدُنِي ، فِي أَنْ يَفْطُنَ « الْيَاهُو » إِلَى دَائِرَهِ ، فَيُخَفَّفَ مِنْ غُلوَائِهِ ، وَيُقْلِعَ عَنْ كِبْرِيَائِهِ ، لَعْلَهُ يُتَبَعِّدُ لَنَا ، أَنْ نَشْجُو بِأَغْصَابِنَا ، فِي قَابِلِ أَيَّامِنَا ، وَنَتَقْلِي مِنْ مجْتَمِعٍ شَائِهٍ لَا يُطَاقُ ، إِلَى مجْتَمِعٍ يَسْمُو بِنَا إِلَى أَدَمِي مَا يُحْتَمِلُ مِنْ مَرَاثِبِ الْأَرْهَافِ .

وَهُنَا أَهِبُّ بِكُلِّ مَنْ أَصَابَ مِنْ قَالَ ذَرَّةً مِنَ الْكِبْرِيَاءِ : تِلْكَ النَّقِيَّةُ الْعَمَاءُ ، أَنْ يُنْحِيَ وَجْهَهُ عَنِّي ، وَأَلَا تَدْفَعَهُ الصَّفَاقَةُ إِلَى الدُّنُوِّ مِنِّي ، حَتَّى لَا تَقْذِي بِرُؤُسِنِي عَيْنِي .

مكتبة الكيلاني

مَجْمُوعَاتُهَا : تُسَارِّ التَّلَمِيذَ فِي نَحْوِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قَصَّةً ، رَائِيَةُ الصُّورِ ، بَدِيلَةُ الْإِخْرَاجِ ، مُتَدَرَّجَةٌ بِهِ مِنْ رِيَاضِ الْأَطْفَالِ إِلَى خِتَامِ التَّعْلِيمِ الْعَالَمِيِّ . هُمْ تَسْلِمُهُ إِلَى مَكْتَبَةِ الْكِيلَانِيِّ لِلشَّابِ .

مَادَّهَا : تَقْوُمُ الْخُلُقَ ، وَتَرْبِيَةُ الدُّنْفُنَ ، وَتَعْلِمُ الْأَدَبَ .

فَنَّهَا : يَشُوقُ الْقَارِئَ وَيُنْتَهِ ، وَيُحَبِّبُ الْكِتَابَ إِلَيْهِ .

لُقْتُهَا : شَنِي مَلَكَةُ التَّغْيِيرِ ، وَتَطْبِعُ اللِّسَانَ عَلَى فَصِيحَةِ الْبَيَانِ .

ثَوْرَةُ رَشِيدَةُ ، أَجْمَعَ عَلَى تَأْيِيدهَا وُزَرَاءُ الْمَعَارِفِ وَرَؤْسَاءُ التَّعْلِيمِ وَقَادَةُ الرَّأْيِ فِي الشَّرْقِ ، وَكَبَارُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَعْلَامُ التَّرْزِيَّةِ فِي الْفَرْقَبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عَيْنَتْ بِتَنْشِيَةِ الطَّفْلِ عَلَى أَخْدَثِ أَسُسِ التَّرْزِيَّةِ الصَّحِيحةِ . تَوَالَّتْ طَبَاعَاتُهَا الْعَرَبِيَّةُ ؟ فَتَتَقَفَّ بِهَا الْعِيلُ الْجَدِيدُ فِي بِلَادِ الْعَرْوَةِ ، وَلَمْ يَغُلُّ مِنْهَا يَنْتَهِي عَرَبِيًّا .

تُرْمِجَتْ إِلَى أَكْثَرِ الْلُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَعْضِ الْلُّغَاتِ الْفَرْسِيَّةِ .

مَدْرَسَةُ حُرَّةٍ ، إِذَا عَرَفَهَا التَّلَمِيذُ ، سَعَى إِلَيْهَا بِلَا تَرْغِيبٍ وَلَا تَرْهِيبٍ . كَانَتْ أَكْبَرُ أُمْنِيَّةٍ لِلآباءِ ، وَهِيَ الْيَوْمَ أَشْعَى غِذَاءَ مَقَافِيِ الْلَّاَبَاءِ .

رقم الإيداع	١٩٩٨/٥٧٦٢
الرقم الدولي	ISBN 977-02-5575-0

٧/٩٨/١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

مكتبة الأطفال



أمساطير العالم

- ١ الملك ميداس . ٢ في بلاد العجائب .
٣ القصر المهدى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أتينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

- ١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ في الأصطبل . ٤ جبارة القابة .
٥ أم سند وأم هند . ٦ أميرة السنابس .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكبوت الحزين . ١٠ النحلـة العاملة .

أشهر القصص

- ١ جلغر في بلاد الأقزام .
٢ « في بلاد المقالفة .
٣ « في الجزيرة الطيارة .
٤ « في جزيرة الحباد .
٥ روشن كروزو .

قصص عربية

- ١ حمـى بن يقطـان . ٢ ابـن

قصص تمثـلـية

- ١ الملك التجـار .

قصص فناـهـيـة

- ١ عمـارة . ٢ الأرنب الذـكـرى .
٣ عـفارـيـتـ الصـوـصـ . ٤ نـعـانـ .
٥ العـرـنـدـسـ . ٦ أبو الحـنـنـ .
٧ حـذـاءـ الطـبـورـيـ . ٨ بـنـ الصـبـاغـ .

قصص من ألف ليلة

- ١ بـابـاـ عـبدـ اللهـ وـالـدـرـوـيشـ .
٢ أـبـوـ سـيرـ وـأـبـوـ قـيـدـ . ٣ عـلـىـ بـابـاـ .
٤ عـبـدـ اللهـ الـبـرـىـ وـعـبـدـ اللهـ الـبـرـىـ .
٥ الـلـكـ عـجـيبـ . ٦ خـسـرـ وـشـاهـ .
٧ الـسـدـبـادـ الـبـرـىـ . ٨ عـلـاـهـ الـدـينـ .
٩ تـاجـرـ بـنـدـادـ . ١٠ مـدـيـةـ التـحـاصـ .

قصص هـنـدـيةـ

- ١ الشـيخـ الـهـنـدـىـ . ٢ الـوـزـيرـ السـجـينـ .
٣ الـأـمـيرـةـ الـقـاسـيـةـ . ٤ خـاتـمـ الذـكـرىـ .
٥ شـبـكـةـ الـمـوـتـ . ٦ فـيـ غـابـةـ الشـيـاطـيـنـ .
٧ صـرـاعـ الـأـخـوـيـنـ .

قصص شـكـبـيرـ

- ١ الـعـاصـفـةـ . ٢ تـاجـرـ الـبـنـدقـةـ .
٣ يـوليـونـ قـيـصـرـ . ٤ الـمـلـكـ لـيـرـ .

Bibliotheca Alexandrina



0287841